

الإفخوة الأعداء

نيكوس كازانتزاكي

مؤلف رواية «زوريا اليوناني»

ترجمة إسماعيل المهدي

**** معرفتي ****

me3refaty.blogspot.com

نيكوس كازانتزاس
مؤلف "زوربا اليونان"

الأخوة الأعمى

ترجمة اسماعيل المهدي

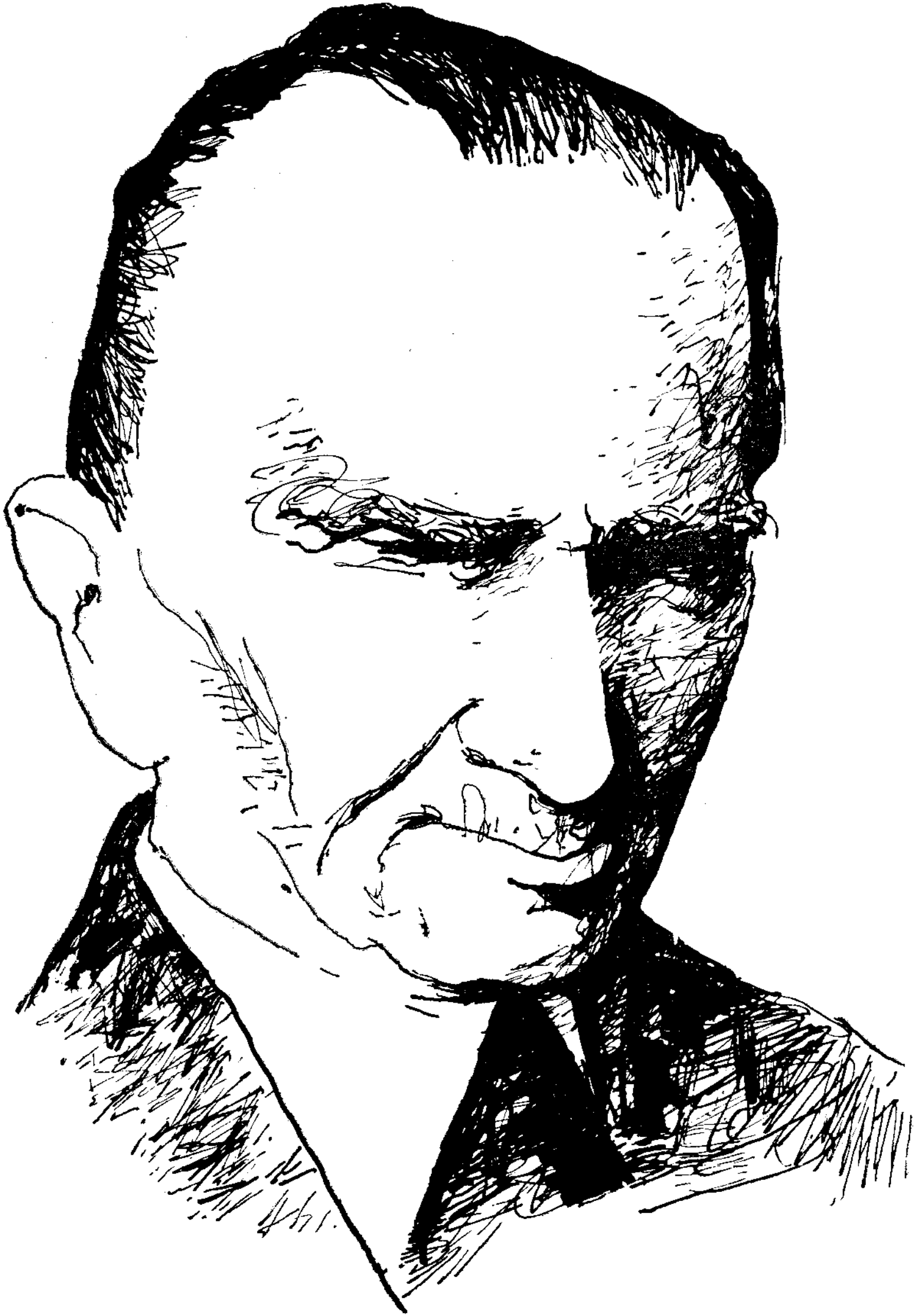
الغراف والرسوم الراقية للفنان

محمد عبد الوهاب

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للطبعة ومكتبة
الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

مطبعة الدار المصرية ٥٠٠٠/٣/١٩٦٧



نیکوس کازتزاکی

نيكوس كازنتزاكي

تأثير اشتراكى . . مفرد ومردى . . مسيحي برفضه المسيحية

مسيحية الأُسَافَةِ ومسيحية الثوار :

« المسيح لا يرضى حاجق بالحالة التي جعلوه عليها . . بملابس الذهب والقصور التي يقيمون فيها الحفلات في المساء مع سادة هذه الدنيا . أنا أتحرق شوقاً إلى مسيح حافي القدمين ، جائع مقهور . شبيه بهذا الذي اقيه الحواريون على طريق عمواس فرسالة المسيح قد هانت . وانمحت آثاره المقدسة من الأرض . نحن لا نتبع اليوم إلا آثار المنافقين ذوى اللحى . الآثار التي تركتها في الوحل حوافر الشيطان . لقد قلبوا كلمات المسيح فجعلوها : « طوبى للقساة بالروح لأن لهم ملكوت الأرض . طوبى للمتكبرين لأنهم يرثون الأرض . طوبى للجياع والمطاشي إلى الظلم . طوبى لمن لا يرحمون . طوبى لمن لهم قلب دنس . طوبى

اصنامى الحروب . « . هؤلاء هم الذين يسمونهم اليوم مسيحيين . »
هذه كلمات الراهب الشاب نيكوديم للقسيس العجوز الأب ياناروس .
وهذه أيضاً كلمات الأب ياناروس لذلك الرجل الشره ذى الكرش
الكبير الوافد من دير جبل آتوس . أصبحت الرهبانية على أيدي هؤلاء
تعنى . . « النفاق والكسل والشراسة » .

والقضية الأولى التى تحتل مركز الاهتمام فى كل مؤلفات نيكوس
كازنتزاكى ، هى أن الدين فى حقيقته ثورة ، والأنبياء فى حياتهم على
الأرض بين البشر ثوار وقادة جاؤوا ليحققوا الحياة الكريمة للناس فى
هذه الدنيا لا ليدفعوهم إلى التخلي عن الدنيا . ورجال الدين فى قصص
كازنتزاكى ينقسمون عادة إلى نوعين : ثوار فقراء يرفعون راية الثورة
مع راية الدين ، ومرتزقة يستخدمون الدين لتحقيق أطباعهم الشخصية —
يستخدمونه وسيلة لانتزاع فتات الخبز من أفواه الجوعى وحماية
السلطان الظالم .

فى روايته الكبرى « المسيح يصلب مرة أخرى » (١) ، كان هناك
رجلان يقفان فى كل أحداث الرواية وجهاً لوجه . مفهومان للدين .
القسيس الفقير الثائر الأب فوتيس ، والقسيس الثرى المنافق الأب
جريجوريس . الأول يقود ثورة المسيحيين المخلصين من أجل العدالة
الاجتماعية وتوزيع الثروة على أهالى ليكوفريسى والتمردين ضد الحكم
العثمانى — والثانى يقود أغنياء القرية ليحمى أملاكهم ويحمى سيطرة
الأغا التركى . الأول جائع حافى القدمين شجاع — والثانى متخم البطن
يرفل فى الحرير ، مخادع يفعل أى شىء لإرضاء الأغا ، لا يتورع عن أن
يصحب له عذراء شابة يطلبها غلامه المدلل .

(١) يصدر المترجم الترجمة العربية لهذه الرواية عن « دار المعارف » .

ونيكوس كازنتزاكي قضى في جبل آتوس المقدس سنوات طويلة من شبابه ، وعاش مع الرهبان حياتهم الخاصة التي لا يعرفها الناس خارج الأديرة ، ثم ثار عليهم ، وفعل كما فعل الراهب نيكوديم في « الإخوة الأعداء » حين حطم وعاء الطعام وقلب كأس النبيذ وصاح في الرهبان :

« . . . قفوا ! أنتم جالسون هنا سواعدم معقودة والعالم يجري نحو الضياع ! قال الرب : ليس بخوراً أريد ولا صلوات ولا لهما . افتحوا مخازنكم ووزعوا الخبز على الفقراء ، وانتشروا في الأرض لتعانوا كلمة المسيح : المحبة والعدالة والسلام ! » .

وليس أقدر على وصف الحياة في الأديرة من كاتب مفكر عاناها وشارك فيها ، وخرج منها ليدعو إلى الاشتراكية .

في كل قصة من قصصه يحكي عن تلاعب الرهبان .

يحكي على لسان الأب ياناروس كيف شاهد جمعيتين اثنتين لقسيس واحد . القديس كريكوس . يحكي عن حزام العذراء المقدس . الحزام المنسوج بخيوط من الذهب . وقد كانت العذراء فقيرة ، وعاش ابنها طوال حياته فقيراً . . فمن أين حصلت على حزام ثمين منسوج بخيوط الذهب ؟

يحكي عن الرهبان الذين يجوبون القرى ليجمعوا الصدقات والهبات باسم الدين ، يأخذون حفنة قمح أو بصلة أو تليفعة من عجوز مذعورة باسم العذراء . وهل تأخذ العذراء ؟ حاشا لله ! بل العذراء تعطى ولا تأخذ . وإلا فلماذا سميت أم المسيحيين إذا كانت تقبل لقمة الخبز من أفواه الجوعى ؟

ومع ذلك ، فما أكثر الأبرار المخلصين داخل الأديرة . هؤلاء الذين طحنهم قسوة الحياة ، وخافوا أن تسجرهم مغرياتهما ، فسارعوا إلى الفرار . هناك في الصحراء عاش كل منهم كاللودة في الشرنقة . أحاط نفسه بأربعة جدران في غرفة صغيرة ، لا يرى خارجها سوى قطعة من السماء .

هكذا عاش الأب آرسنيوس . ذلك الراهب الفنان . تفوح منه رائحة القداسة والصدق والطهارة . كان الأب ياناروس يقضى الليالي يبادل الحديث الحلو . ولا يكاد يتركه حتى ينكفي الرجل على قطع الخشب ينحت فيها روحه . ينحت صور القديسين والملائكة وقصص الحياة الأخرى . أخذ منه الأب ياناروس لوحة الدينونة الأخيرة . يوم الحساب . وكان يتأملها في هذه القرية الموحشة التي عاش فيها بعد أن ترك الدير ، فيتذكر آرسنيوس . . وعندما يغلبه اليأس والشعور بالعجز ، يتمنى لو عاد إلى هناك . إلى العزلة الجميلة . إلى جبل آتوس . يصنع لنفسه شرنقة إلى جانب الأب آرسنيوس ، لا يرى فيها سوى قطعة من السماء ، ومن حين لآخر يتبادل معه الحديث الحلو عن أسرار الإيمان . .

وفجأة ضاع هذا الأمل . جاءه الراهب نيكوديم يبلغه بما حدث للأب آرسنيوس . أصابه الجنون . هذا القديس الطاهر . ولكنه إنسان . وقلب الإنسان يمتلئ دائماً بالشياطين والشهوات والنساء العاريات . كان الأب آرسنيوس يدفعها بالصلوات ويقيدها بخشية الله . ولهذا لم يكن يحب أن ينام . الليالي الطويلة كان يقضيها منكفئاً على قطع الخشب خوفاً من الأحلام . وفي لحظة قصيرة ، انزاح الغطاء قليلاً ، فانهزت الشياطين الجبيسة هذه الفرصة وقفزت خارجة . وبدأ الأب آرسنيوس ينحت صور النساء العاريات وقصص الشياطين . ثم بدأ يخرج عارياً تحت أشجار البرتقال ويتمرغ على الأرض ويصرخ . وضربه

الرهبان دون شفقة ليطردوا الأرواح الشريرة من جسمه . وتركوه جريحاً يموت في شرنقته .

لم تعد العزلة طريق الخلاص . أصبحت الدنيا هي الدير الوحيد للمصلحين . فالإنسان جسم وروح لا ينفصلان . والرهبانية لا تطرد الغواية ، لكنها تعطيها صوراً ملتوية ملفوفة بالخداع . في أحشاء الراهب — كما يقول الأب ياناروس — تشتمل كل الأهواء سرا ودون أمل . فما أشقى هؤلاء الذين يعيشون في العزلة وقلوبهم تمتلئ بذكر الدنيا ومغرياتها .

هذا عصر رهيب . والجيل الحاضر أشقى أجيال الإنسان . يعيش بين شقي رحى . يعيش ثورة كبرى في الفكر والنظام الاجتماعي . وفي أيامنا هذه أصبحت الصلاة هي العمل ، والتنسك أن تعيش مع الناس وتكافح مع الناس ، والخلاص هو الكفاح من أجل خلاص البشر . وقد قرر الأب ياناروس أن يعمل للناس وأن يعيش ويكافح معهم في هذه القرية الموحشة كاستلوس .

وعندما وقعت الحرب الأهلية بين الشيوعيين والماكينين ، قرر أن يقف ضد الحرب . أن يمنع المذبحة . كان يصيح : المحبة ! المحبة ! والجثث تتساقط حوله ، والحقد يأكل القلوب ، والرغبة في القتل تعيد الإنسان إلى جده الغابر : الغوريلا .

وكان الأب ياناروس في شبابه متصوفاً يمشى على اللهب ويمتحن إيمانه بالألم . يؤمن بوحدة الوجود . ويجعل الله اسماً يطلقه على كل شيء . يريد هنا على الأرض لا بعيداً في الأعلى . يشعر به في قلبه وبين

ضلوعه . المسيح الرب يسكن أحشاءه . وكان يلجأ اليه في الشدائد ويبادله الحديث . يكلمه ويسمع صوته يرتفع من أعماقه .

وعندما جرت أنهار الدم وتمرغ أطفال القرية مبتلعون الوحل ، صرخ : إني ذاهب أفضح هذا العالم لله !

وهناك في الكنيسة أمام صورة المسيح أخذ يصيح :

يا يسوع ! انظر الى الأطفال المشوهين والأشلاء المبعثرة وأطلال الحياة ! انزل من السماء ! فها هنا نحتاج اليك في كاستلوس . اصنع معجزة يا يسوع !

لكن الصورة صماء ، والسماء بكاء ، والصياح لا يجد سوى رجع الصدى .

وعاد القسيس يصرخ :

أين تقف يا يسوع حتى أتبعك ؟ هل تقف مع الجيش للملكي الذي يدافع عن الظلم لكنه يرفع راية الدين ؟ أم تقف مع الشيوعيين الذين يدافعون عن العدالة لكنهم ينكرون الدين ؟

وأخيراً ارتفع من أعماق قلبه صوت يسوع هادئاً حلوا :

تسألني أين أقف ؟ أقف في السماء . في الأعلى . لقد خلقتك يا أب يا ناروس حراً ، وعليك أنت أن تختار طريقك . لا تسألني النصيحة .

وقرر القسيس أن يمارس الحرية التي وهبها الله إياها . سمع كلمة الرب ، فاختر طريقه . قرر أن يصعد إلى الجبل .

أبن سيف المسيح ؟

لكن المسيحي الذي يريد أن يستخرج الثورة من قلب المسيحية ، يصطدم بعقبة كبرى ، هي قصة صلب المسيح . قصة الاستسلام للأعداء من أجل إنقاذ البشر . قصة الخد الأيمن والحد الأيسر ، والدعوة إلى « وداعة الحملان » .

ويناقش نيكوس كازنتزاكي هذا الموضوع الخطير أكثر من مرة . وفي رأيه أن الظلم لا ينزاح إلا بالسيف ، وأن العين بالعين ، وأن التسليم للأعداء يزيدهم عدواناً .

في رواية « المسيح يصلب مرة أخرى » ، كان الشاب الطاهر الشجاع مانولايوس يمثل دور المسيح . وكافح الشاب مع أهل سارا كينا من أجل حقهم في لقمة الخبز من أعيان القرية . ووقع الصدام . وحكم الأغا والأعيان بقتله ، وقرر القسيس جريجوريس حرمانه وإهدار حياته . وخيل إلى مانولايوس البريء أنه يستطيع أن يفتدي الفقراء بدمه ليعيشوا من بعده في أمان . وسلم نفسه . وفي داخل الكنيسة قتلوه . وكان دمه لا يزال ساخناً عندما انتشروا يبحثون عن جماعة سارا كينا ليبيدوهم عن آخرهم .

وهز القسيس الثائر – الأب فوتيس – رأسه في أسى ، ومد يده يربت بحنان على وجه مانولايوس ، ويستخلص من موته حكمة الثورة والصراع الاجتماعي . يقول هامساً :

« يا عزيزي المسكين مانولايوس . قدمت حياتك دون جدوى . ألقيت على نفسك تبعاً كل الجرائم التي اتهمونا بها . وكنت تصيح : أنا

الذي سرقت . أنا الذي أحرقت . أنا الذي قتلت . عساهم يتركوننا نستقر
في أمان على أراضينا ... لكن دون جدوى . «

ويسمع الأب فوتيس جرس الكنيسة يعلن ميلاد المسيح ، فيتهد
ويستأنف حديثه الهامس :

« وهذا أيضاً أيها الرب كان بدون جدوى . انقضى ما يقرب من
ألفي عام ولا زالوا حتى يومنا هذا يصلبونك . فمتى تأتي أيها الرب إلى
الدينا فلا تصلب مرة أخرى بل تعيش معنا إلى الأبد ؟ »

وفي « الإخوة الأعداء » يخاطب الأب ياناروس المسيح قائلاً :

« إذا أردت أن تعود إلى الأرض ، فلتعد أيها المسيح كالأسد
الكريم لا كالحمّل ... لقد قلت : أنا أحمل سيفاً . فأين هو ؟ حق مق
تظل تصلب ؟ تسلمح واهبط إلى الأرض . لقد فهمت أخيراً واجب الإنسان
بعد كثير من الآلام والدماء . أيتها الفضيلة ، تسلمحى ! أيها المسيح
تسلمح ! ... العالم لم يعد يحتاج إلى الرب المصلوب ، بل يحتاج إلى رب
الجيوش . حسبك آلاما ودموعا وصلباً . انهض وانزل إلى الدنيا كتائب
الملائكة تحمل إلينا العدل . كفى ما أصابنا من تحقير وضرب بالسياط
ووضع أكاليل الشوك فوق الرؤوس وقتل على الصليب . جاءت الساعة
لتقوم من الموت . نحن نريد الدينونة الأخيرة فوراً . ها هنا على الأرض .
فانهض ! »

لكن كان نترزاكي لم يكن آخر من كتب في هذا الاتجاه . فقد ظهر
تيار بين علماء اللاهوت المسيحي في أمريكا وبريطانيا يحاول أن يعيد
دراسة الأصول التاريخية المسيحية ليناقد هذه المسألة . وانتقلت
هذه المناقشات من كتب اللاهوت إلى صفحات المجلات والصحف في العالم ،

خصوصاً في التاييم والنيوزويك . ويدور هذا الاتجاه الجديد حول نقطتين أساسيتين هما : ألوهية المسيح ، وقصة موته على الصليب . وفي رأى أصحاب هذا الاتجاه أن معظم الأخبار والنصوص الخاصة بهاتين النقطتين ، أضيفت نتيجة التطرف في الإيمان والتأثر الشخصي دون سند تاريخي . وقد عثر علماء التاريخ المسيحي في استنبول على مخطوط يحوى ترجمة لأفكار فرقة مسيحية غاصرت المسيح وعاشت معه منذ كان يعيش في قرية الناصرة ، وهي فرقة « أهل الناصرة » التي اضطهدها بعض الحواريين فيما بعد وشتتوا أفرادها وطردهم من فلسطين . ويقول المخطوط إن المسيح لم يكن ينسب إلى نفسه الألوهية ، وإنه لم يقتل على الصليب ، لكنه أوعز إلى تلاميذه يهوذا بأن يرشد اليهود إلى رجل شبيه به ، فقبضوا عليه وصلبوه بدلاً منه . ويروى علماء آخرون أن رجال المسيح رتبوا تسليمه بحيث يصلب يوم الجمعة — كما تروى الأناجيل — لأن تقاليد اليهود تمنع بقاء المصلوب على الصليب يوم السبت ، وأنهم اتفقوا مع أحد الحراس على إعطائه مخدراً مع الخل الذي يقدم في مثل هذه الحالات . وعندما أغشى عليه ظنوه ميتاً ، فتقدم أحد تلاميذه وكان من أثرياء قرية الرامة واسمه يوسف ، وطلب جسده — عليه السلام — فتركوه يحمله دون أن تقطع أطرافه كما اعتاد اليهود أن يفعلوا في ضحاياهم .

وسواء كانت هذه التفسيرات صحيحة أم غير صحيحة ، فهي على كل حال تدل على اتجاه عدد من علماء اللاهوت المسيحي إلى رفض قصة الصلب دون أن يعنى ذلك تخليهم عن المسيحية . وإذن فلم يكن كازنتزاكي بدعا في هذا الرأى . بل الحقيقة أنه لم يكن يستطيع أن يستخرج من تاريخ المسيحية أفكار الثورة والصراع دون أن يتعرض لهذه النقطة .

التشاؤم والأمل :

وجد الأب ياناروس نفسه في خرائب مدينة كبيرة ، يتصاعد الدخان من أطلالها ، وتفوح في جوها رائحة الجيف النتنة تنهشها الكلاب والقطط الجائعة . ووقف الأب ياناروس في أحد مفارق الطرق يشعر كأنما أصيب بالجنون ويبحث عن أحد يسأله . ومن حين لآخر يمر رجل يترنح كالسكران ، جسمه جسم إنسان ، لكن وجهه وجه مسخ مشوه . ممزق ملطخ بالطين يبرز من مكان فمه خرطوم يقطر دماً . والأب ياناروس يقف كالمتسول مشلول الحركة يسأله : « أنوسل إليك يا سيدي العزيز . قل لي : هل أنا مجنون ؟ » ويجيبه الرجل ماضياً لا يتوقف : « ماذا أقول لك يا سيدي العزيز ؟ هل تستطيع أن تقول لي أنت عما إذا كنت أنا مجنوناً ؟ أنا مثلك لا أعرف شيئاً . » ويهز خرطومه وينفجر ضاحكاً يعضى . ويظل الأب ياناروس واقفاً في مفترق الطرق لا يريم .

هذا الحلم الذي رآه القسيس المعجوز بعد عودته من الجبل يمثل عمق ما يعانيه المخلصون في هذا العالم من حيرة وفاق . اختلطت أوراق اللعب ، كما قال الكابتن دراكوس . لم يعد أحد يعرف الحقيقة . لم يعد أحد يعرف الطريق . كل فكرة لها قديسون وشهداء يموتون من أجلها . وكل فكرة لها شياطين وأفاعى يركبون ظهرها . فكيف السبيل إلى التمييز بين الخطأ والصواب ؟

وفي هذا العصر الرهيب أصبح الأشرار سادة العالم ، وأصبح الأبرار مستضعفين مقهورين ، نزعت الفضيلة مخالهم وأنياهم ثم لم تعطهم سلاحاً يدفعون به الشر عن أنفسهم . وفي عصر التطاحن الاجتماعي ، انقسم الناس إلى نوعين : ذئاب مفترسة ، وحملان مستسلمة . لم يظهر بعد ذلك الحيوان الذي يجمع بين القوة والوداعة . إما أن تقتل ، أو أن يقتلوك .

وعند ما يصل الإنسان الى درجة القتل بدون كراهية ، ينحدر إلى قاع الهوة . هكذا يفعلون في الحرب . أنت تقتل شخصاً لا تعرفه ولا تكرهه ولا تشعر نحوه بشيء — تقتله لسبب واحد فقط : لكي لا يقتلك هو . إذ ذلك تنتفض الغوريلا الكامنة في أعماق الإنسان وتمز شعرها الأسود الكثيف ويغرق الإنسان في سعار الوحشية .

لا ، فهو لم يصبح بعد إنساناً . إنه لا يزال حلقة وسطى بين الغوريلا وذلك الكائن المتطور الراقى الذي سيجمع بين بطش الذئب ووداعة الحمل . إنسان المستقبل .

والشاب الصغير ليونيداس يصرخ :

« إذا كنت عادلاً يا يسوع ، فيجب أن تعطى القوة لمن هم على حق

لا لمن هم على باطل . »

لكن العالم يجري بلا قلب ولا عقل ، تحكمه المصادفة التي لا ترحم .

وقد حاول الأب ياناروس أن ينقذ القرية من الدمار ، فضربوه

بالرصاص .

هل الطريق مسدود إذن ؟

هل سقط العالم نهائياً في يد الشيطان ؟

لا . فالعجلة تسير . والتاريخ يقفز دائماً من القديم إلى الجديد .

إنسان المستقبل لم يظهر بعد ؟ لكن لا تتعجل يا أب ياناروس . فالشباب

روح العالم . وفي انطلاقتهم ينمقد الأمل . والشر لا ينتشر إلا على أيدي

القادة . هؤلاء الذين يوزعون الغنائم والأفراد فيما بينهم ، ثم يتصارعون

ويتقاتلون ويجرون الأبرياء وراءهم .

وقدرة الإنسان غير محدودة . إنه يستطيع أن يجعل من قطعة قماش

صغيرة ، راية مقدسة . إنه يفرز القداسة على الأشياء . وعند ما سأل خادم الدير عن حزام المذراء ، قال له الرجل المعجوز في بساطة : لا تبحث في هذه المسائل البعيدة يا أب ياناروس . فإذا لم يكن حقيقياً ، فالناس يجعلونه كذلك . المهم أن يؤمنوا بأنه حقيقي .

المشكلة هي أن يجد الإنسان مثلاً أسمى يجعله الهدف الأسمى لوجوده . وإذا ذلك تكتسب حياته معنى ، ويتحول موته إلى خلود ، وتصبح أعماله نبيلة : وليكن هذا المثل الأسمى بأى اسم : الوطن . الله . الحرية . العدالة . فالمهم أن تؤمن به وتعمل من أجله .

كان الأب ياناروس يؤمن بالله . وكان القومندان الملكي يؤمن بالوطن . وكان درا كوس الشيوعي يؤمن بالشعب . لكن الثلاثة كانوا في نفس مستوى الشجاعة وحرية الإرادة . كانوا يحتقرون الموت . من أجل أهدافهم لا يخافون الموت . فكيف تستطيع أن تقهرهم أو تحنى رؤوسهم ؟ إذن فالحرية معناها ألا تخاف الموت . والحرية أيضاً أن تكافح دون خوف . هذا الكفاح من أجل الحرية ، هو الحرية نفسها . وهنا تبدو وجودية كازنتراكي واضحة . الاختيار الذاتى المثل الأسمى . ذوبان الهدف فى الفعل . نسبية السلوك . نسبية الحقيقة .

وفى رأيه أن النظريات والمعتقدات كلها قصص . والناس كالأطفال يعبدون القصص . لكنهم كالأطفال أيضاً يملون القصص المعادة . وإذن فيجب أن تظهر فى كل عصر جديد قصة جديدة .

ولهذا السبب ، تولى الوجودى المسيحى الفرنسى جابريل مارسيل إصدار الترجمة الفرنسية لهذه القصة .

لكن الحقيقة أن كازنتراكي لم يقف عند الوجودية . وأفكاره أكثر

وضوحاً في أعماله الأخرى . إن الوجودية عند كازنتزاكي مجرد انفعالات قلب متمرّد حائر يبحث عن شيء ما يتعلق به . مجرد هواجس العجز والقلق ، لا تلبث أن تزول ليحل محلها طريق جديد محدد المعالم . طريق الاشتراكية والثورة والسلاح . طريق الناس البسطاء الذين يتصارع الرؤساء باسمهم . طريق المسيح ولينين معاً . طريق الوحدة بين السماء والأرض . وبعبارة أخرى ، الطريق الذي يجمع بين الحرية والعدل .

أعماله كلها تمثل موقفاً واضحاً صريحاً من الصراع الاجتماعي : موقف الدفاع عن حقوق الفقراء . تمثل موقفاً واضحاً صريحاً من الأخلاق الفردية : موقف الإيمان بالروح والجسد معاً ، والدعوة إلى فضائل الأرض لا فضائل العزلة المجردة . موقف الشجاعة واحتقار الموت ، موقف الدفاع عن الكرامة الإنسانية للفرد ، والإيمان المتفائل ببراءة الشباب وإخلاص البسطاء من الناس .

الجندي الأرسقراطي زانتيس ، كان يعطف على الشيوعيين ويرفض تنفيذ أوامر القومندان . وعندما استولى الشيوعيون على القرية وفرضوا عليه أن يختار بين الموت والانضمام إلى صفوفهم ، اختار الموت قائلاً في هدوء :

« كرامتي الإنسانية تمنعني من الخضوع للعنف ! »

حق القائد الشيوعي دراكوس قرر أن يتمرد على الحزب . لماذا ؟ لأن الطاعة العمياء لا تصنع إلا عبيداً . وهو يريد أن يكافح من أجل العدل والحرية ، دون أن يفقد حقه هو في العدل والحرية .

وقومندان الجيش الملكي — السفاح الذي يسفك الدماء ولا يحني رأسه — يقدمه كازنتزاكي في صورة بطل تراجيدى تدفعه إلى حتفه قوة غامضة يشعر بها ولا يملك فكاً كما منها .

وخلال أحداث الحرب ، كانت الأدوار موزعة بوضوح . الفقراء يدركون مكانهم ، والأغنياء يدركون مكانهم أيضاً . حتى هؤلاء الضعفاء الذين يخضعون للظلم وينفذون أوامر القومندان ، كانوا يشعرون في نفوسهم بواجبهم الحقيقي ، وكانوا يشعرون بأنهم ضعفاء عاجزون .

النسبية ليست إذن عامة مطلقة . الإخلاص نسبي ، والإيمان بالمثل الأعلى نسبي ، والتضحية نسبية . لكنها تدور جميعاً في إطار محدد بشكل حاسم مطلق . إطار الصراع الاجتماعي . وفي هذا الإطار يعرف كل فرد مكانه ، ويلقى المخطيء جزاءه .

والهدف الاجتماعي ؟ إنه لقمة الخبز للجوعى . حتى المسيح لم يكسب تلاميذه إلا على مائدة الطعام . عليهم كيف يستخرجون غذاءهم من البحر ، فأمنوا به . فكلمة الرب تصيب بطن الانسان أولاً ، ثم تصعد بعد ذلك في خفة لتستولي على القلب والرأس والروح .

وهنا يقف كازنتزاكي إلى جانب لينين والماركسية . فقد عرف لينين شخصياً وزاره في موسكو وتحمس الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي عند ما كان الكثيرون يرتعدون منها خوفاً .

لكن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . هناك أيضاً حرية الفرد وكرامته الخاصة ورغبته في أن يشعر بأن طريق الثورة ليس مفروضاً عليه . وكازنتزاكي يطلق على حرية الفرد وكرامته واختياره الذاتي اسماً واحداً ، هو : يسوع ، أو السماء . فكلمتها مشاعر تملأ قلب الانسان وتتجاوز بطنه .

وفي هذه النقطة يختلف مع الشيوعيين .

ولهذا السبب يرفع الأب ياناروس رايته الخاصة ، ويبحث عن طريق

ثالث : طريق لا يقحم الدين في مشاكل الدنيا ولا ينكر الدين من أجل الدنيا ، لكنه يضع الدين في مكانه الطبيعي — في قلب الانسان المكافح ومشاعره — فيصبح قوة في الصراع من أجل العدالة .

لكن كيف تستطيع أن ترفع راية خاصة في عالم يقسمه خط النار إلى قسمين منفصلين ؟

وكيف تستطيع أن تعطى الحرية الفردية والكرامة حق لأعدائك الذين يريدون أن يسفكوا دمك ؟

قال له الكابتن الشيوعي دراكوس :

« اسمع يا أبانا وحب السماء ! لو تركنا كل الناس أحراراً ، سوف نضيع . سيختفي الشعب وتظهر الحثالة . فلا تتمجّل الأمور إذن . الحرية ستأني في دورها . »

وكان دراكوس على حق . لكن الأب ياناروس لم يكن يستطيع أن يتصور عدالة بدون حرية مطلقة . كان هذا جنوناً . ودفع — كما قال — من جنونه .

هل الطريق مسدود إذن ؟

نعم ... لكن إلى حين .

وعندما ينتهي الجوع ، وتنتهي المذابح ، سوف يستعيد الانسان حرّيته . وإذ ذاك سوف يزيح سيطرة القادة في اليمين وفي اليسار ، ليصبح الفرد سيد نفسه ، لا يحكم الآخرون اتجاه حياته ، ولا يفرض عليه صراع الموت أن يختار بين بديلين لا يجتمعان : الحرية أو العدل — كرامة القلب أو منطق العقل — وحدة الوطن أو الصراع الاجتماعي — البيريّه الأسود أو البيريّه الأحمر .

هذا هو التركيب الانساني الثورى الذى صاغه كازنتزاكى فى اعماق
عمل فكرى من أعماله الأدبية : **الإفخوة الأوعراء** .

وسوف يظل الإخوة أعداءً ، والانسان غير مكتمل الفردية ،
والعدل والحرية نقيضين ، والقوة والفضيلة بديلين ، حتى ينقضى هذا
الجيل الرهيب . جيل الصراع الدموى والحرب من أجل الخبز .

« أيها الانسان البائس ! أنت تستطيع أن ترفع الجبال وتصنع
المعجزات . لكنك بدلا من أن تفعل ذلك تترغ نفسك فى القذارة والخبول
والشك ! »

فى هذه الكلمات يكمن إنسان المستقبل ... الانسان الذى أراد الأب
ياناروس أن يحققه .. قبل الأوان . ومع ذلك استطاع أن يهز به ضمير
إنسان اليوم .

قال الطبيب المسيحى ورجل السلام المعروف ألبرت شفايتزر :
« لم يصل أى كاتب إلى التأثير فى نفسى بهذا العمق مثل نيكوس
كازنتزاكى . »

اسماعيل المهروى

(القاهرة سنة ١٩٦٦)

١

وصلت الشمس إلى كاستلوس وغطت أسطح المنازل . وبدأت في هذه اللحظة تفيض وتنتشر في الأزقة الملتوية ، الصاعدة إلى أعلى القرية والمنحدرة إلى أسفلها . وبلاشفة ، كشفت عورة كاستلوس فأظهرت ما فيها من قبح وقسوة . قرية موحشة يكسوها لون داكن . بيوتها من الحجر الصلد ذات أبواب يخنقها الخجل . تدخلها بالحناء . وفي الداخل ظلام .

وفي أفنية البيوت تفوح رائحة الروث وبعير الماعز وتفوح رائحة البشر . لا يرتفع في واحدة منها جذع شجرة ولا قفص عصفور يفرّد . ولا يظهر إصيص على حافة نافذة تبرز منه قرنفلة حمراء أو عود ريحان . فلا ترى المين في كل مكان سوى حجر من فوقه حجر . حتى النفوس التي تحيا داخل هذه الأحجار قاسية متحجرة . فكل شيء هناك من الحجر الصوان : الجبال والبيوت والناس .

ونادراً ما ارتفع في أحد أركان القرية صدى ضحكة — لم يحدث

ذلك إلا في السنوات التي تحمل بعض الخير - وإذ ذلك كان يبدو شاذاً كأنه رجس من عمل الشيطان . سرعان ما يشيح العجايز بوجوههم ويعقدون ما بين حواجبهم ، فينظف الضحك .

وفي الأعياد الكبيرة ، عيد الميلاد أو عيد القيامة أو الثلاثاء الكبير ، كان الناس يجدون من الطعام والشراب أكثر قليلاً مما يجدون كل يوم ، فيولد في حناجرهم غناء ، يخرج كأنه نواح ، ينتقل دون توقف من فم إلى فم في تنعيم جنازى وطنى وتيرة واحدة تفتت الأكبادة . ترى أى إرهاب لا ينسى وأى مذابح ومجاعات وأى عبودية يصدر عنها كل هذا الحزن ؟ غناء يحمل أكثر من أى شكوى ، الأثر الغائر الذى لا يمحي لما قاساه هؤلاء الناس طوال قرون عديدة من الجوع والسوط والموت . لكنهم كالأعشاب التي لا عقل لها تعلقوا بهذه الصخور القاسية ، ثم لم يريدوا فكاً كما منها بعد ذلك . فسكان هذا الجزء من اليونان لهم رؤوس صلبة ، لا ينفصلون عن الصخور التي التصقوا بها حتى يوم الدين .

أجسادهم ونفوسهم اكتسبت لون الصخور وصلابتها . بل أصبحت الصخور كأنها جزء منهم . يقاسون معاً كل شيء : المطر والجفاف والجليد . كأنهم جميعاً آدميون أو كأنهم جميعاً صخور . عند ما ينفصل رجل وامرأة عن الآخرين ويذهبان إلى القسيس ليرزوجهما ، لا يجدان كلمة حلوة يتبادلانها . فهما لا يعرفان كلمات من هذا النوع . وفي صمت أخرس يختلطان معاً تحت أعظيتهم الصوفية الحشنة لا يفكران إلا في شيء واحد : أن ينجبا أطفالاً ترث هذه الصخور والجبال والجوع .

النساء كثيرات - عددن أكثر مما يجب . والرجال أقل من العدد المناسب . عندما يتزوجون ويدسون في بطون زوجاتهم أطفالاً

منذ الليالي الأولى ، ينطلق معظمهم بقلوب ممزقة يتساءلون : كيف سيعيش الأبناء في هذه الصخور الجرداء ؟ فيرحلون بعيداً بعيداً ، وما أطول ما يغيبون . « أناس أسفارهم طويلة وعودتهم بعيدة » . . هكذا تقول الأغنية في مرارة . والنساء تجف أعوادهن من الوحدة ، ولا تلبث أنداؤهن أن تتدلى وتعلو الشميرات شفاههن . وفي الليل يعانين البرد قبل أن يغبن في النوم العميق .

حياتهم حرب لاهوادة فيها . حرب مع الله ، مع الرياح ، مع الجليد ، مع الموت . لهذا السبب لم تفجأ الحرب الأهلية أهل كاستلوس ولم تصبهم بالدعر ولم تغير عاداتهم ، كل ما حدث أن ما كان حتى ذلك الوقت راقداً في دخائلهم صامتاً لا تراه العين ، انفجر في هذه اللحظة وانفلت دون حياء ولا خجل . وانقطع اللجام عن هذا الدفع السكامن في الإنسان منذ أزمنة سحيقة : اقتل . فكل واحد منهم كان يكره جاراً له أو صديقاً أو أخاً . ظل يكرهه سنوات دون سبب وربما دون أن يشعر . وتزايدت هذه الكراهية في النفوس شيئاً فشيئاً دون أن تجد ما تنصرف إليه . و فجأة بدأوا يوزعون عليهم البنادق والقنابل اليدوية ، ويلوحون فوق رؤوسهم بالرايات المقدسة . وبدأ القساوسة والصحفيون وذوو المناصب يدعونهم أن يقتلوا جيرانهم وأصدقاءهم وإخوتهم ، ويقولون لهم إن هذا هو الطريق الوحيد لينقذوا الوطن والدين .

هكذا ظهر فجأة تبرير ديني لهذا الشيء المكتوب على جبين الإنسان منذ القدم : القتل . وانطلقت حملة القنص والمطاردة ، مطاردة الإنسان . مطاردة الأخ :

وضع البعض على رأسه يديه أحمر ولجأ إلى الجبل . أما الآخرون فتحصنوا في القرية وعيونهم لا تتحول عن قمة الجبل حيث تمسك قوات

الأنصار - قمة الذسور كما كانت تسمى . فى بعض الأحيان كان رجال البيريه الأحمر يتدفقون على السفح مطلقين الصراخ المرتفع ، وفى أحيان أخرى كان رجال البيريه الأسود يتسلقون الجبل ليحملوا على أعدائهم . وكانت الأجسام تتشابك وتلتصق ، والأخوة يذبحون بعضهم بعضاً فى نهم شديد . حتى النساء كن يبرزن من الأفنية الصغيرة أو يصعدن إلى الشرفات ، رؤوسهن عارية وشعرهن منفوش ، ليثرن نائرة الرجال . بل حتى الكلاب كانت تذببح فى أعقاب أصحابها تطلب نصيبها من القنص . وكان الليل يهبط آخر الأمر فيبتلع المتقاتلين جميعاً .

واحد فقط من بينهم ظل بلا سلاح ، يفتح ذراعيه مستيئساً لكن دون جدوى . قسيس القرية الأب ياناروس . كان ينظر أحياناً إلى اليمين وأحياناً إلى اليسار ولا يستطيع أن يتخذ جانباً من الجانبين ، فيقف وحده يتساءل ليل نهار فى قلق وحيرة : « لو أن المسيح عاد ، فى أى جانب كان سيقف ؟ هل مع السود ؟ هل مع الأحمر ؟ أم كان سيدبقى هو أيضاً فى الوسط يصيح وذراعه مفتوحتان : أيها الإخوة ، حبوا بعضكم بعضاً ! أيها الإخوة ، حبوا بعضكم بعضاً ! » .

هكذا كان يصيح الأب ياناروس نائب الله فى كاستلوس وذراعه مفتوحتان ، لكن ما أغنى عنه صياحه . فلم يكن يسمع إليه أحد ، كان السود والأحمر معاً يصبون عليه الشتائم :

— يا خائن ! يا بلغارى ! يا بلشفي !

— يا غراب ! يا فاشقى ! يا مزور الحقائق على الشعب !

وإذ ذلك كان الأب ياناروس ينصرف مهموماً يهز رأسه الكبير

قائلاً : « الشكر لك يا رب ! الشكر لك يا رب ! أنت وضعتنى فى أقسى تجربة . فأنا أحبهم جميعاً وما من أحد يحبنى . لكن يا إلهى

لا تشد الحبل أكثر مما أحتمل ، فأنا إنسان ، لست ملاكا ولا حيوانا ،
لست سوى إنسان . ترى كم من الوقت ستبقى لي القوة لأتماسك ؟ ربما
في يوم من الأيام أنكسر . أنا أقول هذا لأنك — سبحانه ساعني
يا رب — قد تنسى هذا الأمر في بعض الأحيان ، فتطلب من الإنسان
أكثر مما تطلب من ملائكتك . »

* * *

كان الأب ياناروس يستيقظ في الصباح ويفتح شبك غرفته الصغيرة ،
فيرى أمامه الكتلة الصخرية التي تكسوقه النور . كلها صخور ،
ليس فيها عين ماء ولا شجرة ولا طير . فيتهد وتخلق روحه فوق
إيكونستاتينوس حيث ولد منذ سبعين عاما في منطقة غنية قريبة من
الشاطئ الرملي للبحر الأسود . كم كان الأمن والهناء يسودان هذا
المكان المبارك ! من المؤكد أن الأيقونة الكبيرة على يسار المسيح في
هيكل الكنيسة هناك لم تكن تمثل فقط خيال فنان شديد الإيمان ، بل
كانت تمثل الحقيقة نفسها : القديس الحارس قسطنطين حامى القرية ،
الذي يصل إلى مرتبة الحواريين ، يمسك القرية بين راحتيه ، كأنها
عش وقع على الأرض ، ويضعها تحت قدمي الله . وحين يحل شهر مايو
ويحل معه عيد القديس قسطنطين ، كان هياج الناس يشتد ونشوتهم
الصوفية تشتعل ، فينسون همومهم اليومية وظروف حياتهم البشرية
الساقطة ، وتنبت لهم جميعاً أجنحة ملونة يطرون بها نحو السماء .

ويتساءل الأب ياناروس : « الإنسان يستطيع إذن أن يتخطى
نفسه ؟ نعم . بلا شك . لكن ساعة واحدة أو ساعتين ، أو يوما
كاملا على الأكثر . لا يهم ، فهذا يكفي . وفي هذا يدرك الناس الأبدية
تدركون الله الإلهي الذي يسميه البسطاء الفردوس . »

وما أكثر ما زار الأب ياناروس هذا الفردوس ، وكان يسترجعه كل صباح في القرية الصخرية الموحشة عندما يسرح بفكره عائداً إلى شاطئ البحر الأسود . في القرية هناك كانت توجد جماعة صغيرة من المسيحيين المتعبدين يطلقون عليهم اسم إخوان الأنستنار . . عددهم سبعة ، ومعهم رئيسهم الأب ياناروس . كانت الطقوس التي يمارسونها ترجع إلى ما قبل ظهور المسيحية في أيام الوثنية الأولى . فقد كانوا يشعلون ناراً كبيرة في ميدان القرية ، والناس يجتمعون حولها ويرتلون ، والموسيقيون يحملون الربابات ومزامير القرب . ثم ينفتح باب الكنيسة ويتقدم إخوان الأنستنار حفاة يحملون على أذرعتهم القديسين الاثني عشر : أيقونتين قديمتين للقديس قسطنطين وأمه القديسة هيلين . ولم تكن الأيقونتان تصوران القديسين بالطريقة المعتادة ، أي في صورة كهنوتية لا حركة فيها ، بل كانا يظهران وأقدامهما مرفوعة وقد شمرا الرداء كأنما يستعدان للرقص .

وبمجرد أن يظهر الإخوان تنطلق أصوات الربابات ومزامير القرب ويرتفع من الحشد صراخ مجنون وترتدى نساء كثيرات على الأرض يتلوين في تشنج غريب . ويتقدم إخوان الأنستنار بسرعة في صف واحد وراء الأب ياناروس الذي يقودهم لاهثاً يرتل الترانيل البدائية عن الموت حارس الباب المقدس الذي يفتح أبواب الأبدية . وفي هذه الأثناء تكون النار قد أكلت حزم الحشب المقدس وأصبحت قطعاً من الجمر تطلق . وفي قفزة واحدة يقف فوقها الأب ياناروس وخلفه الإخوان السبعة جميعاً يدوسون قطع الفحم الملتهبة ويبدأون الرقص . ومن حين لآخر يلتقط الأب ياناروس حفنة من الجمر دون أن يتوقف عن الترتيل ، ويلقي بها على الحشد كأنه يرش المؤمنين بالماء المقدس . ما هو الفردوس ؟

ما هي الحياة الأبدية ؟ ما هو الله ؟ ها هنا كل شيء : النار هي الفردوس . وهذا الرقص هو الله . لكن بقاءه ليس بقاء لحظة ، بل بقاء قرون القرون .

وعندما يخرجون من مولد النار ، لا تجد في سيقانهم شعرة محترقة ، ولا في بطون أقدامهم أثراً لحرق ، بل تلمع أجسامهم كأنما خرجت لتوها من حمام منعش في قيظ الصيف .

بعد ذلك تظل ذكرى هذه النار المقدسة مشرقة في النفوس طوال العام كله ، فيسود الحب والسلام والغبطة بين الناس وبين الحيوانات وفي الحقول . فقد كانت الأرض خصبة والله يمنحها بركاته دون حساب ، والسنابل ترتفع حتى تطاول قامة الإنسان ، وأشجار الزيتون تنحني تحت ثقل ثمارها ، والبساتين تفيض بالشمام والبطيخ وأكواز الذرة ذات الحبوب المنتفخة . لكن هذا الرخاء الوافر لم يخلق القسوة في نفوس أهل القرية . فلا يكاد الشحم يكسوهم ولا تكاد الشهوات تسيطر عليهم ، حتى يحل عيد القديس ، فيشعلون موقد النار كما يفعلون كل عام ، وسرعان ما يشعرون بالأجنحة تنبت في جنوبهم .

وجأة ... لماذا ؟ لأي ذنب ؟ القرية لم ترتكب ذنباً خطيراً . وأهلها كانوا يصومون دائماً في أيام الصيام ، ويمتنعون عن الخمر واللحم والسّمك يوم الأربعاء والجمعة . وفي يوم الأحد يذهبون إلى القديس ويقدمون الخبز المقدس ويخبزون القمح الموتى ويعترفون ويتناولون القربان . والمرأة لم تكن ترفع الطرف إلى رجل غير زوجها ، والرجل لم يكن ينظر إلى امرأة غير زوجته . فقد كانوا جميعاً يسرون على صراط الله المستقيم . وكان كل شيء يسير على خير حال . ثم ها هو الله الذي كان

لطيفاً بهم عطوفاً عليهم يشيخ بوجهه عنهم فتغرق قرية إيكونستاتينوس
في ظلام دامس .

ففي صباح يوم من الأيام ، ارتفع في الميدان الكبير صوت حاد يقول :
« ارحلوا عن هذه القرية ! بهذا صدرت الأوامر من سادة العالم !
كل اليونانيين يذهبون إلى اليونان ، وكل الأتراك يذهبون إلى تركيا !
احملوا معكم أطفالكم ونساءكم وأيقوناتكم وارجلوا ، أمامكم عشرة أيام . »
وامتلأت القرية بالنحيب والعويل . الرجال والنساء فقدوا صوابهم
وأخذوا يدورون حول أنفسهم يودعون قطع الحجر وأدوات العمل
وما كينات الحليج ، ويودعون النافورة والأزقة ، ويهبطون إلى
الشاطئ يتمرغون على رماله ويناجون البحر بالصياح الذي يمزق
القلوب . فما أصعب وما أشد ألم النفس حين تنفصل عن الأرض التي
ألفتها .

وبعد أيام استيقظ القس المعجوز داميانوس قبل طلوع النهار وذهب
وحده يمر على البيوت ، دون مساعدة منادى القرية ، وحتى دون مساعدة
نائبه الشاب الأب ياناروس ، يصيح على كل باب : « يا أبناءى ، دقت
الساعة ، وليساعدنا الله ! » .

وقبل أن يطلع الفجر بدأت الأجراس تدق في حزن . ونشطت
النساء في العجين بينما الرجال يجمعون بسرعة كل ما يمكن حمله . ومن
وقت لآخر كانت امرأة عجوز تبدأ نغمة الندب والنحيب ، لكن
الرجال لا يلبثون أن يصرخوا فيها وعيونهم منتفخة لتصمت . فما جدوى
النحيب ؟ فكل ما يدبره الله يجب أن ينفذ ، ولا بد من الاستسلام له .
فلنسرع . لنسرع قبل أن تخور نفوسنا ، وقبل أن ندرك جيداً هول
مصيبتنا . لنخبز الخبز بسرعة . ولنجفف من القمح قدر ما نستطيع .

فالتريق طويل ، ويجب أن نحمل معنا كل ما يلزم ، حتى أوعية الطبخ وقدور المعجن ومراتب النوم والتماثيل المقدسة . لا تخشوا شيئاً أيها الأخوة والأخوات ! إن جذورنا ليست فقط هاهنا في الأرض ، بل تمتد أيضاً إلى السماء وتستمد معدنها منها ، ولهذا السبب كانت سلالتنا خالدة . فلتكن قلوبكم قوية أيها الأولاد ، ولتكونوا شجعاناً .

كانت الرياح شديدة والشتاء في أقسى أيامه . وهاج البحر وتلبدت السماء وخلت من النجوم . وبقي قسيسا القرية الأب دميانوس والأب ياناروس في الكنيسة - في ذلك الوقت كانت لحية الأب ياناروس لا تزال سوداء - وانشغلا في جمع التماثيل والكأس وحامل الإنجيل الفضي والملابس الكهنوتية المطرزة بالذهب . ووقفوا يودعان القديس الحارس الذي كان يرقبهما من قاع القبة . ونظر إليه الأب دميانوس وقد زالت غشاوة الرهبة عن عينيه ، فرآه لأول مرة كما هو في الحقيقة : متوحش ذو شفيتين متقلصتين يملأه السخط والاحتقار ، ويرفع الإنجيل بيده كأنه قطعة حجر يوشك أن يحطم بها رؤوس المؤمنين .

وهز الأب دميانوس العجوز رأسه . كان شاحباً ضعيفاً ، خداه هزيلان ، لم يبق في وجهه من معالم الحياة إلا عينان واسعتان ، يبدو كأنما أذاب الصيام والصلاة وحب الناس جسده كله . كان خلال سنوات عديدة ينظر إلى القديس الحارس بارتعاد فلم يره قط . واستدار نحو الأب ياناروس وكاد يسأله : « هل كان دائماً على هذا القدر من القسوة ؟ » . لكنه شعر بالحجل فابتلع سؤاله وقال :

— يا أب ياناروس ، أنا متمب . فاجمع أنت التماثيل واختر ما سوف نحمله واحرق الباقي لتنقذه من دنس الكافرين . وليغفر لنا الله . ثم اجمع

الرماد ووزعه على أهل القرية لينجهم الحظ السعيد . أما أنا فسأذهب لأدق الأبواب وأصيح : أنت الساعة !

وطلع الفجر . وأشرقت الشمس خلال السحب السوداء هزيلة صلعاء . وفي الضوء العابس كان الظلام يبرز من أبواب البيوت شبه المفتوحة . وصاحت بعض الديكة صياحها الأخير فوق أكوام السبل في العشب . وانفتحت الزرائب وخرج منها البقر والبغال الصغيرة والحير . وخلفها الكلاب والناس . وتصاعدت من الأفران رائحة الخبز فملأت القرية . ومضى الأب دميانوس يجرى من بيت إلى آخر يستحلف الناس قائلاً :

— وحب السماء يا أبناءى لا تبكوا ولا تسبوا إرادة الله ، فربما يكون في هذا خير لنا . أليس الله أبانا ؟ إن الأب لا يمكن أن يريد الشر لأبنائه . وسوف تدركون في يوم ما أن الله قد أعد لنا هناك حقولاً أكثر خصوبة نمد جذورنا فيها . فلنرحل عن أرض الكفار لنلحق بالأرض الموعودة التي يسيل فيها اللبن والعسل وترتفع فيها عناقيد الثمار حتى تساوى قمة الإنسان ..

وفي اليوم السابق على الرحيل كان الرجال والنساء والأطفال قد ساروا جميعاً في موكب إلى الجبانة الصغيرة على طرف القرية ليودعوا أجدادهم . كان الجو عبوساً . والسماء أمطرت طوال الليل وظلت قطرات المطر معلقة على أوراق شجر الزيتون وكانت تفوح من الأرض الرطبة رائحة عطنة . وسار الأب دميانوس في المقدمة يلبس الغفارة على رأسه والبطرشيلى على كتفيه ، ويرفع بين يديه حامل الإنجيل الفضى ، والناس يتبعونه ، وفي مؤخرتهم يسير الأب ياناروس يحمل الماء المقدس فى إناء من الفضة ويلوح بفرع من نبات إكايلى الجبل كأنما يرش به الماء .

لم يكن يسمع في الموكب غناء ولا بكاء ولا كلام . فالناس يسرون عابسين .
فقط من وقت لآخر كانت إحدى النساء تنهد ، أو يهمس أحد العجائز :
كبرى الايسون ، يارب ارحم . والأمهات الشابات فككن أزرار
صدورهن يرضعن الأطفال الصغار .. ووصل الموكب إلى شجر السرو .
وعبر القسيس بوابة الجبانة وخلفه الشعب . كانت الصلبان الخشبية تنشع
بالماء . وعلى هذا القبر أو ذلك ترتفع شعلة صغيرة . وفي قبور أخرى تظهر
صور فوتوغرافية باهتة تحت ألواح من الزجاج ، كانت صاحبها فتاة
جميلة ، أو كان صاحبها ولداً مفعماً بالنشاط .

وانتشر أهل القرية ، كل يبحث عن قبر العزيز . وسجدت النساء
تقبلن التراب . ووقف الرجال يرسمون علامة الصليب ويمسحون عيونهم
بأطراف أكمامهم . ورفع الأب دميانوس يديه وسط الجبانة وصاح :

— وداعاً أيها الآباء والأجداد ! إن سادة هذا العالم لا يريدون
لنا أن نعيش إلى جواركم وأن نموت إلى جواركم وأن نرقد بجانبكم
ليختلط ترابنا بترابكم . إنهم ينتزعوننا من أرضنا . . فلتنزل اللعنة على
المسؤولين !

ورفع أهل القرية أيديهم إلى السماء يرددون خلفه في صيحة مرتفعة :

— لتنزل اللعنة على المسؤولين !

وبدأوا يتمرغون على الأرض الرطبة الطرية ويقبلونها ويحكون فيها
رؤوسهم وخدودهم ورقابهم ، ثم يرتمون عليها مرة أخرى يقبلونها .
يقبلون فيها آباءهم وأجدادهم قبل أن يرحلوا عنهم .

وتقدم الأب ياناروس يرش القبور بالماء المقدس قبراً قبرا . وفي كل
مرة كان يصيح واحد من أهل القرية على فقيده : الوداع ! الوداع يا ابني .

الوداع يا أخى . يا أخق . يا ابن العم . اغفروا لنا اننا سنترككم فى أيدي الكفار . فليس هذا ذنبنا . ولتنزل اللعنة على المسئولين .
وركع الأب دميانوس وفتح الإنجيل وبدأ يقرأ من إنصاح القيامة ، وتماسك صوته فجأة فلم يعد يرتعد . كان قد قرر أن يقرأ إنصاح صلب المسيح عندما تناول الكتاب من الهيكل قبل حضوره إلى الجبانة ؛ وعلم صفحته بشريط أحمر . لكن قلبه لم يطاوعه الآن وهو بين الأهوات الأعزاء أن يودعهم بهذه الكلمات : إيلي ، إيلي ، لما شبقتنى — يا إلهى ، يا إلهى ، لماذا تركتنى ؟ فقرر أن يتركهم بكلمة وداع سارة :
المسيح قام ! لهذا قرأ من إنصاح القيامة وختم قراءته صائحاً : « أيها الآباء ! اصبروا فسوف نتقابل مرة أخرى فى الدينونة الأخيرة ! المسيح قام وغلب الموت ، والإنسان أيضا سيقوم ، لأنه لن يبقى على الأرض موت . فاصبروا إذن أيها الآباء إلى يوم اللقاء . »

ونفض أهل القرية بوجوه وشعور ملبدة بالتراب . وعادت إليهم شجاعتهم . وبدأوا يشدون على أيدي بعضهم بعضاً كأنما يتبادلون التعزية . وفجأة وبحركة تلقائية هادئة وخاشعة ، بدأوا يرقصون حول القبور بالدموع ملء جفونهم . كانوا يرقصون رقصاً بطيئاً وعيونهم على صلبان الخشب تهجى الكلمات المنقوشة . ينظرون إلى كل شيء برغبة شديدة كأنما يريدون أن يأخذوا هذه الصلبان والصور والأكاليل المصنوعة من الصفيح وأشجار السرو والتراب والعظام المبعثرة تحته ، ويحملوها فوق أكتافهم .

وظلوا يرقصون بإيقاع بطيء . ورفعوا عيونهم فجأة وهم يرقصون فرأوا شيئاً يمتد فى السماء وينحني نحو الأرض يختلط فيه الأخضر بالأحمر بلون الذهب . وصاح الأب ياناروس :

— فأل سعيد أيها الأخوة والأخوات . هذا حزام العذراء يمتد فوقنا ليواسينا . لقد رفعنا أيدينا إلى السماء ، ورفعنا صياحنا إلى الله ، وها هو يرد علينا يقول : « اذهبوا في سلام تصحبكم العذراء ، وهذا حزامها . »

واتخذ الأب دميانوس مكانه مرة أخرى على رأس الموكب . وعاد أهل القرية يلقون على موتاهم النظرة الأخيرة . وبعيونهم التي تملأها الدموع لم يروا شيئاً ، لم يروا سوى ضباب من البكاء . وبدأوا مرة أخرى ينتحبون ويرتعدون . وصاح فيهم الأب دميانوس :

— الشجاعة يا أبناءى . استمدوا القوة من الله وتوقفوا عن البكاء . لكنه هو نفسه كان يبكي .

وفي النهاية انسحبوا إلى القرية وفي عيونهم بقية من دموع . وعندما وصلوا إلى هناك أغلقوا بيوتهم على أنفسهم وبدأوا الحداد .

وفي اليوم التالي بدأوا منذ الفجر عملية النقل ووضع الأحمال على ظهور الحمير والبغال . كانت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً . وربطوا الحراف بالماعز بالبقر في حبل واحد . وتلكعت النساء على أبواب البيوت لا يجدن الشجاعة لينزعن أنفسهن عنها .

وفي فناء الكنيسة كان الأب ياناروس قد كوم ما استطاع حماله من أيقونات ، ورسم الصليب ثم أشعل النار فيها . وتحول أكثر من مسييح وعذراء وحواريين إلى رماد ذراه الأب في الهواء بمجرفة من خشب .

حلت لحظة الرحيل . ورسم أهل القرية علامة الصليب وسجدوا يقبلون الأرض . فقد عاشوا عليها آلاف السنين ، وتتابعت أجيالهم على هذه الأرض التي عجنت بتراب أجسادهم وبدماهم وعرقهم . كانوا يقبلونها ويغمشونها بأظافرهم ويحتفنون قطعاً منها يخفونها في صدورهم .

وانصرفوا أخيراً يهيمسون لأنفسهم : « الله كبير . الله يحبنا ويعمل ما فيه خيرنا . » كانوا يهددون قلوبهم ليسكوها من الصراخ . لكنهم لم يصمدوا طويلاً . ولم يلبث داميانوس العجوز أن بدأ العويل : « وداعاً يا بلدتنا ! وداعاً يا آباءنا ! » وخضبت دموعه التراب الذي يلمطخ وجهه ولحيته . وفي ذلك الوقت كان المطر قد تحول إلى سيل يهطل ، فاختلط الطين بالبشر .

ومرت سنوات وسنوات . لكن ذلك الفجر الأسود وذلك الطين والحزن لم تبرح الأذهان قط . . .

كانوا قد انطلقوا شاردين طوال أيام وليال وأسابيع ، وقاسوا البرد والجوع . ومرضت زوجة الأب ياناروس وأسلمت الروح بين ذراعي زوجها . كانت من نوع رقيق تعودت على الحياة السهلة ، فلم تستطع أن تحمل قسوة الطريق . ولم يبك الأب ياناروس ، بل رفع يديه نحو السماء يمتليء له بالصياح والغضب ، لكنه لم يلبث أن كتم نفسه بجهود كبير ، وأسقط يديه ليحمل بهما الجسد الذي طالما أحبه ، وليحفر له قبراً على جانب الطريق . ثم استأنف الرحيل متمهلاً وراء الآخرين خلال أيام وليال وأسابيع .

وفي إحدى الأمسيات وصلوا إلى قرية كان الأتراك قد جلوا عنها بعد التقسيم الجديد . ومر القسيسان على البيوت يرشونها بيتاً بيتاً بالماء المقدس ويرتلان ليطردا أرواح الأتراك ويممدا القرية الجديدة باسم « إيكونستاتينوس » . وكان كل واحد من الناس يرسم علامة الصليب ثم يأخذ لنفسه بيتاً . لكن القرية كانت أصغر كثيراً من أن تتسع لراعين ، فاستأنف الأب ياناروس الرحيل ، وقد طوى البطرشيل تحت إبطه ، وعلى كتفه كيس من القماش .

كان قد وزع على القرية كل ما يملك : بقرتين وعدداً من الخراف وبعض الملابس والقمح الذي أحضره معه . أين يذهب الآن وكيف يصبح ؟ ماتت زوجته . وابنه الوحيد كان قد تمرد وهرب منذ سنوات بعد أن أشعل النار في بيت أبيه ، وانطلق ضارباً في البحر من ميناء إلى آخر ، قبطاناً ومهرباً . أين يذهب الأب يا ناروس إذن ، وهو وحيد ليس له أحد ؟ أصابه التردد والحيرة في منتصف الطريق ، وأدركه الليل فلم يجد على مرمى البصر ضوءاً ولا باباً يدهقه ليجد شيئاً من حرارة البشر . وراوده إغراء بأن يعود أدراجه . لكنه شعر بالحجل من نفسه . وتوقف مفكراً : « يا أب يا ناروس ، هذه هي اللحظة التي تثبت فيها إذا كان ما في داخل بطنك روح أوطين ، فانهض وسر ! واتبع الطريق الذي أمامك واترك الله يقود خطاك » .

واستمر يمشي ثلاثة أيام ، كان يمشي دون أن يسأل نفسه أين يذهب . فقد أدرك أن شيئاً لا يُرى يقود خطاه ، فاستسلم له في ثقة . وكان يقول لنفسه : « هذه هي السعادة ، ألا تسأل ولا تقلق ، أن تترك الأشياء الظاهرة أمامك وتسلم أمرك للشيء الذي لا يرى وتسير ! » .

وعلى حافة غدير صاف رأى عجوزاً يبدو مستغرقاً في تأمل الماء . واقترب منه يدفعه الفضول إلى أن يرى ما ينظر إليه بهذه الدرجة من الاهتمام ، فلم ير شيئاً ، اللهم إلا الماء الذي يجري . وسأله في دهشة :

— ما الذي تنظر إليه يا جدي ؟

ورفع العجوز رأسه بابتسامة حزينة وقال :

— أنظر إلى حياتي التي تجري وتضيع .. حياتي التي تجري وتضيع ..

فرد عليه :

— لا تغتم يا جدى ، فهى تعرف بنفسها إلى أين تذهب . إلى البحر . فكل حياة تذهب إلى البحر .

وتنهذ العجوز قائلاً :

— نعم يابنى . ولهذا السبب أصبح البحر مالحاً . مُصنع من دموعنا ، ثم أطرق ينبحنى مرة أخرى على الماء الذى يجرى . واستأنف الأب ياناروس طريقه وهو يقول لنفسه : « هذا الرجل لا يؤمن بالله ، ولهذا يخاف الموت . »

وتتابعت القرى كلها خالية من القسس ، لكنه استمر يمشى وتحت إبطه الإنجيل والبطرشيلى ، ويردد : « سر أمانى ، أيها الرب ، سر ، فأنا أتبعك . »

وفى الأيام الأخيرة برز له من الأفق جبل مرتفع يلتصق السحاب بقمته . كان الأب ياناروس ينظر إليه فى تأثر شديد ، ويبدو له أن ما من جبل يمكن أن يفيض بهذا القدر من السكينة ، كأنه الإله الأب فى ثوب ناصع ولحية بيضاء ينبحنى على الأرض المخضرة فى عطف وقوة . ثم وصل إلى سهل ، فوقف مهوراً . ما هذه الخضرة ؟ ما هذه الروائح الممطرة ؟ ما هذه العزلة ؟ لم يكن يرى أمامه سوى أشجار السنديان الخضراء وأشجار الريحان والفسنتق والتوت وأشجار الكستناء الضخمة . من المؤكد أن هذا مكان مقدس يفوح منه الطيب كما يفوح من الكنيسة مساء السبت المقدس . وأدرك الأب ياناروس أن الله يأمره بالتوقف ، وأن هذه العزلة هى نهاية مسيرة طويلة قاده فيها الله خلال أربعة أيام بلياليها .

كانت السماء صافية من السحب ، والأرض تستيقظ على الحيوط

الأولى للشمس . وصاحت الديكة . وتقدم الأب ياناروس خطوات أخرى .
وفجأة رأى البحر يبرق من بين أشجار الكستناء . وفي هذا الجو
الساكن وصلت إلى سمعه من بعيد قرعة خافتة تصدر من جرس خشبي .
وفهم الأب ياناروس ، فرسم علامة الصليب قائلاً لنفسه : « لا بد أنه
يوجد هنا في مكان غير بعيد دير رهبان . وها هم يرتلون الآن قداس
باكر »

وتقدم في طريقه حتى وصل إلى مكان مرتفع استطاع أن يرى منه
مبنى ذا طوابق عديدة معلقاً فوق البحر ملتصقاً بصخور الجبل ، أبيض
ناصع البياض ، تبرز من كل جوانبه الشرفات والأبراج وأشجار السرو .
ولمح في منطقة قريبة منخفضة راهباً يحمل على كتفه معولاً ، فهبط إليه
وهو يرسم علامة الصليب مرات عديدة . وقابله قائلاً :

— أيها الأب المبجل ، أين أنا ؟ وماذا أرى هنا ؟ هل هذا حلم ؟
وتوقف الراهب . كان شاباً بلجية سوداء مجمدة وطاقية كستنائية
وحزام من الجلد . عيناه تبرقان في خبث . يشمر ثوبه ويسير حافي
القدمين . وظل يفحص الأب ياناروس من قمة رأسه حتى أخمص قدميه
ثم أجاب بعد فترة :

— هل أنت قس ؟ من أين أتيت ؟ وعم تبحث هنا ؟

وأحرجه الأب ياناروس قائلاً في غيظ :

— أنا أسألك عما أراه هنا . وتستطيع أن تجري تحقيقك

بعد ذلك .

— لا تغضب يا أبي .

— أنا لا أغضب ولكني أسأل : أين نحن ؟

فأجاب الراهب في خبث :

— نحن أمام جبل آتوس المقدس . فهل لديك النية في أن ترهبين ؟
أرجو لك الصحة والعافية .

وحط الممول عن كتفه وبدأ يضحك قائلاً :

— إذن لا تصحب معك زوجتك إذا كانت لك زوجة ، ولا تصحب
عنزة ولا دجاجة ولا كلبه ولا نعجة . فهاهنا بستان العذراء لا يقربه
شيء مؤث . اذكر هذا جيداً .

وركع الأب ياناروس قائلاً في همس :

— سلام عليك أيها الجبل الطاهر ، جبل العذراء البتول .
ونظر إليه الراهب وانفجر يقهقه ، حتى اضطر آخر الأمر أن يسد
فمه بيده ليمسك نفسه من الضحك ، وسأل :

— ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

فأجاب الأب ياناروس :

— الله . . .

وقال الراهب وهو يرفع الممول مرة أخرى على كتفه :

— حسناً . لقد فعل بذلك شيئاً جميلاً .

لكن لم يلبث أن ركب الشيطان فاستدار صائحاً :

— لا تحمل الهم أيها البجل . صحيح أنه لا توجد هنا نساء ،

لكننا نصرّف أمورنا مع جنيات البحر .

وانفجر يضحك ، واختفى بين أشجار الريحان .

وانقبض قلب الأب ياناروس وقال لنفسه هامساً :

— أيتها العذراء البتول ، هذا استقبال سيء تماماً . فهل هكذا

رجال بستانك يا مريم ؟

ورسم علامة الصليب مرة أخرى ، ومضى نحو بستان العذراء .

كم من الزمن بقي على جبل آتوس ؟ وفي أى دير ؟ ولماذا ترك الدير ؟ هذه أمور لم يقاها الأب ياناروس أبداً لأحد . فى بعض الأحيان فقط كان يتكلم عن مرسوم دير اليوسفيين حيث عاش سنتين تعلم فيهما الرسم .

كان هناك عشرة رهبان وفناء ذو شرفة زجاجية يستخدم مرصماً . وكان على كل راهب بالترتيب أن يقوم بأعمال الخدمة والطبخ لمدة أسبوع ليتيح للتسعة الآخرين أن يتفرغوا للرسم لانشغالهم هموم الحياة اليومية . وكانوا يرسمون صوراً للمسيح خدوده حمراء فاقمة ، وصوراً للقديسين يرفلون فى ثياب باذخة . ذلك لأنهم هم أنفسهم كانوا يعيشون حياة رغد . مخازنهم مليئة بالموثون ، وقلوبهم خالية من الهم ، وفرش الرسم التى تستخدمونها مخنوقة باللون الأحمر القرمزى . وهذه الحياة اللينة صنعت من الزهد والتكفير تماثيل وألواناً حمراء قرمزية وساعات من الفراغ المريح .

كانت هذه الحياة تبدو فى نظره أيسر مما يجب . فجبل آتوس كان لا بد أن يصبح شيئاً آخر . وفجأة أدرك أن النعمة مصيدة الشيطان ، فأصابته الرعدة ، وأصبح إذ ذاك يتحرق شوقاً إلى حياة المعاناة والصوم واتباع الطريق الصعب وإدماء الركبتين سجوداً على قطع الحجارة ، ومعرفة الله .

يقول الأب ياناروس لمحدثيه :

— هكذا رحلت وتركت دير اليوسفيين حيث الحياة لينة أكثر مما يجب ، ونزلت فى عشرين ديراً فى جبل آتوس أبحث عن أكثرها خشونة لأمارس فيه الزهد والتكفير .

ويسأله البعض :

— ثم ماذا حدث يا أبانا ؟

لكنه يعرض على شفتيه صامتاً . وبعد فترة يقول في صوت خافت
يهزه الانفعال :

« أيها الرب ، ضع يدك على فمي ... »

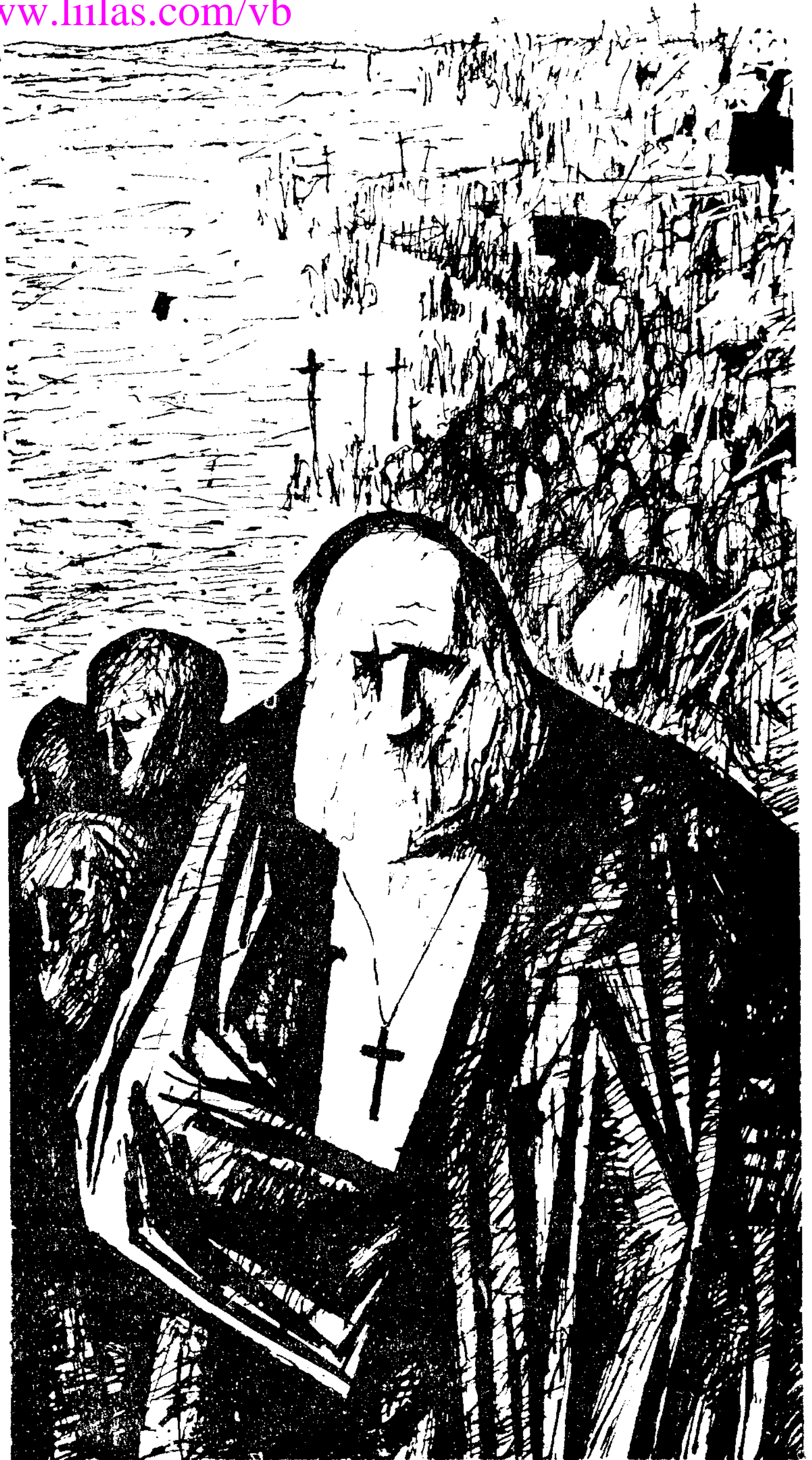
ومع ذلك انفجر الأب ياناروس في يوم من الأيام . وصل إلى القرية
راهبان من أحد الأديرة فدعاها إلى غرفته . وكانت تفوح منهما رائحة
الثوم والزيت الزنج والبخور . ففتح النافذة ليدخل الهواء النقي . ولم
يتكلم ، لولا أن الراهبين كانا راغبين في الثروة . كان أكبرهما سنّاً يبدو
شديد الحبث . خداه متوردان وله بطن ضخم ولحية متأنقة . أما الآخر
فكان حدثاً يافعاً ، وجهه مغطى بالبثور ، وله سكسوكة خفيفة . حين
يتكلم ينظر إلى محدته من أسفل ويتلعثم .

وعقد الراهب الكبير يديه على بطنه وبدأ الهجوم بصوت خشن
وبنغمة استنكار :

— قالوا لنا يا أب ياناروس إنك عشت على الجبل المقدس ، فاسمح
لي أن أسألك ، لماذا هجرت تلك العزلة السعيدة وعدت إلى الدنيا ؟

واشتعلت عينا الأب ياناروس وقال وهو يشد على قبضته :

— العزلة السعيدة ؟ قل لي أيها المبجل ، ما جدوى هذه العزلة
السعيدة ؟ الأديرة في أيامنا هذه أصبحت خلايا زنابير لا تنتج عسلاً .
هل هذا زهد ؟ هل هذه مسيحية ؟ هل هذا ما كان يريد المسيح ؟
لا ، لا . في أيامنا هذه ، الصلاة هي العمل ، والتنسك أن تعيش مع
الناس وتكافح مع الناس ، وأن تصحب المسيح كل يوم إلى جبل جلجثة
لتصلب هناك . أقول كل يوم ، وليس فقط يوم الجمعة المقدس .



وكان يريد أن يصمت ، لكنه لم يكده يفتح فمه حتى انفتح قلبه ،
فنظر إلى الراهبين وهز رأسه قائلاً :

— الشيء الذي لا أستطيعه بل وأخجل منه ، أن أعيش بعيداً عن
الناس ، وحدي فقط لا يربطني بهم شيء . لا . لا أريد أن أتحول إلى
قطعة حجر منزوعة وملقاة على قارعة الطريق . أريد أن أكون ذا نفع ،
أن أكون قطعة حجر مرصوفة في بناء كبير .

وسأل الراهب الصغير ذو البثور بكلمات متلعثمة :

— أى بناء ؟ أنا لا أفهم ما تقول .

— أى بناء ؟! اليونان . المسيحية . لا أعرف الاسم الذي يجب أن

يحمّله . تستطيع أن تسمى هذا البناء الكبير : الله .

فقال الراهب الكبير وقد رفع يديه المعقودتين على بطنه :

— أنا أسمى هذا الكلام أوهاماً .

وأجاب الأب ياناروس غاضباً :

— وأنا أسميه الطريق الذي سار فيه المسيح . فأنا أعرف أيها

المبجل أن المسيح لم يبق في الصحراء أكثر من أربعين يوماً ، وبعد ذلك

تخلّى عن العزلة السعيدة ليشتق ويصوم ويكافح بين الناس ويصاب .

ما هو إذن واجب المسيحي ؟ أقول مرة أخرى : أن يسير في الحياة على

طريق المسيح .

وسأل الراهب الشاب في تلثم :

— فماذا عنا نحن ؟

لكن الأب ياناروس لم يسمع شيئاً ، لأن انفعاله كان قد وصل إلى

درجة شديدة :

— ما أكثر ما رأيت من فضائح ونفاق وكاذب عند الناس

العاديين وعند الرهبان ، فلم أعد أستطيع احتمالاً . وأقول لكم وليغفر الله لي ، أحياناً أشعر بأن روحى تحوالت إلى شعلة ملتهبة تريد أن تحرق الدنيا كلها وتبدأ بالأديرة .

وسأله الراهب الكبير وهو يفرغ الكوب في جوفه :

— وماذا فعلت بك الدنيا إذن يا أب ياناروس ؟ لماذا تريد أن

تحرقها ؟ إن الدنيا على ما يرام وهى من صنع الله .

— هى من صنع الشيطان ! كانت من صنع الله ، لكنها لم تعد

كذلك ، وأجدر بكما أيها المبجلان أن تفتحوا عيونكما جيداً . إن المسيح

يذهب من باب إلى باب جائعاً ترتعد فرائصه من البرد فلا يفتح له باب

ولا قلب . كيف تستطيعون أن تروه وتسمعوه وعيونكم وآذانكم وقلوبكم

قد غشاها الشحم ؟

وجذب الراهب الكبير زميله الشاب من زكته قائلاً :

— لننصرف . إن الدنيا مليئة بالمغريات . فلنغلق عيوننا وآذاننا

ونهرب . وها أنت ترى الأب ياناروس ، لم يكذب يفتح فمه حتى بدأ يجدف

بالله دون أن يشعر . لماذا ؟ لأنه عاد إلى الدنيا التى هى ملكوت الغواية .

وأجاب الشاب متلعثماً :

— انهرب ! فما أظن جدران الدير . الغواية لا تستطيع قط أن

تنفذ منها .

وانفجر الأب ياناروس يضحك بصوت يهز جدران الغرفة :

— إن لديكما الكثير من هذه الغواية أيها المبجلان ! سأحكى لكما

قصة حقيقية . كان هناك دير به أربعائة راهب . لكل راهب منهم ثلاثة

طواقم لركوب الخيل وثلاثة جياد ، واحد أبيض وآخر أحمر والثالث

أسود . وفى كل يوم كان الرهبان يدورون حول الدير لينعوا الغواية

من الدخول . كانوا يمتطون الجياد البيضاء في الصباح والحمر في الظهر
والسوداء في الليل . ومع ذلك اتخذت الغواية صورة المسيح ودخلت .
وضرب الراهبان على خذيهما وصرخا :

— المسيح ! أنت تجدف بالله مرة أخرى يا أب ياناروس !

وأجاب الأب ياناروس مزجراً يدق المنضدة بقبضته :

— المسيح ، نعم ، المسيح . أو بعبارة أخرى المسيح كما أصبح على
أيديكم أيها الراهبان : النفاق والكسل والشراهة . أتم تتصورون أنه
المسيح وتظنون أنكم تنهجون نهجه . ولا شك أن هذا سهل لكم
الأمور ، أيها المنافقون الشرهون الخاملون ! لكن ليس هذا هو
المسيح يا أشقياء . إنه الغواية . اتخذت وجه المسيح ودخلت . أما المسيح
الحقيقي ، فأقول لكم وأكرر القول ، المسيح الحقيقي يوجد بين الناس ،
ويسير بين الناس ، ويتألم ويصلبونه ويقوم حياً .

وانفجر الراهب الكبير مرة أخرى قائلاً وهو يستجمع قوته

ليرفع كرشه :

— لمنصرف !

وأسرع الشاب يساعده . واستدار نحو الأب ياناروس وقال له

بطريقة سيئة :

— يبدو لي أنك تهيننا . صحيح إذن ما قاله لي الأسقف : أنت

متمرد على الكنيسة ترفع لنفسك راية خاصة .

فأجاب الأب ياناروس وعيناه تقدحان :

— نعم راية خاصة . فهل تعرف ما هو مرسوم عليها أيها المبجل ؟

— ماذا إذن أيها المتمرد ؟

— المسيح وفي يده سوط . إذهب وقل هذا الأسقف ولرئيسك .
قل هذا لكل الأساقفة ولكل الرؤساء في العالم .
ثم قال وهو يفتح لهما باب الغرفة :
— أيها المبجلان ، وداعاً !
ولم يكن إذ ذاك يضحك .

* * *

كان الأب ياناروس يشعر بالابتهاج كلما تذكر ذلك الصباح الذي
نفض فيه التراب عن نعليه ورحل عن جبل آتوس دون أن يراه أحد .
كانت الشمس تسطع كأنها في أول يوم من أيام الخليفة ، كأنها خرجت
لتوها من بين يدي الله . وبدا الجبل المقدس تحت السحب اللتصقة به ،
يبتسم في لون وردي تحت ضوء الفجر ، كأنه الله نفسه يبتسم وهو يرى
هذه النملة تمسح عن قدميها تراب آتوس وتفر مسرعة عبر أشجار
الريحان والفسق .

وفي مرات كثيرة قبل ذلك ، كان الأب ياناروس يحس بالنسمة
الباردة على وجهه الساخن ، نسمة الحرية ، فيشعر بالسرور العظيم .
لكن سروره في ذلك الصباح لم يسبق له مثيل . كان يغنى وهو يقفز
بين أشجار الريحان : « اليوم فقط ولدت ، اليوم فقط ولدت ! »
ولم يحاول ولو مرة واحدة أن يدير رأسه ليرى الدير قبل أن يختفي
عند انعطافة الوادي .

ومضى يضرب من قرية إلى قرية ، ومن جبل إلى جبل ، حتى وصل
إلى صخور كاستلوس . وفي الأيام الأولى شعر بالاختناق في هذه القرية
الضيقة الجافة . وأضناه الحنين إلى قطعة من الأرض الرطبة اللينة ، أو
شجرة لوز مزهرة ، أو وجه ضاحك ، أو خيط من الماء المتدفق .

لكنه مع السنين ارتبط بهذه الصخور وبهؤلاء الناس . فهم أيضاً إخوته وأخواته . كان يرى في وجوههم آلام البشر ومخاوفهم . فتعلقت نفسه بهذه الصخور الصلدة واستقرت فيها .

وسارت أمور الأب ياناروس مثل أهل القرية على البؤس والشقاء اليومي . فهو في معظم الأحيان جوعان بردان لا يجد من يشاركه همومه . لكنه لم يكن يشكو من ذلك ، بل كان يقول لنفسه : « هاهنا مركزى ومن هنا سأعلن الجهاد . »

ثم ان الله أفرغ على رأس اليونان كئوس غضبه السبعة ، فانداعت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه . لكن الأب ياناروس لم يستطع وسط هذه الحرب أن يقرر أى الجانبين يختار . فهم جميعاً أولاده وإخوته ، يرى في كل الوجوه لمسات أصابع الله . كان يصيح فيهم : « المحبة ! المحبة ! الوفاق ! » . لكن كلامه كان يضيع في الهاوية . ومن يمين هذه الهاوية ومن يسارها كان يرتفع في وجهه السباب والشتائم :

— يا بلغارى ! يا خائن ! يا بلشفي !

— يا غراب ! يا مزيف الحقائق على الشعب ! يا فاشقى !

**** معرفتي ****

me3refaty.blogspot.com

٢

ذابت السحب على رأس الجبل ، وأطلقت الشمس قواها الجديدة لتعيد الدفء إلى الأرض التي كساها الجليد . وبدأت الأعواد الخضراء الصغيرة تنبت من البذور وتشق الغطاء الأبيض . وبرزت الزهور البرية تزيح الحصى وترتفع نحو الضوء . وفي أعماق التربة نشطت القوى الصامتة تعمل في قدرة كبيرة . وانزاح اللوح الجامد الحزين الذي فرضه الشتاء ، وعادت الحياة إلى الخليقة . وجرت الريح اللينة الدافئة ، تحمل عطر الزهور أحيانا ، وتحمل أحيانا أخرى رائحة الجثث .

كان ذلك في أبريل في عيد السعف يوم الأحد . وبدأ أسبوع الآلام . المسيح ذهب في هذا المساء على أتان ودخل اورشليم قاتلة الأنبياء . « في نصف الليل صار صراخ ، هو ذا العريس مقبل ! »

بهذه الكلمات سيهل الأب ياناروس المخلص الذي دخل وعلى فمه ابتسامة مرة في مصيدة قاتلة أعداء له البشر . وسيدق الجرس دقات الحزن . يدعو المسيحيين إلى الكنيسة ، ليشهدوا ما قاماه الله وما يقاميه على أيدي البشر .

وتحدث الاب ياناروس إلى نفسه قائلا :

— « هذا مستحيل ! حق الحيوانات المتوحشة والذئاب وبنات آوى
والخنازير الوحشية تفقد شيئا من وحشيتها كما يقال في هذا الأسبوع
المقدس . حق الريح تصبح لينة ، والهواء يمتلىء بأصوات ثقيلة تحمل الحب
والأم . والناس يعلمون أن هذه الأصوات التي تنقلها الريح هي أصوات
المسيح . فالمسيح لا يتربع على عرشه فوق السحب ، بل يكافح ويقاسى معنا
على الأرض جائعا مهانا مصلوبا . وطوال الاسبوع المقدس يسمع الناس
المسيح يصرخ ويتألم . فهل يمكن ألا تفتح الشفقة قلوبهم ؟ »

هكذا كان يفكر الأب ياناروس وهو واقف على عتبة الكنيسة
يسمع منذ الصباح الباكر اصوات استيقاظ القرية . كان يشعر بالقرية كلها
في داخله ، كما يشعر بنبضات عروق صدغيه أو صرير مفاصله : الأبواب
والبيوت والمداخن والأزقة وسباب الناس وبكاء الأطفال الجوعى . فهو
وصخور القرية وأهلها شيء واحد ، كأنه المسخ الذي تقول عنه
الأساطير إن نصفه الأعلى بشر ونصفه الأسفل حصان . وهكذا كان : نصفه
الأسفل قرية اسمها كاستلوس . حين يحترق منزل ، يحترق هو . وحين
يموت طفل ، يموت هو . وحين يركع امام تمثال السيدة العذراء ذات
العينين الواسعتين حارسة القرية ، ترقع كاستلوس كلها بيوتها وأرواحها
جميعا .

كان يقول لنفسه دائما وهو يمزح : « لم يعد اسمى ياناروس . أصبح
اسمى كاستلوس ! » .

وبينا كان ينصت إلى استيقاظ القرية ويستيقظ هو معها ، سمع فجأة
صوت المنادى كريا كوس ين عاليا كالنفير يتردد في الميدان صدها . من
المؤكد أنه كان يعلن خبرا هاما لأن كل الأبواب بدأت تنجبط وعادت الحياة

إلى القرية مرة واحدة . وأصاخ العجوز بسمعه ، فأدرك من النداء ما جعل
الدم يغلي في عروقه . وفي خطوة واحدة خرج إلى الطريق . وبدأت القرية
بعض الوقت في هرج ومرج : الأبواب والنوافذ تتخبط ، والنساء يصحن
والكلاب تنبح ، ولم يلبث صوت المنادى أن ارتفع مرة أخرى يقول :
— اسمعوا اسمعوا أيها المسيحيون ! العذراء البتول حضرت اليوم إلى
القرية . وصل من جبل آتوس راهب يحمل صندوقاً من الفضة فيه الحزام
الحقيقي للعذراء مريم . وسيعرضه في ميدان القرية . أسرعوا جميعاً
اتركموا له . الرجال والنساء والأطفال !
وشد الأب ياناروس لحيته ، وامتلأ فمه بسباب ديني لم يلبث أن ابتاعه
قائلاً لنفسه :

— ساعيني أيتها العذراء البتول ، فأنا لا أثق في الرهبان . هل هذا
حزامك حقاً يا سيدتنا ؟

فمنذ سنوات عديدة شاهد هذا الحزام في فاتويدي على جبل آتوس
وانحنى عليه وقبله . كان حزاماً من الصوف ذي اللون البني المنسوج
بخيوط من الذهب ، بلى وتخرق بفعل الزمن . لكن العذراء كانت امرأة
فقيرة . وكان المسيح كذلك فقيراً طوال حياته على الأرض . فكيف
استطاعت العذراء أن تحصل على مثل هذا الحزام الثمين المنسوج بخيوط
الذهب ؟

هو يذكر أنهم عرضوا عليه في دير آخر حاملاً أثرياً من الذهب في
داخله جمجمة طفل . وقال له الراهب الموكل بحراسة الأثر الثمين : « هذه
رأس القديس كريكوس . » وبعد يومين عرضوا عليه رأساً أكبر كثيراً
من الرأس الأولى ، وقال له خادم الدير : « هذه رأس القديس
كريكوس . » ولم يستطع الأب ياناروس أن يصمت فقال له : « لكنهم

عرضوا على أول أمس جمجمة أخرى — جمجمة طفل . « فأجاب الخادم :
« هذا صحيح . لا شك أن الجمجمة الأولى كانت جمجمة القديس
وهو صغير . . »

كان الأب ياناروس يعرف إذن تدليس الرهبان . وعندما رجع
أمام حزام العذراء في فاتوبيدي انتحى بخادم الدير ركنا وسأله في ثقة
شخصية : « وحق بركتك أيها الأب المبجل ، هل أنت متأكد أن هذا
بالفعل الحزام الحقيقي الذي كانت تلبسه العذراء ؟ » . وكان الراهب
رجلاً مهيباً له كرش كبير . ابتسم في خبث وأجاب : « لا تبحث في هذه
المسائل البعيدة يا أب ياناروس . المهم أن يحقق هذا الحزام معجزة
أو معجزتين . فإذا لم يكن حقيقياً ، أصبح كذلك . » تذكر الأب
ياناروس كل هذا وهمس لنفسه مرة أخرى : « ساعينى أيتها العذراء
البتول ، فأنا لا أثق في الرهبان ولا أريد هنا أحداً منهم . »

وكان المنادى قد سكت بعض الوقت ليسترد أنفاسه ، ثم عاد يصيح
بصوت أشد ارتفاعاً . وأسرع الأب ياناروس ليلحق به . ثم توقف
وأصاخ السمع مرة أخرى وهو ينتفض :

— اسمعوا اسمعوا أيها المسيحيون ! اصحبوا معكم مرضاكم رجلاً
ونساء . السيدة العذراء البتول منحت الراهب نعمة الشفاء من كل
الأمراض ولدغات الثعابين والعيون الشريرة والجان الذي يسكن الجسد .
هذا هو اهاهو يصل !

وبالفعل ظهر الراهب في نهاية الطريق في هذه اللحظة تقريباً .
كان يركب حماراً رمادى اللون ويبدو عليه المرح . رأسه عارية وشعره
مفقود على قفاه وبطنه كبيرة بارزة ، تتدلى من يمينه ومن يساره سلتان
كبيرتان مليئتان بالزجاجات والمأكولات والعلف .

وانطلقت تجرى خلفه مجموعة من الصبية بطونهم منتفخة وسيقانهم كالمهاكل العظمية لا يعطيها لحم ، بعضهم يقفز على عكازات ، كانوا ينقلبون أرضاً ليتسابقوا إلى فولة خضراء أو ثمرة حمص أخضر أو تينة يملأها الدود ، أو غير ذلك من ثمار كان الراهب بين الحين والآخر يستخرجها من جيوبه الواسعة ويقذف بها في الطريق وهو يضحك ملء شذقيه .

وأسرع كريبا كوس محتضن على قدر استطاعته جسد الراهب الضخم ليساعده على النزول وسط الميدان . وتدافع الرجال والنسوة يقبلون يده السمينية . فقال في صوت منغم عميق :

— أمنحكم بركتي يا أبنائي . وتمنحك العذراء البتول بركتها أيضاً . اذهبوا إلى بيوتكم وابحثوا عن هباتكم للسيدة العذراء . نقود أو خبز أو خمر أو جبن أو صوف أو زيت أو أى شيء . أحضروا ما لديكم وتعالوا التركعوا .

ورأى الراهب أهل القرية مترددين يفكرون فيما يمكن أن يقدموه ، ففتح ثوبه في خبث وأخرج من صدره صندوقاً من الفضة . ورسم علامة الصليب ثلاث مرات ثم رفعه فوق رأسه ولوح به ليراه كل الناس . وأمرهم قائلاً :

— اركعوا ! ففي هذا الصندوق يرقد حزام مريم المقدس ! اجروا إذن إلى بيوتكم وابحثوا عن هباتكم وعودوا التركعوا أمامه .

ثم سأل الحشد :

— بالمناسبة ، ماذا تفعلون مع الأنصار الحمر ؟

وأجابه بعضهم :

— لم نعد نحتمل أيها الأب المبجل . نحن نموت موتاً بطيئاً .

— اقتلوا ! اقتلوا ! هذا ما تقوله لكم السيدة العذراء . اقتلوا
الأنصار لأنهم كلاب وليسوا بشرا .

وانتشر الناس يبحثون عن شيء يقدمونه . وجلس الراهب على
مصطبة من الحجر أمام المقهى . كان المقهى مغلقاً منذ شهر عديدة ،
إذ لم يكن أصحابه يستطيعون أن يجدوا اللبن والسكر والحلوى وطباق
الترجيلية . وجذب من صدره منديلاً أزرق ، وتنحنح وبصق ، ثم قام
وانتقى من السلة تينة سليمة لم يقربها الدود وبدأ يلوكها في فمه . واستخرج
أيضاً زجاجة عرقى تجمرع منها عدة جرعات . وفجأة سأل كريا كوس
وكان يقف إلى جانبه يتأمله ويدها معقودتان :

— ما نوع قسيس هذه القرية ؟

وكان كريا كوس في حالة نشوة ، فتأخر في الرد . لم يأمر له الله
من قبل أن يكون جديراً برؤية زاهد من زهاد الجبل المقدس . لهذا
لم يشبع من تأمل هذا الجسد الندى المبارك والشعر المعقود على قفاه ،
وقدميه الكريمتين الكبيرتين ، ولم يشبع من تشم رائحة عرقه المقدس
بملء منخرية .

وسأل الراهب مرة أخرى في غضب :

— أقول لك ما هو نوع قسيس هذه القرية ؟ أجب !

وازدرد كريا كوس لعابه بصعوبة ، ونظر حوله ليطمئن إلى أن
هدأ لا يسمعه ، وقال في صوت خفيض :

— ماذا أقول لك أيها الأب المبجل ؟ إنه الخوف والرعدة . رجل

رهيب ! لا يكلم أحداً . ومهما تقل أو تفعل أمامه ، يعقد ما بين
حاجبيه . فهو لا يرضى أبداً . ومن يسمعه يعتقد أنه ابن عم الله العظيم .

هو رجل مقدس . لكنه غير عادى . فى هذا بالذات ، لا . فاذا ذكر ذلك
أيها الأب المبجل .

وهرش الراهب رأسه وقال بعد فترة من التفكير :

— حسناً ! خير لى إذن ألا أحتك به . سأنتهى عملى وأنطلق .

وأسند ظهره إلى جدار المقهى وتهد قائلاً :

— كم أنا متعب يا أخ . . وبالمناسبة ما هو اسمك ؟

— كريا كوس . أنا منادى القرية ، لكنى أرسل شعري لأنى أريد

أن أصبح قسيساً .

— أنا متعب يا أخ كريا كوس . مهمتى ثقيلة . منذ ثلاثة شهور وأنا

أمر بالحزام المقدس عبر الجبال والوهاد . وقد خارت قواى . انظر . لم

يبق منى سوى جلد على عظم .

وربت على بطنه ولغده وهو يقول هذه الكلمات . ثم أضاف :

— من الخير أن ننام قليلاً فى انتظار عودة المؤمنين ليركعوا للحزام .

ورسم علامة الصليب ثم أغلق عينيه قائلاً :

— احرس السلتين يا كريا كوس يا ابنى . . لا تدع أحداً يقربهما .

وجلس كريا كوس القرفصاء بجوار قدميه . فلم يكن هناك شىء فى

العالم يمكن أن يبعده عن مثل هذا الرجل المقدس مبعوث الله .

وظل يتشرب غبطة الراهب بعينيه ومنخرية ، بل وبأذنيه أيضاً ،

لأن الراهب كان قد بدأ يطلق الشخير بين لحظة وأخرى . وفجأة هبط

من الآفاق التى كان يحلق فيها حين رأى أمامه الأب ياناروس . وقال له

الأب بمنف :

— هل هكذا تمد نفسك لتكون قسيساً يا كريا كوس ؟

ما الذى دعاك إلى إحضار هذا الرجل ؟

ورد كريبا كوس المسكين :

— أنا ؟ لقد حضر وحده يا أبى .

— ربما . . . ولكن السيد كريبا كوس عمل منادياً له .

ودفع الأب ياناروس القدمين الكبيرتين بطرف عصاه قائلاً :

— استيقظ أيها المبعجل . عندي كلمتان لك .

وفتح الراهب عينين يملأها النعاس ، ورأى القسيس فأدرك

الأمر ، وقال :

— أنا سعيد بمقابلتك يا أبى !

— عم جئت تبحث فى قريتي ؟

وأشار الراهب إلى الصندوق الأثرى قائلاً :

— إنها السيدة العذراء قادتني إلى هنا . وحيثما تقودني أذهب .

— حسناً . لقد قادتني أنا أيضاً السيدة العذراء لكي أقول لك :

انطلق بسرعة ! التقط صندوقك وسلتيك وحمارك وأدويتك واغرب
من هنا .

— إن السيدة العذراء البتول . .

— اصمت ! لا تدنس اسم أم الله المقدسة . لو كانت هي التي

أرسلتك حقاً لأنثقت كنتفيك بالقمح والزيت والملابس وكل ما هو

متوفر عند الرهبان ، لتوزعه على شعبها العاري الخافي الذي يموت

جوعاً ، بدلاً من أن تحضر لتتزع من فمه قطعة خبز لم يبق له غيرها . .

أقول لك اصمت ! لقد كنت أنا أيضاً راهباً فى جبل آتوس ، وأعرف

أسراركم أيها المنافقون الحاملون العابثون بالدين .

وأمسك بذراعه يسأله :

— قل لى ما هي السمكات التي خرجت من فمك ؟ اقتلوا اقتلوا !

هل بهذا أمرتك العذراء ؟ لماذا إذن دخل ابنها أورشليم هذا اليوم
نفسه ليصلب ؟ إلى متى تظل تخون المسيح يا يهوذا ؟
وكان يكلمه وقد انحى فوقه وهو يرتعد في غضب :

— يا يهوذا ! يا يهوذا !

لكن الناس كانوا قد عادوا وبدأوا يتجمعون شيئاً فشيئاً يحملقون
برهبة في الصندوق الفضي صامتين ورؤوسهم عارية . وكان كل واحد منهم
يمسك شيئاً في يده أو في طاقيته . بصلة أو حفنة قمح أو قليلاً من صوف
النعجة . أى شيء يملكون ليقدموه إلى السيدة العذراء . وإحدى النساء
لم يكن لديها شيء ، فنزعت تلميحتها لتقدمها . وأحضر رجل عجوز عملة
أثرية وجدها في يوم من الأيام وهو يحفر حقله . واستدار إليهم الأب
ياناروس بقلب مقبوض وقال :

— يا أبنائي . إركعوا للحزام المقدس . لكن لا تعطوا حبة قمح

لهذا الراهب . فأنتم فقراء جوعى ، وأطفالكم جوعى . العذراء ليست
في حاجة إلى الهبات . وهل تأخذ العذراء ؟ حاشا الله ! إنها تعطى
ولا تأخذ . وإلا فلماذا سميت أم المسيحيين ؟ هل يمكن أن ترى أولادها
يقاسون الجوع دون أن تمد إليهم يد العطف لتعطيهم الخبز ؟ انظروا إلى
هذا الرجل الطيب . لقد أتى إلى قريتنا ليلاً سلاله لكنه رأى فقرنا
وشاهد الأطفال الجوعى يجرون وراءه ، فتمزق قلبه ألماً . أليس هو
خادم أمين للسيدة العذراء ؟ ألا تسكن العذراء قلبه ؟ ما حاجته إذن
إلى الحياة الطيبة والطعام الكثير ؟ لقد هجر مغربيات الدنيا منذ سنوات
عديدة ، وخلا إلى نفسه على الجبل المقدس يبحث عن الخلاص . ولهذا
أشفق على شقاكم ، فقرر — بارك الله فيه — أن يوزع عليكم كل ما جمعه
حتى الآن في السلتين .

وارتفعت من الحشد جلبة شديدة ، وأخذت النساء يبكين ، وأسرع أهل القرية جميعاً إلى الراهب يقبلون يديه . كان وجهه قد احتقن بالغضب المكتوم . وأخذ يردد اللعنات على هذا القسيس الشرير الذى يسلبه كل شيء . لكن ماذا يستطيع الآن أن يفعل ؟ كان الحجل الشديد يمنعه من الرفض — لا ، بل الخوف الشديد — لأنه لم يكن من ذوى الحياء . وكان الأطفال قد تجمعوا حول الحمار يدقون الأرض بأقدامهم . وحشروا أنوفهم داخل السلتين وتشمموا رائحة التين ، فسأل الالعاب فى أفواههم .

وأصدر الأب ياناروس أمره :

— ليتقدم رجلان ويرفعا أحمال الحمار . احضروا السلتين إلى الرجل المقدس الذى أرسله لنا الله وسيقوم هو نفسه بتوزيع ما فيهما . لكن اركعوا أولاً للحزام المقدس !

ولم يكذبتم كلامه حتى كانت السلتان قد رفعتا ومدت كل امرأة مئزرها وقدم كل رجل طاقيته ، وغاصت أيادى الأولاد داخل السلتين . وقال لهم الأب ياناروس ووجهه يشرق فى سعادة :

— مهلاً . مهلاً . يجب أولاً أن نشكر السيدة العذراء لأنها أرسلت

هذا الرجل المقدس بالسلتين .

وكان الراهب واقفاً يلهث فى ألم والعرق يتصبب منه .. ومن حين لآخر كان يقذف الأب بنظرة مسمومة . آه ! لو كان يستطيع أن ينتفح لحيته شعرة شعرة ! واقترب منه لحظة وهمس فى أذنه بأنفاس حارقة :
« لقد هزمتنى يا خادم الشيطان » .

وابتسم الأب ياناروس وأجاب بصوت مرتفع ليسمعه الحشد :

— نعم ، أيها الأب المبجل ، الحق معك . فليس أدعى إلى السرور

من إطعام الجوعى . وسوف أذكر اسمك هذه الليلة في المذبح . وبالمناسبة
ما اسمك أيها المبجل ؟

لكن الراهب أجاب بصيحة غاضبة . وأراد أن يضع حداً للأمر
ففتح الصندوق الأثرى فظهر شريط من الصوف البنى المنسوج بالذهب :
الحزام المقدس . وصاح بصوت حاد : « اركعوا ! » وكأنه يريد أن يقول :
« اغربوا عن وجهى ! » .

واصطف أهل القرية واحداً بعد آخر ليقبلوا الأثر مسرعين
متعجلين . كانوا يشعرون بالسلتين خاف ظهورهم ويتحرقون شوقاً إلى
الفراغ من التقديس ليبدأ التوزيع .

وانهار الراهب على المصطبة منهكاً حانقاً . ووضعوا السلة الأولى ثم
الثانية بين ساقيه . وكان الأب يوجه العملية . كل واحد يتقدم في دوره
بمد يده أو طاقيته أو مئزره والراهب يأخذ من السلة ويوزع وشفته
تهمسان بالسباب واللعنات :

— عليك اللعنة يا قسيس الشيطان ... عليك اللعنة يا قسيس
الشيطان ...

وكان الأب ياناروس يقول :

— لا داعى للوضوء يا أبنائى . الرجل المقدس يرجوكم ...

كان كل واحد يتناول نصيبه الصغير ويقبل يد الراهب ويطير
إلى منزله .

وقال الأب ياناروس :

— ما أعظم سرور السيدة العذراء ! ما أعظم سرور السيدة العذراء

حين ترى شعبها يفرغ سلاها ! أليس كذلك أيها المبجل ؟

لكن الأب المبجل لم يستطع صبراً ، فأمسك بالسلتين وقابهما على

الأرض وأدار وجهه كي لا يرى ضياع ماله . واندفع الحشد نحو الكومة .
وفي اللحظة التي يرتلون فيها كلمة « كيرى » كانوا قد مسحوا كل شيء .
وقال الأب :

— خذ السلتين يا كريا كوس وضعهما على الحمار ، وساعد الرجل
المقدس على الركوب . لقد أدى واجبه وحان الآن وقت رحيله .
لكن الراهب كان ينظر إليه ويقول لنفسه : آه لو أن العيون
تستطيع أن تقتل ، إذن لمزقتك إرباً أيها الغراب !
وأحضر كريا كوس الحمار إلى جانب المصطبة ، وعاد يحمل الراهب
الضخم مرة أخرى على قدر ما يستطيع حتى استقر بين سلتيه الفارغتين .
وقال له الأب ياناروس :

— رحلة سعيدة أيها الأب المبجل . اكتب لنا !
لكن الراهب كان يغلي غضباً ، فلـكز حماره بعقبه الكريمين
لكزاً قاسياً وانطلق إلى عرض الطريق لا ينظر خلفه . وعند ما وصل
إلى الحقول بعيداً عن الأنظار ، استدار ليلعن القرية مرتين ، وصاح :
« ليلعنك الله يا قسيس الشيطان . لقد طعننتني في صميم قلبي . »

* * *

عاد الأب ياناروس إلى الكنيسة يدندن في سرور ويستشعر في
نفسه ابتسامة العذراء . لاشك أنها هي أيضاً مسرورة لأن حزامها المقدس
حقق معجزة فأطعم الجوعى .

لكن من يستطيع أن يقول إنه حزامها حقاً ؟
مهما يكن ، فقد قبلته شفاه لا حصر لها خلال قرون طويلة ،
وتأملته عيون لا تعد ، واستمدت منه آلاف النفوس المعذبة عزاءها ،
وألقت عليه أثقال أملها وألمها ، وجعلته بذلك مقدساً ، فأصبح حزام

المندراء حقاً . إن الإنسان — هكذا فكر الأب ياناروس — يملك في نفسه قوة هائلة تستطيع أن تجعل قطعة من القماش راية مقدسة .

واجتاز عتبة الكنيسة فرأى جندياً ينتظره على مصطبة الفناء . كان الأب ياناروس يعرفه منذ زمن طويل ويحبه كثيراً . فهو ولد هادىء رقيق ، في جيبه دائماً أحد الكتب القديمة ، وعيناه الزرقاوان تشمان شباباً ووسامة . وهو طالب . في العام الماضى حضر في عيد الميلاد ليعترف قبل المناولة . كم هى صافية نفسه ! كلها رقة وروحانية . كان يحب فتاة يراها في الأحلام ويتحرق شوقاً إليها . هذه هى خطيئته الكبرى التى جاء يعترف بها في العام الماضى .

— مرحباً ليونيداس ! ماذا هناك ؟ أراك غارقاً في تفكير عميق .

وأجاب الشاب :

— لا شىء قط يا أبى ، فقد أتيت أقبل يدك .

— هل يمدبك شىء ؟

— نعم . لكن لا بد أن يكون هذا هو الشباب أو العصاراة التى

تصعد . ألم تكن تسميه كذلك عند ما أتيت لأعترف لك في العام الماضى ؟

لفحة الشباب الملتهبة التى تفتح البراعم ... ؟

وربت الأب ياناروس على رأس الشاب الأشقر وقال :

— نعم . العصاراة يا ابنى . لقد لفحتنى أنا أيضاً منذ زمن طويل ،

واليوم تلفحك أنت ، وغداً تنتقل إلى ابنك . كثيرون يسمونها ریح

الشباب ، أما أنا فأسميها ریح الله .

وصمت لحظة ثم أضاف وهو يبتسم :

— أنا أسمى كل شىء الله .

وظل الفتى صامتاً متحرجاً . كان يريد أن يقول شيئاً ويمنعه الحجل .
وأمسك الأب ياناروس بيده قائلاً :

— ليونيداس يا ابني . افتح لي قلبك . إني أسمعك .
وارتعدت يد الشاب في يد العجوز . وكاد ينفجر باكياً ليعبر بالدموع
عما يريد أن يقول . وقال له العجوز وهو يشد على يده مشجعاً :
— هه . حسناً .

وأجاب :

— أوكد لك يا أبى أنه ليس ثمة شيء .. لا شيء على الإطلاق .
لكنني فقط مقبوض النفس كأنما أشعر بمصيبة كبيرة تقترب . ربما تكون
الفتاة التي أحبها مريضة ؟ أو ربما هو الموت يقترب ؟ سامعني يا أبى .
أنا جئت لأقول لك هذا حتى أستريح . وقد استرحت .
وابتسم . لكن يده كانت ترتعد في يد الأب ياناروس .

وفي نفس المساء ، في الكنيسة ، شاهد أهل القرية المسيح يدخل
أورشليم على جحش أتان . وفرش الناس الفقراء ملابسهم على الأرض
أمامه والأطفال يلوحون بفروع السعف ويجرون خلفه ويغنون لتحيته .
كان هؤلاء الفقراء يستشعرون في دخائل نفوسهم وهم أمام الأغنياء
والثقفين أن هذا الرفيق المسكين المعذب حافي القدمين هو مخاص العالم .
« هو ذا العريس مقبل في نصف الليل » . وكانت الكنيسة الدافئة
معبقة برائحة الشموع والبخور ، والتماثيل المقدسة تتلألأ في الظلال .
والكنيسة صغيرة جداً وضيقة جداً ، لكنها حوت كل آلام المسيح
وشرور البشر وخلص العالم . كانت الكنيسة هي أورشليم والأب
ياناروس يمسك لجام الجحش ويقود المسيح إلى المدينة المقدسة حيث
يقتلونه . وترددت أصدااء ضربات البلطة في الشجرة التي يصنعون منها

الصليب . وسمع الأب ياناروس هذه الضربات وتألم كأنه الشجرة نفسها .
هذا غير ممكن ! لا بد أن أهل القرية يسمعونها أيضاً . ألا تلبين إذن
وجوههم ويشفقون على الله الذي سيعلق على الصليب من أجلهم ؟ ألن
يشعروا بعد خروجهم من الكنيسة أنهم جميعاً أخوة فيمدوا أيديهم إلى
المتمردين ويقولوا لهم : « أيها الأخوة ، لنوقف مصادماتنا المخجلة ونسير
خلف المسيح لأنه الآن في خطر ... » .

وتفحص الأب ياناروس الحشد بعينيه ، وكله أمل في أن يجد ابتسامة
صغيرة أو لمحة مضيئة في نظرة ، أو تأثيراً بمرور المسيح . لكن عبثاً .
انقضت عشية الأحد والوجوه جامدة لاتلين . عبثاً تدق آلام الله قلوبهم .
فقلوبهم لن تفتح . وسيظل المسيح في الخارج لا يجد المأوى . وامتلأ
صدر الأب ياناروس بالحجل والاستنكار . فلم يكدهم أهل القرية يستديرون
إلى الباب بمد القداس ويهمون بالعودة إلى منازلهم حتى امتدت يد العجوز
تحول بينهم وبين الخروج :

— قفوا أيها المسيحيون ! عندي لكم كلمة .

وعبست وجوههم . والتفت ستاماتيس العجوز — أكبر شيوخ
القرية الأغنياء منا — إلى زميله الأب تاسوس . كان الاثنان هما اللذان
جلسا على مقعد وكيل الكنيسة يبيعان الشموع . قال :

— لن يدعنا نعود هذا المسيحي . أنا أريد أن أنام . ألسنت كذلك ؟

فأجاب الأب تاسوس وهو يتشاءب بصوت مرتفع :

— فلتقطعوا أنفي إذا رجعت إلى قداسه مرة أخرى . هذه آخر

مرة أترك فيها وسائل الراحة في منزلي لأظل واقفاً هذه الساعات الطويلة .

ثم إنني رأيت كل هذا مرة ومرات وشبعت منه .

وتقدم الأب ياناروس إلى وسط الكنيسة وتكلم :

— اسمعوا يا أولادى . هناك سبع سموات وسبعة عوالم ، لكنها لا تسع الله . ومع ذلك يسهه قلب الإنسان . فاحذروا أن تجرحوا قلب الإنسان لأنه مثوى الله . ما أشقاكم يا أهل كاستلوس ، يا عبيد الشيطان يا من تقتلون أخوتكم . إلى متى تظل اللعنة هكذا على نفوسكم ؟ ألا تستحون ؟ ألا تشفقون على الله الذى يدخل أورشليم هذا المساء ليصلب حبا فيكم ؟ وإذا لم تكن لديكم على الله شفقة ، ولم يكن بكم من الله خوف ، فلتخافوا على الأقل جهنم ؟ لسوف تحترقون فيها يا قتلة إخوتكم مجللين بالقار إلى أبد الآبدين .

وصاح فيه صوت غاضب :

— اذهب وقل هذا للأنصار !

وصاح صوت آخر :

— اذهب وقله لابنك المتمرد !

وتهد الأب ياناروس قائلاً :

— آه ! صوتى لا يستطيع أن يصل أيضاً إلى الأنصار فى الجبال ،

وإلى سادة السهل ، وبعد ذلك إلى العالم كله ! لكن حظيرتى صغيرة ، ليست سوى كومة من الأحجار اسمها كاستلوس . وإليها أتكلم .

لكن وجوه أهل القرية ظلت عابسة . ضاعت بلا جدوى توسلات

الأب ياناروس وتهديداته والله والجحيم وأبد الآبدين . كل هذا بدا فى نظرهم بعيداً جداً لم تأت ساعته بعد . وعندما تأتى ساعته ، سيكون لديهم متسع من الوقت للتفكير . أما اليوم فإن لهم مع الأنصار شئونات أخرى كثيرة .

واقترب مندراس العجوز كبير الأعيان من الأب ياناروس يحدجه

بنظرة قاتلة من قاع عينه التى يسيل على طرفها القذى :

— هذه كلمات قدسية أيها الأب ، لولا أنها تدخل من أذن وتخرج من أخرى . فإن في رؤوسنا اليوم شيئاً آخر ، هو أن نصفي الأنصار . وبعد أن ننهي من ذلك تستطيع أن تكلمنا عن الله . هل فهمت ؟
فرد عليه الكلام غاضباً :

— فهمت يا مندراس . فهمت أن الشيطان قد ركبكم وانتهى الأمر .
وأجاب الشيخ متضحاً في سخرية :

— أما أنت ، فطبيعي أن الله هو الذي ركبك . ماذا ستعنى الآن إذن ؟

فقال الأب ياناروس وهو يرفع أصبعه محذراً :

— سنعود إلى هذا الحديث في حياة أخرى !

— أنت تبني قصوراً على الرمال يا أب ياناروس . إنه هاهنا يجب أن يكون الحديث . هنا في كاستلوس . لكن ابنك قائد الأنصار على قمة الجبل . ولو كنت أنا مكانك لقيدت القرية كلها بالأغلال يا أب ياناروس . هل تريد أن نتكلم عن ذلك دائماً ؟

وهز أهل القرية رؤوسهم موافقين . فقد قال شيخ القرية ما كان في أذهانهم ولم يجرؤوا على قوله . برافوا ! هكذا شعروا بالارتياح .

وأخذ كثيرون منهم يتضحكون ، وآخرون يتنحنجون . لكنهم تدفقوا جميعاً مسرعين نحو الباب . وبقي الأب ياناروس وحده في الكنيسة مع المسيح والمندراء ذات المعجزات والقديسين ، يناجي الله هامساً :

— أيها الرب ! أيها الرب ! ها هم الناس يصلبونك مرة أخرى .

٣

في يوم الاثنين المقدس ، لم يكد الله يطلع النهار حتى نشط الناس إلى العمل ، فأومضت طلقات الرصاص ، ونزل الأنصار وصعد الجنود ، وتقابل نصفاً كاستلوس في منتصف الجبل يذبحون بعضهم بعضاً مزجربين هائجين مسعورين .

وترك الأب ياناروس المسيح في الكنيسة — فلم تكن به حاجة إلى البشر — وجرى نحو الجبل يناول الذين يموتون ويصحب الجرحى إلى القرية .

كان هذا الاثنين المقدس يوماً من أيام الله حقاً . الشمس منتعشة انتعاش الربيع تسطع على الزهرات الأولى لنبات الزعرور ، والنحل ينشط منذ الفجر يمتص رحيق الزهور الجديدة ونبات الزعتر . والغربان تحلق هناك أيضاً ، تحوم حول الناس وتحط على الصخور تنتظر أن يصبح هؤلاء الناس جيئاً لتأخذ دورها في العمل .

كانت الطبيعة كلها تستيقظ متعجلة .

ويبدو أن الناس كانوا يطيعون نداء الغربان . فانطلقوا مسعورين يتقاتلون . كانوا يبدأون بإطلاق النيران ثم ينتقلون إلى الهجوم بالسنكي وينتهون إلى الخناجر والسواعد والأسنان . وتسقط الأجساد على الصخور فترطمها بصوت مرتفع . ويجري الأب ياناروس من رجل يموت إلى آخر ، يناول ويفلق الأعين ويرتل الصلاة ، ويهمس : « أيها الرب . اغفر لهم . اغفر لمن يقتلون ولمن يقتل . وإلا فارسل نارك لتهلكنا جميعاً فلا نلطح وجهك . »

وفي الظهر تقريباً ، تلقى الأب ياناروس بين يديه ليونيداس وهو محتضر ، وفتح عينيه ونظر إلى الأب وعرفه ، وحاول أن يقول شيئاً لكن سيلاً من الدم تدفق من فمه وانطفأت عيناه . وجرى أحد الجنود نحوه وفتش جسده فوجد في أحد الجيوب مفكرة صغيرة أخفاها في صدره قائلاً :

— كان قد تنبأ بذلك . كان يشمر باقتراب أجله فطلب مني أن أعطيها لمدرس القرية .

وانحنى الجندي مرة أخرى فقبل الميت ، ثم التقط بندقيته ، واندفع يجري نحو الجبل يطلق الصراخ المرتفع .

وكان الجندي فاسوس قد أسر متمرداً ، أغمد خنجره في كتفه وألقاه أرضاً ثم تدحرج الاثنان وظلا يتصارعان ، حتى استطاع فاسوس أن يفك حزامه ويربط به يديه .

وانتهت المعركة . عاد الأنصار إلى أعالي الجبل وهبط الجنود إلى المعسكر ، وختموا بذلك يومهم .

كان فاسوس في طريقه إلى الوادي مع أسيره ، والغبيظ يملأه من الدماء التي سألت أمامه طول اليوم والمآزق الخطيرة التي تعرض لها .

فأخذ يضرب الأسير في غضب شديد بدبشك البندقية ويبصق عليه ويشتمه
ونزل على العالم ظل طرمي ، وكان النهار شديد الحرارة فاستردت
الأرض أنفاسها في هذا الجو الالامين .

ونزفت الدماء من الجرح في كتف المتمرد ، وبدأ الدم يسيل أيضاً
من قدمه الجريحة بعد أن فقد فردة حذائه . وتعب فاسوس من الضرب
فجذبه من ذراعه وأجلسه أرضاً . وتخطاها بقية الجنود في طريقهم إلى
المعسكر .

قال فاسوس :

— أريد أن أستريح لحظة . فاجلس هنا ولا تحرك ساكناً ،

وإلا ابتلعتك !

وانحنى خلف صخرة وأخرج من حقيبته قطعة خبز . كان جائعاً .
فجلس يمضغ . وكان عطشاناً فأمسك بالزمزمية ورفعها إلى فمه . ونظر
الأسير إلى الزمزمية برغبة . لم يكن حتى هذه اللحظة قد نطق ببنت شفة ،
لكنه لم يعد يحتمل .

— إذا كنت إنساناً فاعطني جرعة ماء فأنا أحترق عطشاً .

ونظر إليه فاسوس كأنما يراه لأول مرة . كان ولداً أمرد لم تنبت
لحيته ، له فك شرير بارز مثل فك الثعلب ، وعيناه صغيرتان يالأها
الرعب . ونظر إلى يديه المقيدتين فرأى الجلد الجاف الميت يغطيها .
وكان شريطا الرصاص المتقاطعان على صدره فارغين . يبدو أنه أطلق
كل ما كان معه من رصاص . لكن فاسوس بعد أن قيده أخذ بندقيته
وعلقها على كتفه مع بندقيته هو .

وعاد الفتى يقول :

— لو كنت إنساناً فاعطني أنا أيضاً جرعة ماء ، جرعة فقط
فأنا أحترق .

وبدا فاسوس يضحك :

— يا خائن ! أنت تبيع اليونان ثم تطلب الآن ماء ؟ مت !
وفتح غطاء الزمزية مرة أخرى ولوح بها أمام الأسير بطريقة
شريرة . وحاول الأسير أن يبكي وهو يقول :

— أليس لك أم ؟ أليس لك أخ ؟ ألسنت إنساناً ؟

— كفى ! أنا إنسان ، أما أنت فكاب .

والتقط قطعة حجر وقذف بها إليه :

— خذ ! هذه عظمة ، المقها .

وصر الفتي على أسنانه ولم يتكلم .

واستند فاسوس على الصخرة وخلع حذاءه ذا الرقبة الطويلة
ليستريح . كان قدماء يلتهبان نارا . وألقى بنظرة إلى القرية في أسفل ،
فسمع الصراخ والمويل يرتفع من البيوت التي تبكي موتاها . كانت
الشمس قد غربت واكتسى الجبل باللون الداكن . ومن بين صخرتين
رأى نجمة المساء تسطع في انتعاش وسرور .

والتفت فاسوس إلى الأسير وجذبه من قدمه العارية . فقد خطرت
له لعبة ، فقال وعيناه تضحكان :

— أيها البلشفي القدر . ما دمت كلباً ، فانبيح . انبيح وسأعطيك
جرعة ماء .

وانتفض الآخر وحملق بعينه في الجندي الذي يضحك .

وصاح فاسوس :

— هيا ! انبيح ، انبيح !

وشعر الأسير بأنه فقد أنفاسه . وكان قد نسي الجرح في كتفه ،
لكن ها هو الألم يغلبه فجأة .

وعاد فاسوس يصيح وهو يضحك :

— هاو ! هاو ! هاو ! هاو ! هل تريد الزمزية ؟ إذن انبح

يا صديقي العزيز .

وقال الآخر في همس :

— هذا يخجلني .

— إذن مت !

ثم سأله :

— اسمع . هل لك أم على قيد الحياة ؟

وارتجف الفتى وغامت عيناه . ومد رقبتة وشردت نظرتة إلى بعيد
نحو قرينته وأمه . ثم إذا به ينبیح نباحاً غريباً متألماً كالـكاب الذي
تهال عليه الضربات . وظل ينبیح وينبیح لا يتوقف . وترددت أصداء
صوته من صخرة إلى أخرى حتى وصلت إلى القرية . ومن أسفل ردت
عليه الكلاب . وخرج من ذلك كله تناغم مؤتلف من النباح الحزين .
وتجمد قلب فاسوس وماتت ضحكته . لم يسمع من قبل مثل هذا
الألم ومثل هذا النباح . وقف على الأسير وأغلق فمه بكلماته ليسكت .
وصاح :

— توقف وإلا قتلتك !

وأمسك بالزمزية ودفعتها في فمه :

— اشرب .

وعض الفتى على عنقها في شراهة وأخذ يشرب ويشرب . وعادت

إليه الحياة ، لكنه ظل يشهق وينتفض .

وسحب الجندي الزمزية قائلاً :

— كفى !

ونظر إليه . وفجأة تحرك قلبه ، فسأله بصوت أقرب إلى اللين :

— هل أهنتك ؟ هه ؟

وأجاب الولد :

— أمى ليس لها ابن غيرى .

وصمت الاثنان . وشعر فاسوس أن شيئاً غريباً يثقل قلبه . وسأل :

— ما هذا ؟ يداك يغطيهما الجلد الميت . ما هو عمالك في الحياة ؟

— أنا عامل .

— إذن لماذا تحمل بندقية ؟ قل لى ماذا فعلت بك اليونان ؟

وعاد إليه الغضب وهو يتكلم ، فصاح ووجهه يلتصق بوجه الآخر :

— ماذا فعلت بك اليونان إذن ؟ ماذا فعل بك الدين ؟ لماذا ؟

لماذا ؟

— كنت أعمل وأعمل ولكنى أجوع . وأمى أيضاً كانت تجوع ،

وهى امرأة عجوز . وخنقنى الظلم . وفى يوم من الأيام صرخت فى المصنع :

« العدالة ! العدالة ! حق متى أيها الفتية نظل نعمل ونموت جوعاً ؟ »

فتكاتفوا على جميعاً — صاحب العمل والعمال — وألقوني أرضاً

وارتموا فوقى وركلوني بأقدامهم خارج المصنع . وإذ ذلك شددت قبضتى

أنا أيضاً ولجأت إلى الجبل . وهناك فى أعلى الجبل قالوا لى إنهم يقاتلون

من أجل العدالة .

— وهل وجدت العدالة على الجبل يا أحمق ؟

— لا يارفيق . لم أجدها بمد . لكنى على الأقل وجدت الأمل .

— أمى أمل ؟

— أن تأني العدالة يوماً ما . ليس من تلقاء ذاتها ، فهي لا تملك
ساقين ، لكن بواسطة نحن ، نحن الذين نضعها على أكتافنا ونأتي بها .
وطأطأ فاسوس رأسه وبدأ يفكر .

تذكر بيته وأخواته الأربع اللاتي يقين عانسات . منذ سنوات
وسنوات ظل يعمل نجاراً ليجمع من المال ما يكفي مهورهن . يعمل
ويعمل ، فماذا جنى من العمل ؟ بالكاد ما يعيش به يوماً بيوم ، لا يزيد
على ذلك شيء يدخره . وكانت الفتيات الأربع ينظرن في عينيه كل يوم
ساخطات غاضبات . أما الكبيرة أرسيتيا فكانت قد شاخت وتدلى
ثديها بعد أن طال اشتياقهما إلى لمسة ترفعهما . ولم تلبث أن نبت لها
شارب ، وأصيبت بالصداع النصفي والأرق . ثم تحوات إلى امرأة سيئة .
كتلة من الأعصاب المتوترة . وفي بعض الأحيان تنفجر في البكاء دون
سبب ، وتتمرغ على الأرض وتصرخ صراخاً هستيريا . مات أبوها
قبل أن يتمكن من تزويجها . وكان فاسوس لا يزال صغيراً يعمل صدياً
عند نجار ، ويتعجل الزمن ليصبح « أسطى » يستطيع أن يكسب
مهرها . لكن هذا لم يحدث . والآن تشتمه أرسيتيا ، وتقول إنه عاجز
لا قلب له ، وترتمي فوقه لتخمش وجهه ، ثم تجهش بالبكاء .

أما الثانية ، كاليروا ، فكانت تقضى كل يومها على ما كينة الحياطة
تصنع لنفسها ثوب الزفاف . ثم جف عودها وغار خذاها وبدأ ينبت لها
شارب هي أيضاً . وفي كل مساء تقف على عتبة المنزل وقد تزينت
ووضعت المساحيق على وجهها ، لكن أحداً لا يلتفت إليها . فترجع إلى
الما كينة دون كلمة تخيط ثوب زفافها .

أما الثالثة ، تاسولا ، فليست فتاة ساذجة . هي لعوب ذات ثديين
مشدودين تنظر إلى الرجال ولا تريد الانتظار . وهي ليست من الفتيات

اللاتى يغلقن البيوت على أنفسهن ، لكنها تخرج وتقابل الصديقات .
ولهذا سرعان ما وضعت عينها على الرجل الذى ستتزوجه . رجل طيب
صاحب محل خردوات اسمه ارستيداكس . وفى كل يوم تمر أمام محله
وتهز عجيزتها .

وقال فاسوس لنفسه :

« أنا لا أخاف عليها ، فقد وجدت الحل ، وإن يلبث الرجال أن
يأتونى ليطلبوا يدها . أما الرابعة ، دروسولا ، فلا تزال فى المدرسة .
تقول إنها تريد أن تصبح معلمة . وأنا لا أخاف عليها هى أيضاً . إنما
أفكر فى الكبيرتين . يجب أن أكسب بأى شكل ما يكفى لتزويجهما ،
وإلا فسوف أحمل ذنهما فى ضميرى . لا بد من ذلك . لا بد من ذلك
وإلا فقدت أنا الفتاة التى أحبها . فكيف أستطيع يا إلهى أن أتزوج ؟
كيف أتزوج قبل أن أزوج الأربعة أولاً ؟ »

وتنهّد ورفع رأسه ونظر إلى الأسير . كان هو أيضاً مطرقةً يفكر .

وفكر فى أن يركله بقدمه ويهينه ويبصق عليه لينفس بذلك عن

شئ مما يملأ قلبه . لكنه غير رأيه فجأة كما نأ لان قلبه ، وقال له :

— أنت أيضاً مثلى أيها الشيطان الصغير : تكده . لكن على

من يقع الخطأ ؟ أنت لا تعرف شيئاً ولا أنا أعرف . فعيون الفقراء لم

تخلق لترى .

وقال الفق :

— أنا يا رفيق ، بدأت أرى . لم أتمكن من تمييز الأشياء جيداً ،

لكنى بدأت أرى . وأنت أيضاً سوف ترى . اسمح لى أن أسألك :

ما اسمك ؟

— النجار فاسوس من ساموس .

— أنا يانوس من فولو .

— هل لك أخوات ؟

— لا والحمد لله ! أنا ابن وحيد . مات أبى من الحمر . وذهبت أمى إلى بيوت الأغنياء تغسل الملابس . لكنها سقطت مشلولة . وفى كل يوم تكتب لى عن طريق ابنة عمها ، فينفطر قلبى حين أقرأ كلماتها ، وأكتب لها : « الصبر يا أمى الصبر . أنا لا أفكر إلا فيك . وسأعود سريعاً » .

وتهد قائلاً فى همس :

— متى ؟ متى ؟ ربما لن أراها قط . فها أنت رأيت اليوم يا فاسوس أنه لولا شعرة واحدة لكنت قتلتنى . واحمر وجه فاسوس . أراد أن يقول شيئاً . لكن ماذا يقول ؟ وكيف ؟ كانت الأمور مختلطة فى رأسه . كان يرى أم الفقى عجوزاً مشلولة ، ويرى الأخوات الأربع ينتظرن الزواج ، ويرى الأيادى الأربع يغطيها الجلد الميت وقد شوهاها العمل الذى لا يجدى نفعاً . ودون أن يشعر بما يفعل نهض وانتعل حذاءه ، وانحنى على الأسير وفك قيده وقال له :

— اذهب إلى الشيطان ! اغرب عن وجهى !

— حر ؟

— أقول لك اغرب عن وجهى .

وأضاء وجه الفقى ومد يده قائلاً :

— فاسوس . أنت أخ ...

لكن الآخر لم يدعه يتم كلامه بل زجر فى وجهه مرة أخرى :

— أقول لك اغرب عن وجهى !

ويبدو أنه كان متمجلاً فى طرده قبل أن يغير رأيه .

وسأل الفقى :

— هل تعيد لى بندقيتى ؟

وتردد فاسوس . وانتظر الآخر ويده ممدودة فى إلحاح :

— هه ؟

— خذها .

وأمسك الفقى بالبندقية ووضعها على كتفه وانطلق إلى القمة .
ونظر إليه فاسوس وهو يصعد لاهثاً مقوس الظهر . لا بد أنه
يتألم ، لأن كل ظهره كان مخضباً بالدم . وصاح فيه :

— انتظر !

ولحق به . واستخرج من الحقيبة ضامداً طبييا ونزع سترته وضمد له
الجرح ، ثم قال :

— انطلق ، لكن بسرعة ، قبل أن يركبى الشيطان مرة أخرى .

* * *

أتى الليل . وقبل أن يحل الظلام تباعد الفريقان ، فلم يعد يسمع
على البعد سوى صوت بنات آوى .

كان الأب ياناروس منهك القوى فاستلقى على مصطبة الكنيسة .
قلبه وشفته ورأسه تمتلئ سما . كان يقول فى همس : « يا يسوع ، لم أعد
أحتمل . أقول لك الحق لم أعد أحتمل . أنا أرسل لك صيحاتى منذ
شهور وشهور ، فلماذا لا ترد ؟ يكفى فقط أن تمد يدك نحوهم ليتفقوا .
فلماذا لا تمدها ؟ ليس فى الدنيا شيء يأتى عكس إرادتك . فلماذا تريد
هذه المذبحة ؟ »

كان الاب ياناروس يسأل وما من مجيب . لا شيء إلا الصمت الكبير .
ومن حين لآخر يرتفع نجيب فى البيوت التى تبنى موتاها . ومن

حين لآخر يرتفع من بعيد صوت بنات آوى تأكل هؤلاء الموتى . ورفع الأب ياناروس عينيه إلى السماء يتأمل النجوم طويلا دون أن يتكلم . كان طريق التبانة يجرى عبر القبة الزرقاء كأنه نهر . وتأمله الأب ياناروس قائلا : « هذا هو حزام العذراء الحقيقي ، كاه حلاوة وسكون . آه ! ألا تستطيع أن تلف حزامها حول الأرض أيضاً ؟ »

ولم يغمض الأب ياناروس عينيه طوال الليل . ظل دون توقف يسأل الله حق طلوع الفجر وينتظر جوابه .

وفي الفجر ، دقت بابه امرأة عجوز ، وقالت له وهي تنحب :

— انهض . ابن الاب تاسوس يموت ويجب أن تناوله .

كان قد جرح على الجبل بالأمس . وعهد به الأب ياناروس إلى رجلين ليصحباه إلى القرية . كان يحبه . فهو شاب وسيم يتألم في نفسه من رؤية الفقر ، ويسرق الخبز سراً من بيت أبيه ليوزعه على الجوعى . اسمه سقراتيس . وغالبا ما كان يحضر إلى الأب ياناروس ويتعلم منه الرسم . فقد كان يبحث عن طريقة يهرب بها من صياح أبيه ومن شرور القرية . وتعلم شيئاً فشيئاً كيف يعمل الفرشاة ، فيرسم بعض القديسين أحياناً ، وفي أحيان أخرى يرسم الفتيات الجميلات اللاتي يراهن وهو نائم ، لأن هؤلاء اللاتي يراهن بالنهار لم يترك منهن الفقر والعمل الشاق سوى الحطام .

كانت الأم جالسة على وسادة ابنها وهو محتضر . لم تكن تبكي . فقد تعودت على الموت ، ورائته يأخذ أبناء آخرين ، وأولاد عم وبنات عم وإخوة وأخوات . فالموت في هذا المنزل ضيف مألوف وصديق للعائلة . يدخل ويختار من يريد ويرحل ، وبعد فترة من الوقت يعود مرة أخرى . والعجوز ترى الواحد يغيب تلو الآخر والبيت يفرغ ، فتعقد يديها وتنتظر دورها . وفي إحدى المرات قالت للموت في رجاء : « خذنى أنا

ولا تأخذ سقراتيس . « ولم تكن تعرف أن الموت أصم . وها هي اليوم جالسة ترى ابنها يرحل ، وتمسك في يدها منديلًا تمش به الذباب عن جسده . وانحنت فوق الشاب تخبره بكل من ماتوا على الجبل ، وتطلب منه ألا يقلق ، فسوف يحضر الأب ياناروس لمناواته . وأوصته بما يبلغه لأهل القرية المتوفين ، وماذا يجب أن يقول لهم عندما يلتفون حوله تحت الأرض يستفسرون . منذ أمس بدأت تمدد له هؤلاء الذين تزوجوا أخيراً وكم أنجبوا من الاطفال . ثم ماذا عن النماج والماعز هذا العام ؟ شيء يشير البكاء لم تبق منها شعرة . أكلها جميعاً رجال البيريه الاحمر ، اللهم اكرم أنفاسهم والاب مندراس باع بيت بيلاجيا المسكينة لأنها كانت مدينه له ، وها هي تتسكع اليوم في الطرقات . يامصديتها !

« ولكن لا تقل لهم إنها أتت تدق بابنا وارتمت على قدمي أبيك ليسمح لها بالمبيت في الزريبة فركلها أبوك بقدميه وألقى بها خارج الدار . يجب ألا تقول لهم ذلك يا ولدي . «

وكان الابن يلهث . عيناه المفتوحتان أصبحتا كالزجاج . لم يعد يرى ولا يسمع . لكن أمه ظلت تنحني عليه وتهمس له بكل ما يجب أن يقول هذا المساء لأهل القرية المتوفين عندما يلتفون حوله ويسألون .

ووصل الاب ياناروس . وصمتت العجوز وانتجت ركنا من الحجره تنظر ويداها معقودتان . ومن وقت لآخر تمسح أنفها بطرف كعها . وحاول الاب ياناروس أن يناول الجريح . لكنه كان يشفق ويأخذ الفواق ثم يقيء دما .

ونفض الاب واقفا وبدأ يقول صلاة الموتى : « أيها الرب ، لترقد روح عبدك مع أرواح الابرار ... » كان هو أيضاً قد تعود على الموت ،

فظلت عيناه جافتين وصوته لا يرتعد . لكنه مع ذلك لم يكن يغفر الموت أن يختار من الشباب ضحاياه .

ورأت الام أنه انتهى من صلاته فرسمت علامة الصليب وقبلت يد الاب وعادت إلى جانب ابنها . وفجأة وصلت إلى أنفها من ناحية المطبخ رائحة شيء يقلى . وقالت لنفسها : « لابد أنهم وجدوا شيئاً من عش الغراب . فيجب أن أذهب لأرى . » ونهضت ورأت ابنتها الكبرى ستلا تقلى عس الغراب . فأخذت منه العجوز ملء يدها واقتطعت شريحة من الخبز . كانت جائعة . ثم عادت إلى جانب ابنها وجلست بخفة شديدة على وسادته وبدأت تمضغ طعامها .

وانتهت حشرة الشاب . وانحنى الاب ياناروس يضع يده على قلبه . لم يعد القلب ينبض . وعلى الفور بلت الأم اصبعين باللعاب وانحنت تلمس الارض ، ثم أغلقت عيني الميت قبل أن يتصلبا . ودخلت الابنة الكبرى بعد ذلك وفي يدها قطعة من الحجر حفرت عليها ثلاث حروف : م . م . م . يسوع المسيح المنتصر ، ووضعتها في يد أخيها قائلة :

— وداعا يا سقرانيس ، بلغ تحياتي لمن سبقوك .

ومسحت العجوز عينيها وأضافت :

— الوداع يا صغيري .

وفي المساء ، عاد الاب ياناروس منهكا من الجبانة . ها هو شاب جديد ضمته الارض ليصبح ماء وترابا . لكن أباه تاسوس العجوز من أعيان القرية الأثرياء ضن على جنازة ابنه ببيع الخبز والزيتون . ولم يفكر في أن يخرج من الكهف المغلق زجاجة من أجل جنازة ابنه . وعانده زوجته فقال لها :

— ألم يكفني أن أفقد ابني حتى أبدو أيضاً خبزي وخبزي وزيتوني ؟
حسبي إذن ألم واحد !

وفي هذا اليوم امتلأ قلب الاب ياناروس بموتى آخرين . طوال
الأسبوع المقدس كان عليه كل ليلة أن يقود المسيح خطوة خطوة إلى القبر .
في كل ليلة يشيع الموتى . واليوم كانوا كثيرين . وقال لنفسه وهو يهود
إلى منزله : « كم أعنى لو استطعت أن أستلقي أنا أيضاً وأغلق عيني ثم
أخلع عن نفسي هموم البشر كما يخلع عن الجسد قميص قدر ، لا يشغلني
سوى شيء واحد ، هو الحمار العجوز ياناروس ! أعلفه وأواسيه حتى
يستطيع هذا الشقي أن يجد القوة ليحمل روحى . فما أثقل هذه الروح .
الحمار لم يعد يحتمل ثقلها ، ومن المؤكد أنه سيينهار . أواه يا أب
ياناروس ! »

وظل يضرب فى الطرقات على قدميه . كانت الابواب موصدة بإحكام ،
والسكون ينجيم على القرية . الناس تعبوا من البكاء فصحتوا . ودقت طبلة
خلف المعسكر . وكانت الشمس تغرب ، والجبل يتحول إلى اللون
الداكن ، لكن النجوم لم تكن قد طلعت بعد . وهبت من الجبل نسمة
طرية . وشعر الاب ياناروس لحظتها بالراحة حين صاحقت جهته التي
يسيل منها العرق . وكان قد اقترب من باب بيته ، لكنه توقف فجأة .
رأى طفلاً يموت من الجوع فيرقد مقلوبا على وجهه في عرض الطريق وبطنه
منتفخة يغطيها لون أخضر ، يغترف بأظافره تراب الارض ويأكله . ووقف
الاب ياناروس وعيناه ممتلئتان بالدموع . وأمسك الطفل من يده
وقال له :

— انهض يا صغيرى . هل أنت جائع ؟

— لا . لقد أكلت ؟

– وماذا أكلت ؟

ومد الطفل يده الصغيرة يشير إلى التراب : من الأرض .
وغلى الدم في عروق الأب ياناروس ، وتأوه كأنما يختنق ، وحدث
نفسه قائلاً : « هذا العالم كرهه . وأنت الذي تمسكه بيدك يا إلهي .
أليس خيراً له أن تدفعه فيتحطم ألف قطعة ؟ ويصبح بذلك طيناً تخلق
منه عالماً أحسن ؟ ألسنت أنت الرحمن الرحيم ؟ ألسنت أنت القادر على
كل شيء ؟ ألا ترى هذا الطفل يأكل التراب ؟ » .

وأطرق برأسه في خجل ثم مضى في طريقه ، وقال هامساً :
– إنه ذنبي أنا وذنوب البشر أن يأكل هذا الطفل تراباً ، وليس
ذنوبك يا إلهي . الذنوب في رقبتى .

واسترجع في ذاكرته قصة مزقت قلبه . فقد ذهب في أحد الأيام
إلى استنبول لتحية البطريرك الجديد . ودعاها حاخام من أصدقاء البطريرك
إلى زيارة بيته في الحي اليهودي – إذا شاء ذلك ولم يجد فيه خطيئة .
كان اليهود يحتفلون بالعام الجديد وأخذ بعض الفنانين اليهود يعزفون
قطعاً موسيقية تتناسب مع الحشوع الدينية . وجلس الحاخام إلى جانبه
يشرح له ما يجري . ورأى في هذه الليلة وسمع أشياء كثيرة ، لكن لم
يعلق في ذهنه سوى كلمات معدودة بقيت في ذاكرته كالسكاكين القاطعة
لا يذكرها وإلا وتسيل دموعه . فقد شهد في غرفة نوم الحاخام منظرًا
جري على غير توقع . تقدم في الغرفة رجل شاحب الوجه عظامه بارزة يمسك
في يده طفلاً صغيراً . ومن خلف الستار ترددت الأغنيات والضحكات .
فقد كانت المواكب تعد للعام الجديد ليشرّب كل الناس ويأكلوا ويحتفلوا .
وفي وسط الغرفة جلس بعض الأغنياء يبطنون بارزة ضخمة . ولم يلبث
هؤلاء أن قاموا قائمين :

— الموائد معدة . فلنذهب إلى الطعام .
وانتقلوا وراء الستار ، وتركوا الرجل الشاحب وحده مع طفله .
وتوسل الصغير قائلاً :

— لارجع إلى البيت يا أبى !
— لماذا يا ابنى ؟ ماذا نفعل هناك ؟
— أنا جائع . . لارجع إلى البيت لنا كل !
— نعم ، نعم . . لكن اسمع يا دافيد . . ليس لدينا فى البيت
ما نأكل .

— حق قطعة خبز صغيرة فقط .
— ليس لدينا حق الفتات يا دافيد .
وصمت الطفل . وربت الأب على رأسه :
— اسمع يا دافيد . هل تعرف العيد الذى نحتفل به اليوم ؟
— نعم .
— إذن قل لى يا دافيد ، ماذا فعلنا اليوم ؟
— أدينا الصلاة يا أبى .
— نعم . وماذا فعل الله سبحانه ؟
— غفر لنا خطايانا .
— حسناً يا دافيد . ما دام الله غفر لنا خطايانا فيجب إذن أن
نكون مسرورين ، أليس كذلك ؟
وصمت الطفل .

— هل تذكر يا دافيد فى العام الماضى قبل أن تموت أمك كيف
غنينا على المائدة أغنية جديدة ذات لحن جميل ، هل تذكر ؟
— لا .

— سأذكرك بها . حاول أن تغنى معى ...

وبدأ الرجل يغنى بصوت مؤلم لحناً رتيباً حزيناً يمزق القلب . وأخذ الطفل يغنى معه وهو يبكى . وجفف الأب ياناروس عينيه ونظر حوله كى لا يراه أحد . ومرت على ذلك سنوات كثيرة ، لكن هذا اللحن لا يزال يمزق قلبه حتى اليوم . كان اللحن يخرج بطريقة غريبة ، كأنما القشرة الرقيقة التى تلف أحشاء الرجل قد تفتتت فجأة ، القشرة المصنوعة من هموم الحياة ومن مظاهر الجبن الصغيرة ، فانفجر إلى الخارج هذا اللحن الذى لا يحتمل . كل الأشياء الرهيبة التى يستشعرها الرجل فى داخل نفسه ويكتبها فى سراديب أحشائه ولا يجرؤ على إظهارها وتأملها ، انطلقت حرة فى هذا اللحن ، فرأى فيه الأب ياناروس مذعوراً أحشاه هو وأحشاء العالم كله .

وعاد الأب ياناروس أدراجه وأمسك بالطفل من يده قائلاً :

— هيا إلى المنزل يا صغيرى عندى لك قطعة من الخبز .

وسحب الطفل يده مردداً :

— لست جائعاً . قلت لك لست جائعاً .

وبدأ يبكى .

واستدار الأب ياناروس نحو الكنيسة مزججاً فى غضب :

— إنى ذاهب أفضح هذا العالم لله .

دخل الأب ياناروس بيته بجوار الكنيسة . كان أقرب إلى الغرفة الصغيرة منه إلى المنزل ، تشبه تلك التى عاش فيها على جبل آتوس . فى الغرفة منضدة ومقعدان ، وأريكة صغيرة ينام عليها . وفوق الأريكة يعلق أيقونة للقديس قسطنطين ، رسمها بنفسه على نموذج الايقونات التى كان

إخوان الانستتار محتضنونها وهم يسرون فوق الفحم الملتهب — هناك فى القرية على شاطئ البحر الأسود .

لم تكن للقديس هالة سماوية ولا حذاء جليل . فلهالة كانت لهباً ، والقديس يرقص على الفحم الملتهب بقدمين حافيتين وركبتاه مرفوعتان عالياً . وكان البعض يدهشون لهذه الصورة ، فيقول لهم الأب ياناروس : « هذا القديس قسطنطين عشى على النار . فهو من إخوان الانستتار مثل كل القديسين فى الماضى ، ومثل كل الأبرار الذين يعيشون فى الدنيا فى هذه النار التى تسمى الحياة . »

لكن أجمل ما فى الغرفة صورة محفورة على الخشب بطريقة رائعة موضوعة على المنضدة بجانب الإنجيل ، تصور الدينونة الأخيرة ، أعطاه إياها الأب أرسنيوس النجات المشهور فى دير القديسة آن على جبل آتوس . لم يكن الأب ياناروس يشبع من النظر إليها . وكما تأملها انقل قلبه وصاح من داخله صوت يقول : « لا لا لا ! » لكنه لم يكن يدرك ما الذى يصبح ولماذا يصبح .

فى وسط اللوحة كان المسيح فى صورة القاضى الصارم بمد يديه : اليد اليمنى تبارك ، واليسرى تهدد بقبضة مضمومة . على يمينه آلاف الأبرار يضحكون بعد أن تذوقوا حلاوة الفردوس ، وعلى يساره آلاف الأشرار يسكون والهلع الذى لا يمكن وصفه يكسو وجوههم وأفواههم التى تلتوى بالصراخ ! والمذراء تحر باكية على قدمى المسيح وترفع رأسها ويديها لتشير إلى الأشرار وفمها شبه مفتوح . وقيل إنها كانت تصيح : « الرحمة لهم يا إبنى ! » .

وانحنى الأب ياناروس وقبل الدينونة الأخيرة ، ونظر إلى المذراء وهى تبكى ثم قال فجأة :

— يا إلهي ، من يدري ؟ لماذا لا تكون العذراء أمك هي القلب

الذي يتوسل ؟

واستلقي على الأريكة يغلق عينيه ويطي ركبتيه الدينونة الأخيرة . لم يكن يريد أن ينام رغم أنه منهك القوى تماما . واسترجع تحت جفنيه المغمضين صورة الاب ارسنيوس . وعادت إليه ذكرى اليوم المقدس الذي قابله فيه لأول مرة .

كان ذلك في الشتاء في يوم ساطع الشمس ، والاب ياناروس يسير ، ويطي كتفه جراب ، أمام دير القديسة آن . وهو دير ساحر تحيط به الخضرة . كانت الثمار الحمراء تلمع في شجر البرتقال خلال الأوراق اللساء الضاربة إلى السمرة . خارجها لهب أحمر وداخلها عسل حلو .

وفكر الاب ياناروس : « إن إرادة الله تشبه هذا البرتقال .

فهى من العسل والنار » . وامتألت عيناه بالدموع . كم شعر بالسعادة تملأه فجأة بين هذه الروائح العطرية وهذا السكون ، وأمام البحر الخالي الذي يبرق في اخضرار وزرقة من بين أشجار البرتقال المحملة بالثمار .

ودخل في إحدى الحجرات . أربعة جدران بيضاء ، وفي السقف

يتدلى عقد من السفرجل الناضج . والحجرة كلها معبقة برائحة السفرجل

وخشب السرو . ورأى هناك راهبا شاحب الوجه جاف العود يجلس

على مقعد وينحت قطعة من الخشب يمسك بها على ركبتيه . كان ملتصقا

كاه بقطعة الخشب هذه : صدره ووجهه وروحه . العالم كله سقط في

عماء لا تقوم له قائمة إلا في هذا الركن الإلهي على يد هذا الراهب وقطعة

الخشب ، كأنما كلفه الله بأن يعيد خلق العالم من جديد . كم كان جميلا

ووجهه يميل فوق الخشب ويرتعد . تقدم الاب ياناروس خطوة نحو

الراهب وانحنى فوق كتفه ، وكنتم في نفسه صيحة . فما أروع ما كان

يرى يا للبراءة والصبر والإيمان ! كان هذا يوم الدينونة الاخيرة منحوتاً على خشب السرو يمج بالحياة والاشخاص ، بعضها يرتعد هلعاً وبعضها يفيض رقة ، والمسيح في الوسط ، وعلى قدميه العذراء وملاكاً من يمين ومن يسار ينفخان في بوق القيامة .

وحياه الاب ياناروس قائلاً بصوت قوى : « ليباركك الله يا أبى . »
لكن الراهب كان غارقاً في معاناة الخلق فلم يسمع شيئاً .

فتح الاب ياناروس عينيه . كان الظلام قد حل . والمصباح الصغير الذى أشعله أمام القديس قسطنطين يرسل في الغرفة ضوءاً ضعيفاً لا يكاد يصل إلى لوحة يوم الدينونة التى يحملها على ركبتيه ولا إلى السفرجل المدلى من السقف . كان كل شيء هادئاً . فالقرية نامت . ورأى من النافذة الضيقة قبة الكنيسة تلمع . كانت قد طليت أخيراً باللون الأبيض . ورأى نجمتين فى قطعة من السماء .

وأغلق الأب ياناروس عينيه مرة أخرى وعاد إلى حجرة ارسنيوس على جبل آتوس . كم من الأحاديث الهادئة تبادلها . وكم من الليالى قضاهما إلى جانبه فمرت كالنسيم . من المؤكد أنه هكذا تمر الساعات والأيام والقرون فى الفردوس . الساعات تمر وروحهما تنتفضان أمام الله وتهدلان كما يهدل الحمام .

وسأله الأب ياناروس يوماً ، وهو ينظر إلى البحر خلال أشجار البرتقال وتحرقه الرغبة المفاجئة فى أن يفر هارباً :

— كيف تستطيع يا أب ارسنيوس أن تعيش وتتمسك هكذا وأنت وحدك تماماً ؟ أنت تعيش فى العزلة منذ سنوات طويلة يا أب ارسنيوس .
وأجابه :

— مضى عشرون عاماً يا أب ياناروس وأنا أغلق على نفسى هذه الغرفة ، مثل دودة القز فى شرنقتها .

ثم أشار إلى غرفته قائلاً :

— وهذه شرقتي .

— وهل تكفيك ؟

— تكفيني لأن لها نافذة صغيرة أرى منها السماء .

ويأتي الليل . ويعر منتصف الليل . وفجأة ينزل الإلهام على الأب

أرسنيوس فيمسك بأدواته الدقيقة ويغيب في صمت مطبق ويبدأ يسجل

على خشب السرو رؤياه الإلهية قبل أن تفر منه .

وفي إحدى الليالي حضر راهب شاب من دير لافرا يحمل إحدى

الرسائل . وكانا يتكلمان معاً فسمعا صوتاً يتهد خلفهما . واستدار الأب

ياناروس فرأى الراهب الصغير ينصت إليهما فيما يشبه الوجد ، وسأله :

— ماذا تفعل هنا وأنت تنصت لنا ؟ ماذا تفهم من ذلك ؟

— لا شيء . لكنني أسأل الله أن يمنحني نعمة الإنصات إليكما وأنتما

تتكلمان هكذا إلى الأبد . من المؤكد أن هذا هو الفردوس .

وفجأة تحركت في نفس الأب ياناروس من جديد الرغبة الشديدة

في أن يرحل عن كاستلوس ، يحمل الله ويرحل مرة أخرى . فهنا في

كاستلوس تبلى روحه وتفقد في كل يوم ريشة من جناحها . إنه يصارع

الناس منذ سنوات عديدة ويرفع صوته على منبر الكنيسة وفي الشارع

وفي كل مكان يرى فيه بشراً . فما الذي وصل إليه ؟ هل انتهى الشر

أو حق تناقص ؟ هل ألقوا القنابل وتوقفوا عن القتل ؟ هل هناك

رجل واحد أو امرأة واحدة أصبحت أحسن مما كانت ؟ لا أحد .

فليرحل . ليرحل . ليحمل الله ويرحل . ليهبث عن أرسنيوس !

هل يا ترى لا يزال على قيد الحياة ؟ هل لا يزال ينحت روحه على

الخشب ؟ إذن لأبني حجرة إلى جانبه ، شرقة في الصحراء ، لا أرى منها

شجر البرتقال ولا البحر ، ولكن فقط قطعة من السماء خلال النافذة .
وأذهب أحياناً إلى الأب ارسنيوس أبادله الدمعات الحلوّة التي يسكبها في
عزلاته . فهو الصديق الوحيد والضمير النقي الوحيد الذي قابله على الجبل
المقدس . وكم من مرة استدعاه بفكره إلى جحيم كامنلوس ، فكانت
روحه تجد العزاء في تلك اللحظات . وقال لنفسه : « طالما بقيت مثل
هذه النفوس ، فالعالم سيبتجب الدمار ، إن الأب ارسنيوس عامود :
يرفع العالم من فوق الهاوية . . » .

كان الأب ياناروس يغمض جفنيه ويعقد يديه على يوم الدينونة
الأخيرة ويفكر في صديقه ، ويبدو له جبل آتوس كاللوح القديمة
المقدسة التي تآكلت بالزمن واخضرت بالرطوبة . وفجأة غلبه النوم .
ورأى في المنام حلمًا :

علا النداء من بوق الدينونة فبدأت الأرض تهتز وتنتفخ ويخرج
منها الموتى بالآلاف عجائز من الطين لا تزال . وفي الشمس يتجمدون
وتتصلب عظامهم وتتشكل أجسادهم من جديد ، وتنشأ لهم عيون
جديدة في قيعان محاجرهم وتعود أسنانهم المبعثرة تدخل في أفواههم
وتنتفخ صدورهم بالنفوس ، ويجرون جميعاً لاهئين يصطفون : بعضهم
على يمين المسيح وآخرون على يساره . ويتربع المسيح بين السماء
والأرض على حشية زرقاء مطرزة بالذهب . وعلى قدميه تسجد العذراء
تتضرع إليه . ويلتفت المسيح إلى اليمين ويبتسم ، فينفتح على الفور باب
الفردوس من الزمرد ، وتأتي ملائكة حمراء فاقمة اللون ذات أجنحة
زرقاء وتحتضن الأبرار وتغني لهم وتقودهم إلى مئوى الله خلال بساطين
مزهرة . وبعد ذلك يلتفت المسيح إلى اليسار ويعقد ما بين حاجبيه ،
فترتفع نحو السماء صرخة مبكية ، ويجتمع عدد لا حصر له من الزبانية

لهم قرون وشعر كث يمسون الحراب ذات الرؤوس الحادة يطعنون
بها الخطاة ليسرعوا إلى الجحيم . وتسمع العذراء الصراخ فتعود إليهم
وقلبها يفيض شفقة وتصيح :

« يا أولادى ، لا تبكوا . . إن ابني عادل ، لكنه كذلك رحيم .
فلا تخشوا شيئا . . »

ويبتسم المسيح ويقول :

« يا أولادى ، لقد أردت تخويفكم . تقدموا . فقلب الله يتسع
للأبرار وللخطاة . ادخلوا الملكوت ! »

ويقف الأبالة مذهولين ، وتسقط الحراب ذات الرؤوس من
أيديهم ، ثم يبدأون فى الشكوى هم أيضا صائحين :

« ونحن أيها الرب ماذا ستفعل بنا ؟ »

وينظر إليهم المسيح وكله عطف . وما يكاد ينظر حتى تتساقط
شعورهم وقرونهم وترق وجوههم . ثم إذا بأجنحة زرقاء تنبت من
أكتافهم طرية ملتوية . ويقول المسيح :

« ادخلوا أنتم أيضا ملكوت الله . فالدينونة الأخيرة ليست العدل
ولكنها الرحمة . »

وفى أثناء كلامه ينزل رذاذ من المطر ، فيمسح الأبرار والخطاة
والجحيم والفردوس والمسيح ، ويستيقظ الأب ياناروس صارخا ، ثم
يرسم علامة الصليب ويقول بصوت خافت :

— يا إلهى ، كم من الأبواب يفتح فى دخائلنا ونحن نيام ! وكم
من الأجنحة ! يا إلهى ، لو كنت تسجل علينا أحلامنا أيضا ، لأصبحنا
من المفقودين !

وترددت أصوات الليل مرة أخرى . وارتفع في السكون من بعيد
صوت بنات آوى تهبط إلى كاستلوس .
وتحدث الاب ياناروس إلى نفسه قائلا :

« الليل محل ، فتبدأ المذبحة الليلية : العصافير والفئران والديدان
وبنات آوى وكل الاشياء الحية تقفز بعضها على البعض الآخر لتقتله أو
لتزاوجه . يا إلهي ، كم هو غريب هذا العالم الذي خلقتة ! أنا لا أفهم ! »
وجأة قفز إلى الباب في خطوة واحدة مرهفا اذنيه : فقد سمع في
وسط الظلام خلف الكنيسة ما يشبه حشرة شخص يختنق .

٤

أمسك المعجوز بعصاه وأسرع إلى الخارج ، كان الليل هادئاً ليناً مثل كل الليالي التي تعقب معارك الناس ومذابحهم . وكانت النجوم تنحدر نحو الأفق . وخيل للأب ياناروس أنها مصابيح صغيرة علقها الله في الفضاء الأسود . وقال لنفسه . « إن النوم عادل يمطينا ما تمنعه اليقظة عنا » . وسرت في قلبه فجأة نسيمة حلوة ، فقد كان عسل الحلم الذي رآه لا يزال يرطب أحشائه ، وقال : « كم أتمنى لو كان هذا الحلم حقيقة ، فتجري الأمور يوم الدينونة الأخيرة كما رأيت : الرحمة ! الرحمة ! لا العدالة ! فالإنسان بأئس جداً لا يحمّل العدالة . وهو عاجز يبدو له الإثم مريحاً وأوامر الله ثقيلة . والعدالة شيء حسن بالتأكيد ، لكن للملائكة . أما الإنسان فهو بأئس جداً يحتاج إلى الرحمة . . »

ودخل الأرض الملحقة بالكنيسة . من هنا أتى فيما يبدو صوت الحشرة التي سمعها . وخطا بين القبور القديمة ، القبور التي جرت العادة أن يدفنوا فيها رعاة كنيسة القرية . ها هنا كان قد حفر بيديه

قبرا لنفسه هو أيضا ، وقطع بنفسه أيضا حجر الشاهد ، ونقش عليه بحروف كبيرة مطلية بالأحمر :

« أيها الموت ، أنا لا أخافك . »

وقف الأب ياناروس لحظة أمام قبره مسرورا يقول في همس :
« أيها الموت أنا لا أخافك . » وفجأة شعر بأنه حر . ما هو الإنسان الحر ؟ هو الإنسان الذي لا يخشى الموت . وتحسس لحيته متأملا ، يشكر الله : « يا رب ! هل توجد في الدنيا سعادة أكبر من سعادة هذا الذي لا يخاف الموت ؟ لا . لا يوجد . »

في ذلك الوقت وصلت إلى أذنه من جديد هذه الحشرة المجهولة تأتي مبحوحة من بعيد . وأسرع الأب ياناروس في طريقه يقول لنفسه :
« ربما يكون هذا صوت جريح نساء زملاؤه وعاد إلى القرية . » وأخذ ينظر يمينا وشمالا ويرهف أذنيه .

وخرج من القرية وسار في طريق الجبل . وأخيرا سمع وقع أقدام بطيئة متهالكة . وتدحرجت قطعة حجر . كان شخص ما يهبط الجبل . وجرى الأب ياناروس يتعثر في قطع الحجارة ، وإذا بصوت خفيض منك يصل إليه :

— يا أب ياناروس ، هل هذا أنت ؟

واستطاع المعجوز أخيرا أن يميز في الظلام رجلا يستند على صخرة ويمد له يديه . واقترب منه مسرعا وأمسك بساعده وانحنى ليراه . كان شابا أشقر شديد الضعف . كاه عظام بارزة . ولا بد أنه كان جريحا ، فقد كان يقبض بيديه على صدره ويئن . وتحسس الأب ياناروس جسمه فتخضبت يده بالدم .

وسأله بصوت خافت كأنما يبحث عن سر خطير :

— من الذى جرحك ؟

وأجاب الشاب :

— أجدر بك أن تسألنى : من الذى لم يجرحك ؟ من المؤكد أنه شيعى لأننى مسيحي ، ومن المؤكد أنه مسيحي لأننى شيعى فى الحقيقة لم أستطع أن أحدد .

— تعال معى فبيدق قريب وسنغسل الجرح هناك . هل هو جرح

خطير ؟

لكن الفتى عاد يسأله :

— هل أنت الأب ياناروس ؟

— نعم ، أنا الذى يسميه الناس الأب ياناروس ، ويسميه الله الآثم ،

وهذا اسمى الصحيح .

ثم سأله مرة أخرى :

— هل جرحك خطير ؟

واف الشاب ذراعه حول كتفى المعجوز وبدأ الاثنان يهبطان يسند

أحدهما الآخر . وأجاب الجريح :

— أنت تعرف جيداً يا أب ياناروس أن الجروح تكون دائماً

خطيرة حين تصيبننا من الإخوة .

وصمت الاثنان وهما يدخلان القرية . كانت قبة الكنيسة مطلية بيضاء

تلمع فى رقة . ودفع الأب ياناروس الباب المجاور للكنيسة ودخلا .

وأجلس المعجوز الفتى على الأريكة قائلاً :

— اجلس يا ولدى .

وأشعل المصباح فأضاء وجه الغريب . وجه شاحب حزين ذاهل .

وانتفض الأب ياناروس حين رآه . لقد رأى هذا الشاب من قبل في مكان ما . لكن أين ؟ ومتى ؟ وهل كان ذلك في حلم ؟

كان يلبس رداء الكهان ويعلق على رقبتة صليباً من الحديد ، وعيناه الزرقاوان تنظران إلى العالم باندهاش كأنما تريانه لأول مرة . وبهذا المنظر نفسه كان الأب ياناروس يتخيل دائماً كبير الملائكة جبريل عندما ينزل إلى الأرض يقول لمريم : « أحييك يا ذات اللطف ! »

وفجأة تذكر الأب ياناروس كل شيء فيما يشبه التجلي . كان مطران جانينا قد أمره أن يرسم البشارة : حدث ذلك منذ سنوات عديدة . فرسم الملاك جبريل في صورة هذا الراهب الشاب تماماً وبِنفس العينين . وارتعدت فرائص الأب ياناروس وهو يقول لنفسه : « ما هو سر القلب البشري ؟ هل لديه القدرة على أن يصنع هذا العالم ؟ من من المؤكد أن النفس قبس من نار الله ، تكمن تحت لحم الإنسان لتشمه كحزمة من القش . »

ومال على الراهب الشاب يسأله بصوت مرتعش :

— من أنت يا ابني ؟

لكن الجريح عض على شفثيه وقال :

— أنا أنالم .

وشعر الأب ياناروس بالحجل لأنه نسي الجرح وأخذ يسأل ويستفسر . فجري يبحث عن جرة الماء . وفتح رداء الكهان الذي يلبسه الجريح وغسل الجرح ودهنه بشيء من المرهم يحتفظ به دائماً للطوارئ المؤلمة . ثم ربط الجرح وجعل الشاب يستلقي على الأريكة وجلس إلى جانبه .

وشعر الجريح بالارتياح ففتح عينيه ونظر إلى الأب ياناروس
وابتسم قائلاً :

— أشعر بتحسن . بارك الله فيك .

وأغمض عينيه مرة أخرى .

— هل تريد أن تنام يا ابني ؟

— لا . أريد أن أستجمع روحي لأجد القدرة على الكلام .

— استرح أولاً ولا ترهق نفسك ، أنا لا أسألك من أنت ولا ماذا

تريد هنا من صخور كاستلوس . أنا لا أطلب منك شيئاً فاسترح .

— لكي أستريح يجب أن أتكلم يا أبي . لهذا السبب أتيت . إن

عندي سرا . . .

وسأل الأب ياناروس في قلق :

— سر ؟

وقال في نفسه : « ربما كان مجنوناً . فميناه من هذا النوع الذي

يرى المجهول . ولا يملك هذا النوع من العيون إلا الملائكة والمجانين . »

وعاد يسأل :

— أي سر ؟

وازرد الشاب لعابه في أم وظل صامتاً لحظة ثم قال :

— اعطني كوب ماء . فخلق جاف . عذراً يا أبي .

وعندما أنعشه الماء تكلم :

— عندما جرحت ، توصلت إلى الله أن يعطيني القوة لكي أصل

إليك فأودعك هذا السر قبل أن أموت . فربما أموت يا أبي .

وقال له الأب ياناروس :

— لا تتكلم هكذا .

كان يمتليء بالعطف العميق نحو هذا الصبي الذي يكافح أمامه عزرائيل . يكافح الله .

— هل تخاف الموت يا أب ياناروس ؟

وابتسم الأب ياناروس قائلا :

— لا .

— وإذن ؟

ولم يجب الأب ياناروس . كان يريد أن يقول أن الموت هو الذي يخاف منه ويرفض أن يأخذه بينما يختطف الشباب في ريعان شبابهم . ولكنه لم يتكلم .

— وأنا أيضا يا أبي . كنت أخشاه منذ زمن ، عندما كنت أصغر

سنا . لكن ناسكا قديسا قال لي كلمة أصلحت بيني وبين الموت .

— ما هذه الكلمة ؟ أريد أن أسمعها أنا أيضا .

— قال لي : « الموت هو الأثر الذي يتركه الله على الإنسان الذي

يلمسه » . وأنا أشعر أيها العجوز بيد خفية تلمسني في قلبي . ولهذا السبب

أنا متمجّل . لهذا السبب استجمعت قواي وحضرت إليك أودعك

سرى . فلست أريد أن أحمله معي وأموت .

— تودعه لي أنا ؟ إن عمري سبعين عاما .

— عمرك عشرون عاما يا أب ياناروس . فأنا أعرفك جيدا ،

والأب أرسنيوس ...

وانتفض الأب ياناروس :

— من ؟ الأب أرسنيوس في الدير ؟

— نعم في دير القديسة آن . فليرحمه الله !

— هل مات ؟

— لا . أصابه الجنون .

وامتلأت عيننا الأب ياناروس بالدموع بينما استمر الراهب :

— أصابه الجنون من الصيام والتقشف وكثرة الحديث إلى الله .

لم يستطع عقله أن يقاوم . انفتح غطاؤه فخرجت كل الشياطين التي كانت بداخله . ولم يعد ينعت أيقونات العذراء والمسيح . كان ينهض في الليل ويضئ المصباح الصغير وينحت صوراً للشياطين والنساء العاريات ومناظر الشهوة ...

وانتفض الأب ياناروس فجأة واقفا يصيح :

— لا ! لا ! ليس عند الأب آرسنيوس شياطين ولكن ملائكة !

لا تلتطخ ذكراه !

— بل عنده شياطين ونساء عاريات وشهوات : وكانا يا أب

ياناروس عندنا شياطين ونساء عاريات وشهوات . .

ولم يجب الأب ياناروس ، بل تأمل داخل نفسه ، ولمس لوحة

الدينونة الأخيرة على المنضدة ومال يقبلها . وغاب في تأملاته فترة طويلة

ونسى الجريح وسره . فقد كان الأب آرسنيوس يملأ قلبه . وقال لنفسه

في همس : « شياطين ونساء عاريات وشهوات ! يا للأسف ! ربما كان

هذا الشاب على حق » . وتذكر أنه سأل الأب آرسنيوس يوما عن قلب

الآثم وماذا يوجد بداخله ؟ فأجابه وعيناه مطرقتان : « قلب الآثم ؟

لماذا تسألني عن قلب الآثم ؟ أنا لى قلب صالح ومع ذلك يوجد بداخله

كل الشياطين . »

كم من السنين بقيت محتبئه في دخيلته مغلولة بخشية الله ؟

لهذا السبب إذن كان ينحت طوال الليل بقلق يشبه قلق القديسين .

ولهذا السبب كان يخاف الأحلام ولا يحب أن ينام . كان يستطيع أن

يدفع بالصلوات هذه الرغبات الغامضة حتى نهاية حياته . كان يستطيع أن يموت تفوح منه رائحة القداسة . لكن لم يكذب ينزاح الغطاء ، حتى انفلتت نفسه في لحظة واحدة ، وانتهزت الشياطين الحبيسة الفرصة فقفزت خارجه . . .

كان العرق يسيل على وجه الأب ياناروس . وشعر فجأة بأن حرارة الجو حارقة لا تحتمل . . . وفتح الباب ووقف على عتبة . وأنمشه نسيم الليل ، ثم تذكر ضيفه الجريح فأغلق الباب وعاد يجلس إلى جانبه . قال :
— قل لي المزيد عن الأب آرسنيوس . لا تخف أن تؤلمني قل لي كل شيء .

وأجاب الشاب في قسوة :

— إذا كنت تتألم إلى هذه الدرجة من أجل نفس واحدة ، فلماذا لا تتألم بهذه الدرجة أيضا من أجل النفوس الأخرى ؟ أنا أعتقد ... على كل حال ، لقد أنيت من أجل هذا .

وقال الأب ياناروس في عناد :

— لست سوى إنسان . وإذا لم أكن حيوانا . فلست مع ذلك ملاكا . وما دمت إنسانا لا أكثر ، فأنا أستطيع إذن أن أتألم من أجل نفس . نفس واحدة . المهم الآن ، ماذا حدث للأب آرسنيوس ؟ أريد أن أعرف ؟

— تزايد جنونه شيئا فشيئا . وبدا يخرج عاريا تماما تحت أشجار البرتقال ويتمرغ على الأرض ويصيح . وفي يوم من أيام الأحد دخل هكذا إلى الكنيسة . . . فطرحوه أرضا . وحضر أحد الرهبان برتل ليطرد الشيطان ، لكن الشيطان لم يخرج . فتزع الرهبان أحزمتهم وضربوه دون شفقة حتى أدموه . ومع ذلك لم يخرج الشيطان . فخبسوه

في غرفته ووضعوا له ماء وخبزا يتجددان كل صباح . لكنه لم يلمس شيئا . ولا بد أنه قد مات الآن .

وصاح الأب ياناروس :

— كفى ! كفى ! هل هذا هو سرك ؟

— لا . ليس هذا سرى يا أب ياناروس . لكنك سألتني فأجبتك

وقد سكنت أنا أيضا عدة شهور في غرفة مجاورة لغرفته . وكان يستشعر في نفسه كل هذه الشياطين السوداء ويتعجل الموت قبل أن يفتح الباب فتندفع خارجه . وأنا متأكد أنه كان يرفأ أذنه إلى كل دقة من دقات قلبه وهو ينحت صور الملائكة والقديسين على الخشب ، يتسمع خطوات عزرائيل ليحرره . وإذ ذاك كان يبتسم في سعادة . وسألته يوما وكان وجهه كله مشرقاً : « لماذا تبتسم دائماً يا أب آرسنيوس ؟ »

وأجابني : « ولماذا لا أبتسم يا أخ نيكوديم ؟ لماذا لا أبتسم

وأنا أسمع في كل ساعة وفي كل لحظة خطوات الموت تقرب ؟ »

وأضاء وجه الراهب الشاب في جمود . وكان صوته هادئاً لكنه

مفعم بالانفعال المكتوم وعيناه تشتعلان . ونظر إليه الأب ياناروس في

قلق . فلم يكن يحب هذا الوجه الجامد ولا هذا الصوت . كان يرى في

هذه النفس نارا ملتهبة تشتعل ولا تنطفئ .

ولمس الشاب كتف الأب ياناروس لمسة خفيفة :

— اسمع الكلمات الأخيرة التي قالها الأب آرسنيوس قبل أن

تغلبه الشياطين :

« سوف تموت قريباً يا أخ نيكوديم . فابحث عن الأب ياناروس

الذي حدثتك عنه كثيراً . ابحث عنه وقل له سرك . فهو يستطيع

أن يحمله ، أما أنت فأضعف من ذلك . وقل له أيضاً أنى لازت أعيش

ولا زلت أ كافح : أ كافح الله في الأعلى والشياطين في الأسافل . هذان هما شقا الرحا اللذان يطحناني . قل له هذا . »

وعندما اقتربت منه وضع يديه على رأسي يباركني وكأنه يودعني . وقد فهمت بعد ذلك أنه كان يودعني فعلا .

وصمت لحظة ونظر إلى الغرفة الصغيرة وابتسم وهو يقول :

-- وما قد حضرت . . أنا حضرت لأنقذك . . من أجل هذا

أرسلني الأب آرسنيوس .

وابتسم الأب ياناروس في مرارة :

— تنقذ جسدي أم تنقذ روحي ؟

— هذا وذاك . فأنت تعرف يا أب ياناروس أنه على قدر ما نعيش

يظل هذان الوحشان مجتمعين لا ينفصلان .

وقال العجوز في عناد :

— أما أنا فأفصل بينهما !

— ولهذا السبب تتردد ، ولا تدري أين تذهب . لا تقطب جبينك

يا أب ياناروس . فقد سمعت الكثير عنك أنت شريف وفقير . وأنت

فظ ، لكنك طيب . وأنت مكافح قديم تعطف على الشعب . ومع ذلك

لم تتخذ قرارك بعد . فأنت متردد .

وأجاب الأب ياناروس :

— إن أساس وجودي هو بالدقة أن أتردد . ومن يدري ، ربما

يكون الله قد كلفني بهذه الرسالة فلن أتردد عنها .

ورد الراهب الشاب :

— ما أتعس النفس التي تموت دون أن تنطق بحسم كلمة نعم أو لا !

قد يكون من الممكن في بعض الأحيان أن تتسكع بعيداً ولا تدخل حلبة

الرقص . لكننا نعيش عصر رهيباً يا أب ياناروس . ألم تدرك ذلك ؟
هذا عصر رهيب ، ومن العار أن تعقد فيه ساعدك .
وتعب من الكلام فشرب جرعة ماء واستند على الوسادة وصمت .
وملاً الأب ياناروس كوب نبيذ وأحضر قطعتين من البقسماط
وجدها عنده ، وقال :

— لا بد أنك جائع ، اغمس البقسماط في النبيذ ليريح جسمك . فأنت
يا ابني تحتاج إلى قواك إذا كنت تريد أن تتكلم .
وعاد ينظر إلى الشاب في عطف . كان شديد الشحوب . وغمس
الاب ياناروس بيده البقسماط في النبيذ . وكما تفعل الأم الرؤوم أطعمه
إياه ، كأنما يناوله ، وكأن هذا الحبز وهذا النبيذ هما جسد الله ودمه حقاً ،
يتحولان في جسد الإنسان إلى قوة . وعاد إلى خدي الشاب لون خفيف ،
فقال :

— شكراً يا أبى . الآن ارتحمت . فهل لديك القوة أنت يا أب
ياناروس لتسمعي ؟ لا تنس أنك أيضاً جريح ، بل وجرحك أشد
خطورة من جرحي .

— أنا لا أنسى هذا . لكن عندي القوة لأسمع أى شيء تقول . فتكلم .
— ألا تسألني من أنا ؟ سأتكلم باختصار لأنني متعجل . كنت شماساً
شديد الحماس في أسقفية ، وكنت سأصبح أسقفاً . لكنني رأيت . انفتحت
روحي ففهمت . فرسالة المسيح قد هانت ، وانمحت آثاره المقدسة من
الأرض . فنحن لا نتبع إلا آثار المنافقين ذوى اللحى . الآثار التي تركتها
في الوحل حوافر الشيطان . لقد قلبوا كلمات المسيح فجعلوها : « طوبى
للقساة بالروح لأن لهم ملكوت الأرض . طوبى للمتكبرين لأنهم يرثون
الأرض . طوبى للجياع والعطاش إلى الظلم . طوبى لمن لا يرحمون .

طوبى لمن لهم قلب دنس . طوبى لصانعى الحرب . « هؤلاء هم الذين
يسمونهم اليوم مسيحيين .

وصاح الاب ياناروس :

— أعرف ، أعرف ... أعرف هذا كله ، فاستمر .

— هكذا اذن نفضت عن نعلى تراب الاسقفية ، واعتزلت على الجبل
المقدس . ولكن حتى فى هذه العزلة التى تحتاج إلى التقديس ، وجدت
كل أهواء الدنيا ، بل أشد شراسة واشد دناءة . نتيجة عجزها عن الظهور
والخروج بسهولة . فالبشر كما تعلم ثلاثة : الرجال والنساء والرهبان . وفى
أحشاء الراهب تشتعل كل الأهواء سرأ ودون أمل . أنت تعرف يا أب
ياناروس أنه ما أشقى هؤلاء الذين يعيشون فى العزلة ويذكرون الدنيا !
لهذا اذن أغلقت على نفسى غرفى لكى أقرأ فى الحفاء المؤلفات الدنيوية
التي كنت قد أحضرتها معى .

— كتب ! اذن فأنت أيضاً سحبت وراءك فى العزلة كل شياطين

الدنيا !

— أنت على حق يا أب ياناروس ، وهذا ما فهمته متأخراً . وفى الحقيقة
أنا لم أذهب إلى الدير لأتشف ، لكن لكى أستجمع روحى التى تبددت ،
وأجد نقطة ارتكاز أستطيع أن أقفز منها . فأنا لا أستطيع أن أعيش
دون يقين .

وتهد الأب ياناروس قائلاً :

— ولا أنا أيضاً ، ولا أنا أيضاً . ولهذا السبب اتألم كثيراً .

لكن الشاب لم يسمع شيئاً . فقد استدارت عيناه وأذناه إلى الداخل
فلم يمد يرى ولا يسمع إلا نفسه . وأسرع فى كلامه لأن الجرح عاد يؤلمه

فلم يعرف ما إذا كان سيجد الوقت لاتمام اعترافه . قال مرة أخرى :
— أنا لا أستطيع أن أعيش دون يقين . ولم أعد أثق في كهنة
المسيح . ومن ناحية أخرى كانت آلام المقهورين تملأ قلبي بالاستنكار .
فأين يكون مكاني ؟ هل إلى جانب المسيح الذي يمتنه الاساقفة ، أم إلى
جانب هؤلاء الذين يريدون أن يرفعوا صرح عالم جديد ، عالم عادل ، عالم
بلا مسيح ؟ ذهبت إلى الكنيسة وصمت واصلت وصرخت نحو الله ،
لكن عبثاً . لم يكن الله يجيبني . ومع الزمن فهمت . لم يعد طريقى فى
الصلاة وفى العزلة . كان هذا هو الطريق فى الماضى : يصعد من الأرض
نحو السماء . لكنه لم يعد اليوم صحيحاً : فهو يبعدنا عن الأرض ولا
يقربنا من السماء ، فنبتى فى منتصف الطريق فى الفضاء . وقلت لى
لا بد لى من طريق جديد . ولكنى لم أصل اليه . وترددت أنا أيضاً
مثلك أيها الأب المبجل ، وشعرت باليأس مثلك .

ورد عليه الأب ياناروس وقد بدأ يشور :

— أنا لست يائساً . أنا يا صديقى أعرف مكاني ، وهو المسيح ، ولا
يهمنى ما يفعل الاساقفة . ألا يكفى المسيح لشخصك المبجل ؟
ولس الفتى رغبة الشيخ وقال له فى توسل :

— لا تغضب يا أبى . المسيح لا يكفينى بالحالة التى جعلوه عليها ،
بملابس الذهب والقصور التى يقيمون فيها الحفلات فى المساء مع سادة هذه
الدنيا . أنا أتحرق شوقاً إلى مسيح فقير حافى القدمين جائع مقهور ، شبيه
بهذا الذى لقيه الحواريون على طريق قرية عمواس . مسيح عمواس :
هذا هو الذى بحثت عنه فلم أجده . ولهذا السبب كنت أتألم . هل فهمت
يا أب ياناروس ؟

وأخذ الأب ياناروس إذ ذاك يشرب بعينه هذا الوجه الشاحب .

وشعر بقلبه يدق في استسلام . وسأل نفسه : « من هو إذن هذا الضيف
الذى أتى على غير انتظار ؟ من أرسله لى ؟ الله أم الشيطان ؟ لا أستطيع
أن أحدد . »

وبدا عليه أنه مصدوم . فما أكثر ما كابد في أعماقه من قبل هذا
الذى يقول الشاب ، حتى تمزق قلبه !
قال :

— ربما تعتقد أنى من كبر السن بحيث لا أفهم ؟ فلعلم أنى اعرف
أيضاً كل آلام الشباب رغم أنى فى السبعين من عمري . استمر ! هل
وجدت إذن هذا المسيح الذى تبحث عنه ؟ وكيف وجدته ؟ هل هذا
هو سرى ؟

وأجاب الفتى وهو يبتسم :

— الآن أنت الذى تتعجل يا أبى ، أما أنا . . .

ولم يتم كلامه ، فقد شعر بالعطش . وأعطاه الأب ياناروس كوب
ماء فأستأنف الحديث :

— دخلت الدير إذن محملاً بهذه الكتب السعيدة . وكان الآباء
يسألونى : « لماذا ترك مصباحك مشتعلاً طول الليل ؟ — أنا أصلى —
ألا تستطيع ان تصلى فى الظلام ؟ وأقول لهم : أشعر بالخوف ، فلا أكاد
أطفىء النور حتى تظهر الشياطين . » ، وكنت أرى الأب آرسنيوس من
حين لآخر وأبادل معه كلمتين . كان يكلمنى عن الحشيش الذى ينتجته
ويقول إنه ليس خشباً لكنه روحه . وكنت أنا أكله عن المسيح حافى
القدمين . ونجاة فى إحدى الليالى — ليلة مباركة — فى هذه الليلة . . .

وقال الأب ياناروس وأنفاسه معلقة بشفتى الشاب :

— رأيت نور الحقيقة ؟

— وكيف عرفت ذلك يا أبى ؟

— أراه في عينيك يا ابني ، ثم ماذا ؟

— رأيت نور الحقيقة . فخرجت من غرفتي . كان ذلك في أعياد القيامة . والرهبان على المواثد يأكلون اللحم ويشربون النبيذ . فخطمت طبقى وقلبت نبيذى وصحت : « قفوا ! أنتم جالسون هنا سواعدكم معقودة والعالم يجرى نحو الضياع ! قال الرب : ليس بخورا أريد ولا صلوات ولا لجمآ ! فافتحوا مخازنكم ووزعوا الخبز على الفقراء ! وانتشروا في الأرض لتعلنوا كلمة المسيح : المحبة والعدالة والسلام ! » .
— ثم ماذا ؟

— أمسك بي راهبان قويان ، هما بنيدكتوس وآفاكوم ، وحملانى بين أيديهما وحبسانى فى غرفة . وفى اليوم التالى وضمونى فى مركب وطرودنى من الجبل المقدس .

وشد الأب ياناروس على يد الشاب قائلا :

— تقبل بركاتى . أنت سعيد أنهم لم يصلبوك . ثم ماذا ؟

— أرجو ألا تخاف يا أب ياناروس . . .

— أنا لا أخاف حين يهبط المسيح من الأيقونة ليكلمنى ، فلماذا

أخاف الآن إذن ؟ ثم ماذا بعد ذلك ؟

— بعد ذلك لجأت إلى الجبل .

وصاح الأب ياناروس وهو يتراجع على المقعد وقد أصابه الدهول :

— مع الأنصار ! شيوخى !

وقال الشاب فى مرارة :

— ها أنت تخاف . نعم . رأيت نور الحقيقة فالتجأت إلى الجبل

والتحقت بالانصار . وصاح الأب ياناروس :

— لكنهم لا يؤمنون بالله ! لقد خلعوا الله عن عرشه وزعموا أنهم

يتربعون مكانه . وبدون الله لا يخلق العالم ولا يحكم . . وأنت ذهبت معهم !
هل هذا هو السر الكبير الذي جئت تكشفه لي ؟ خير لي إذن أن أتردد .

وأمسك الراهب بيد الأب ياناروس وقبلها قائلاً :

— لا تنفعل يا أبى . صحيح أنني ذهبت مع الانصار وأنا أعرف أنه
بدون الله يفقد العالم أساسه . لكن العالم بدون عدالة لا يمكن حكمه .
أعزني انتباهك لأقول لك السر الكبير . لقد أنقذني وسوف ينقذك
أيضاً ، وربما ينقذ كثيرين غيرك . بل من يدري ربما ينقذ أيضاً المثل
الأعلى الذي يقاوم الأنصار ويموتون من أجله . هدىء روعك يا أب
ياناروس واصبر واسمعي .

وقال الأب ياناروس ، وكان لا يزال يشعر بأنفاس الراهب التي
لفحت يده كأنها نار حارقة :

— حسناً ، حسناً ، أنا أسمعك .

واشتعل وجه الشاب وصار صوته عميقاً مؤثراً كأنما يخرج من
أحشائه . فقد جاءت اللحظة الحرجة ، أصعب لحظة في الاعتراف .

قال في رقة :

— أنت تذكر يا أبى أن المسيح قبل أن يصعد إلى السماء وعد
الحواريين وعداً كبيراً ليخفف من لوعتهم فقال : « سأرسل لكم معزياً .
وأما متى جاء ذلك — روح الحق — فهو يرشدكم إلى جميع الحق . » (١)

(١) يشير كازنزاكي في هذا النص إلى إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٦ ، آية ١٣ .
لكن الجملة الأولى وهي « سأرسل لكم معزياً » غير موجودة في هذا المكان في
التراجم العربية والانجليزية والفرنسية من الانجيل ، وإن كان النص يتضمن معناها .
وفي إصحاح ١٤ ، آية ١٦ و ٢٦ نجد ما يلي :

« أنا أطاب من الأب فيعطيتكم معزياً آخر . ، ، و أما المعزى روح القدس
الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم . »
والمعزى كلمة غير دقيقة في الترجمة العربية للعهد الجديد ، ومعناها : الذي يحمل
الهم والضيق عن الناس ، أى مفرج الكرب . (المترجم)

وتوقف الراهب ليسترد أنفاسه . وانحنى ينظر إلى الأب ياناروس
في عينيه وسأله مرة أخرى :

— هل تذكر ذلك ؟

فأجاب الأب ياناروس في عصبية :

— ومن ذا الذى لا يذكر ؟ ما الذى تريد أن تصل إليه ؟
وامتلاً صوت الراهب إذ ذاك برنين الخوف والرقّة ، وانحنى على أذن
الأب ياناروس يقول :

— اسمع إذن يا أب ياناروس . هذا هو السر الكبير أنقله لك ..

وارتعد الأب ياناروس وشعر بالخوف .

— لقد وصل المعزى .

وتراجع الأب ياناروس كأنما رأى أسداً ينتصب أمامه فجأة ، وصاح :

— وصل ؟ وصل إلى الأرض ؟

— وصل إلى الأرض فى جسم إنسان وباسم إنسان .

— وما اسمه ؟

والتصق الراهب بالأب ياناروس حتى كادت شفتاه تلمس أذنيه وهمس :

— لينين .

وأمسك الأب ياناروس صدغيه بكلتا يديه ، وضغط عليهما بشدة

كأنما يمنعهما من الانفجار . وأخيراً سأل وهو يرفع يديه عن وجهه

فى ببطء :

— لينين ؟ لينين ؟

ونظر إلى الراهب فى رعب شديد . وكان هذا قد قام فجأة وانحنى

بقامته فوقه مبتسماً يردد فى هدوء :

— لينين .

وفتح الأب ياناروس فمه ليجيب . لكن الراهب مد يديه نحوه
في توصل :

— لا تتعجل الرد يا أبى . اسمعنى أولاً . فالنور قد أذهلنى مثلك
تماماً أيها الأب المبجل . وأنت تعرف أنه هكذا النور دائماً : ربح يصيب
قلب الإنسان . وقد أصابنى وجرحنى . وتمردت . حاولت أن أدافع عن
الحقائق التى كنت أومن بها حتى ذلك الوقت . لكن النور صعد شيئاً
فشيئاً فى روحى ، ففهمت ..

ولم يدعه الأب ياناروس يستمر ، فصاح وأنفه ينتفخ غضباً :

— لينين هو المعزى ؟ هو الذى الذى سينقذنا ؟ هو ؟

— هو أيها العجوز . لا تصرخ . أنا أرى النور يصيبك أنت أيضاً
كالرمح . اسمعنى . سأكلك بهدوء وبوضوح ، وأنت ستفهم . لقد عشت
بين الأساقفة والرهبان ، فكنت وحيداً . وعشت بين الأنصار ، فجرى
لى نفس ما جرى لى هناك ..

وسأل الأب ياناروس فى سخرية :

— وهل وجدت المعزى عند الأنصار ؟

وأجاب الراهب فى هدوء :

— وجدت المعزى عند الأنصار ، لكنهم لا يعرفون من الذى

أرساله . ويسمونه لينين ، لكنهم لا يعرفون رسالته . وهم يؤمنون بأنه
أتى يخلق عالماً جديداً ، عالماً أفضل . لكنه لم يأت ليخلق ، بل أتى
ليدمر ، ليدمر هذا العالم الفاسد ، من أجل أن يفتح الطريق لهذا الذى
يجب أن يعود ..

— مَنْ ؟

— المسيح . لأنه سيعود يا أب ياناروس . سيعود ويقف على رأس

الأنصار . ولن يصلب مرة أخرى . ولن يبرح الأرض مرة أخرى
ويتركنا يتامى مستسلمين للظلم . فالسما والارض متصبعان شيئاً واحداً .
— وهذا أيضاً ما أريد . وهو أيضاً ما كنت أطلب طوال حياتي :
أن تصبح السماء والأرض شيئاً واحداً . لكنني لا أعرف الطريق ،
ولهذا أتعذب .

— ولهذا جئت يا أبى لأرشدك إلى الطريق . اغفر لى أن أكون
شاباً فى هذه السن وأصبح مرشداً لك . لكن لست أنا الذى يرشدك ،
بل هو الشباب . الشباب يدخل غرفتك هذه الليلة ويناديك : تعال معنا !
وخفض الأب ياناروس رأسه وهو يتعغم . كان يغلى ، لكنه لم يتكلم .
وانحنى عليه الشاب ، حتى شعر بلفح أنفاسه الحارقة فى رقبتة وأذنه .
وقال الراهب بصوت هادىء ناعم :

— تعال معنا . نحن لا نزال قلة صغيرة . فهكذا تكون الحجرة :
حفنة ، لكنها تكفى لترفع العجين كله فيصلح خبزاً .
ورفع الأب ياناروس رأسه وقال :
— هل أعلنت ذلك على الأنصار ؟

— فى أول الأمر لم أتكلم . كنت أشعر بالخجل ، وأخاف من كشف
سرى للجميع . كنت أعيش معهم وأقاتل معهم وأقتل أيضاً ، لأساهم على
قدر طاقتى فى تدمير هذا العالم الفاسد وإعداد الطريق أمام الرب .
لم أكن أتكلم إذن ، بل حفظت فى نفسى هذا السر الذى كان يمزق
أحشائى . ولكن فى صباح يوم ما ارتفع من أعماق صوت يصيح :
« هؤلاء الناس يمتلئون بالكراهية . وهم يقتلون ويموتون ويأملون ،
دون أن يعرفوا لماذا . أما أنت فتعرف . فانهمس وكلهم . » ، ونهضت
واعتليت صخرة . والتفت حولى حوالى خمسين فتى ملتحين ومدججين

بالسلاح تغطى صدورهم شرائط الرصاص . ورسمت علامة الصليب ،
فانفجروا ضاحكين . وشدت قلبي وبدأت أنكلم لأفتح عيونهم . فلم أكد
أقول كلمتين حتى انفجرت عاصفة من الضحك والصفير والشتائم :
« الدين ؟ إنه مستنقع ، إنه أفيون الشعب ! - يا خائن ! يا مرتزق ! -
اخرج ! اخرج ! » ، وضربوني ضرباً مبرحاً . وهربت ، وذهبت إلى
جبل آخر . وحدث نفس الشيء : الشتائم والضرب والتهديد بالموت .
لكن الله ساعدني وهربت . ومع ذلك ، فهذا المساء ..

كان العرق يسيل من جهة الأب ياناروس . ونهض يسند رأسه على
حديد النافذة لينتمش . كان الليل عميقاً يفيض بالأصوات الغامضة ،
صوت طائر ليلى يضرب جناحيه برفق . أو عواء كلب برى سعيداً كل
حتى شبع . ورفع الأب ياناروس عينيه ورأى شريطاً من السماء تظهر
فيه ثلاثة نجوم كبيرة . وكان القمر مرتفعاً فشجب ضوء النجوم الصغيرة .

وسأل :

— هه ، حسناً ؟

وخبا ضوء المصباح . لم يكن فيه ما يكفي من الزيت ، فبدا الفتيل
يحترق شيئاً فشيئاً . وأظلمت الغرفة . لم يعد المصباح الصغير يضيء إلا
القديس قسطنطين ويلقي ضوءاً ضعيفاً على قدميه اللتين ترقصان ومن
تحتهما الجمر الملتهب . ونظر الأب ياناروس إليه فتثبت قلبه وانزاح عن
صدره ثقل . وضحك قائلاً وهو يشير إلى الأيقونة :

— أنت أيضاً من إخوان الانستنار يا أخ نيكوديم . نحن جميعاً مثل
أبو جلامبو فوق الجمر نرسل الصغير : نفنى أو نصرخ لا أعلم . أنت تسمى
هذا نوراً ، وأنا أسميه جمرأ . لكنه نفس الشيء .

وقطب الراهب الشاب جبينه . كان ينتظر جواباً ، اكن خيل إليه
أن الأب ياناروس يسخر منه . فقال له :

— لست رجلاً طيباً ، لست رجلاً طيباً ، يجب أن تشفق على الناس .
وغضب هذا وقال :

— وهل تعتقد إذن أيها الشاب أن الخير الأمل هو الطيبة ؟
— نعم ، الطيبة .

— لا ، بل الحرية . أو بعبارة أدق الصراع من أجل الحرية .
— أليست المحبة ؟

وتردد الأب ياناروس ثم قال أخيراً :

— لا . الصراع من أجل الحرية .

— إذن لماذا تبشر دائماً بكلمة : المحبة ! المحبة !

— الحب بداية لا نهاية . أنا أصبح : المحبة ! المحبة ! لأنه يجب أن

نهب الناس ليبدأوا الحركة . ولكن عندما أتكلم وحدى أو مع الله ،
لا أقول المحبة ، بل الصراع من أجل الحرية .

— هل تريد أن تتحرر حق من المحبة ؟

وتردد الأب ياناروس مرة أخرى وصعد الدم إلى صدغيه ، فصاح :

— لا تسألني !

لكنه شعر بالحجل لأنه لم يرد ، فقال في رقة :

— وحق من المحبة .

وانتفض الراهب مذعوراً :

— إذن ما هو الهدف الذي ترتبط به الحرية ؟

وأجاب الأب ياناروس بصوت مرتعش :

— الحرية لا هدف لها ، ونحن لا نجدها على الأرض . لن نجد على

الأرض إلا الصراع من أجل الحرية . نحن نصارع من أجل شيء لا يمكن بلوغه . ولهذا السبب لم يعد الإنسان حيواناً . لكن كفى ! فالمعزى لينين ، والمسيح حافي القدمين ، والمسيح على رأس الأنصار ، كل هذا يختلط في رأسي فتضل روحي .

— وقلبك ؟

— اترك القلب — هذا الطائش الجموح — لا تدخله في أسئلتك الصعبة . إنه يسير دائماً على عكس الروح . ولكي نسير خلفه ، لابد لنا من أقدام راسخة . وهذا شيء لا يتوفر لي .

وسكت لحظة ثم أضاف :

— سأحكي كل هذا إلى الله . وسنرى ماذا يقول .

وأجاب الراهب :

— أما أنا فقد سألته من قبل ، فوافق .

— إن الله يزن كل نفس على حدة ، ويعطي كل واحدة منها الجواب الذي ينقذها . فلننتظر ماذا سيكون جوابه لي أنا الأب ياناروس . فإذا وجدت أنا أيضاً طريقاً فاقسم أن أتبعه حتى النهاية .

وسأل الراهب بنبرة جارحة :

— حتى الحرية ؟

وقال الأب ياناروس وهو يشعر بالمرق يغطي جبينه مرة أخرى :

— حتى الحرية ، أعني حتى الموت .

وامتدار الراهب نحو الباب قائلاً :

— سأرحل .

ونظر إليه الأب ياناروس . كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان تلمعان في الضوء المظلم . وكان يمسك جرحه بيده ويبدو عليه الألم . وشعر الأب

ياناروس مرة أخرى بالحنان والمطف والتقدير نحو هذا الشاب الذي يشبه إخوان الانستينار . وقال في نفسه : « هذا هو ، هذا الذي كان يجب أن يصبح ابني ، وليس الآخر . »
وسأله :

— أين تذهب ؟

— لا أدري . حيثما يقودني الطريق .

— هم يطردونك من الأديرة ، ويطردونك من الجبال ، ويضطهدونك في السهول .. فأين تذهب إذن ؟

— عندي يا أبي قلعة منيعة . وفيها أسكن .

— أي قلعة ؟

— المسيح .

واحمر وجه الأب ياناروس لأنه سأل عن القلعة كأنما نسي المسيح .
وأضاف الراهب ضاحكا :

— هل يجب إذن أن أخاف ؟

— فأجاب الأب ياناروس :

— لا .

وانحنى الشاب فقبل يده ، وفتح الباب واختفى في الظلام .

ووقف الأب على عتبة الباب فرآه يذوب في الظلام . لم يفكر في

شيء . ظل فقط يستنشق هواء الليل في عمق . لم تكن به رغبة في النوم .

كان اليوم الأربعاء المقدس . وليس في هذه الليلة قداس ، فهو إذن غير

مشغول . وأرهف أذنيه يسمع خطوات الراهب على الحصى تقباعد .

وفجأة شعر كأنه تلقى خنجراً في صميم قلبه . وأراد أن يصيح :

« ابعده عنى يا شيطان » ، لكن فمه كان جافاً . فقد احتال على روحه شك حائر :

هذا الرجل ، هذا الراهب ، ألا يكون هو الغواية نفسها ؟
فالأب ياناروس يعرف أن الشيطان يتخذ آلاف الصور المختلفة ليخدع الناس . فى الماضى كان يراه على جبل آتوس يتسكع حول الأديرة فى شكل غلام ممتلىء الحديد . وها هنا فى كاستلوش يراه فى ملامح امرأة جميلة تمشى إلى العين وعلى كتفها جرة ماء .. فقد مضى العصر الذى كان الشيطان يظهر فيه بوجهه الحقيقى : بقرنيه وشعره الكث والاهب يحيط به . تقدمت وسائله هو أيضاً . وفى هذا المساء بالذات دخل غرفته فى صورة راهب مخلص يسكن الله روحه وعلى صدره صليب من حديد .

وبدأ يسترجع كلماته فى غضب وحيرة : لينين هو المعزى . عند ما بدأ الظلم يفيض من العالم أرسله الله ليعد الطريق . كيف ؟ بتدمير العالم . بذلك يشق الطريق أمام مسيح الغد .

وصاح الأب ياناروس فى الظلام :

— لا ، لا . لا أستطيع أن أقبل هذا . الشيطان يستخدم كل براعته فى خلط الحقيقة بالكذب لكي يتمكن من خداعنا . صحيح أن العالم ملئ بالظلم . وصحيح أنه خرج من يد الله وسقط فى يد الشيطان . وصحيح أنه لا بد من القضاء عليه .. لكن من الذى يدمره ؟

وسالت مرة أخرى حبات العرق على تجاعيد جبهته ، فتهند قائلاً :

— لن أصل . لن أصل إلى التمييز بين الصواب والخطأ . فقد شاخ رأسى وشاخ جسمى . ولم أعد أحتمل . لأدع إذن مهمة التفكير العميق فى آلام العالم لمن هم أكثر شباباً منى .

وظهرت أمامه فى الفضاء صورة جانبية لجبل آتوس . كأنه أيقونة قديمة ، تظهر السماء فى أعلاها بلون الذهب لا باللون الأزرق ، وفى

أسفلها يمتد حقل أخضر تنتثر فيه نجوم من زهور الأخوان الصغيرة ،
ويرتفع في وسطه دير أبيض له أربعة أبراج تعلوها بيارق تخفق في الهواء :
في الأول صورة ملاك ، وفي الثاني نسر ، وفي الثالث ثور أبيض ، وفي
الرابع أسد . وفي فناء الدير تظهر شجرة مزهرة ، وتحت الشجرة ذات
الأزهار راهب رأسه مرفوع وجفناه مغمضان وأذنه ممدودة . فكل فرع
من الفروع المزهرة يحمل عصفوراً أبيض ذا طوق أحمر . وكلاهما تفتح
منقارها وتغرد . ومن منقارها يخرج شريط لازوردي يحمل الكلمة التي
تغنيها : « العزلة . العزلة . العزلة . العزلة . » ولا كلمة أخرى .
وتنهّد الأب ياناروس وعقد يديه وقال هو أيضاً هامساً دون أن
يشعر : العزلة ، العزلة ، العزلة .

« يا للجمال ! يا للصفاء ! يا للرضا الكامل ! فالله يأتي ، وأنت
تراه ، ويجلس إلى جانبك كما يفعل الأب الذي يغيب فترة طويلة ثم يعود
إلى بلاده آخر الأمر ، ويداد تملئان بالهدايا . »
وأغمض الأب ياناروس عينيه ليحتفظ برؤياه .

« الهدوء ! والحلاوة ! هكذا يجب أن يكون الله ، وهكذا يجب
أن تكون الحياة . لماذا نتساءل ؟ ولماذا نكافح ؟ أليس الله فوق
رؤوسنا ؟ ألا يمسك دفة العالم ؟ هو يعرف الطريق ويعرف إلى أين نذهب .
أما أنت أيها الإنسان فلست شريك الله ، لكنك خادمه : فاتبعه إذن . »
ولم يكذب انتهى إلى هذه النتيجة حتى هز رأسه ساخرآ ثم صاح وهو يبصق :
« ارجع عني يا شيطان ! إن مركزي هنا في كاستلاوس . ها هنا
أقاتل كإنسان بين الناس . فقد انتهى الزمن الذي يجد فيه الإنسان خلاصه
في الصحراء . واليوم أصبحت الدنيا هي الدير الذي نلجأ إليه . الشجاعة
يا أب ياناروس ! فالله مكافح . والإنسان كذلك . إذن قاتل إلى جانبه . »



طلع الفجر يوم الخميس الكبير . اليوم ذهب المسيح من بيت عنيا إلى قيافا رئيس الكهنة ، مهاناً مضروباً بالسياط وعلى رأسه إكليل من شوك . وإذ ذاك دق الحدادون مسامير الصليب ، وانحنى الملائكة على حافة السماء يرقبون استشهاد البار ، وكبير الملائكة جبريل كان قد نزل من السماء يحي العذراء ذات الولد ، فلم يلبث أن طوى جناحيه وامتلات عيناه بالدموع .

جلس الأب ياناروس على المقعد الحجري على باب الكنيسة . طوال الليل لم تغمض عيناه وظل قلبه حزيناً مهموماً . كان يشعر بالحجل من قلبه الذي تلوث ، حتى خيل إليه أنه أصبح مدنساً تماماً . لهذا لم يجرؤ على الاقتراب من الهيكل ليقدم تقريره أمام تمثال المسيح كما يفعل كل يوم . وفي ساحة الكنيسة ارتفعت أعواد هزيلة من الأقحوان بين المقابر التي تحللت بداخلها جثث قساوسة القرية السابقين . وحاول الأب ياناروس أن يستنشق بأنفه المرتعشة رائحة الوتى . ونظر إلى قبره هو . كان لا يزال

خالياً . وفي ضوء الشمس استطاع أن يقرأ الحروف الحمراء الكبيرة التي
نحتها فوقه : « أيها الموت أنا لا أخافك . » ، لكن قلبه لم يشعر هذه
المرّة بالفخر ولا بالراحة . فقد تحول إلى قطعة من اللحم تمتلئ بالدم
لا بالراحة الإلهية . قطعة من اللحم تتألم وتصرخ . وقال هامساً :

— يا إلهي ، اغفر لقلبي الذي يصرخ . فهو لا يعرف ماذا يريد .
لكن كيف تريد له أن يعرف ؟ إنه شقي يمشي في عماء . وفي هذا العماء
يفقد صوابه .

وفي هذه اللحظة ظهرت أمام قرص الشمس فراشة حطت على إحدى
زهور الأقحوان . كانت تتشمم هي أيضاً رفات الموتى . وبدأت تطير
حول شارب الأب ياناروس ، فكتم أنفاسه كي لا يزعجها . كان واضحاً
أنها حديثة الولادة تحلق لأول مرة تحت الشمس ، أطراف جناحها لا تزال
ملتوية . ولونها أبيض تتخلله نقط صفراء . وشعر الأب ياناروس بمشاعر
رقيقة حلوة تتسلل إلى صدره ، فانقشع ألمه فجأة . هذا الانستتاري اللفظ
يجب الفراش أكثر من أي شيء آخر ويستمد منه الشجاعة . سألوه يوماً
عن سبب ذلك فأجاب : « لأن الفراش يدخل الأرض دوداً ، ويخرج
منها في الربيع فراشاً . فما هو الربيع ؟ الربيع هو الدينونة الأخيرة . »
وتحرك الأب ياناروس ، فدعرت الفراشة وطارت . وشعر العجوز
بالندم حين تركه الجناحان الصغيران وحيداً على مقعده تحت الشمس .
لكن هذه الالتفاتة الصغيرة بددت الكابوس الذي أناخ على صدره طول
الليل . فقرر أن يدخل الكنيسة ليعد زينة الصليب . كانوا قد أحضروا
له من براستوفا بعض الزهور البرية ليزين بها الصليب والمذبح ، ففتح
الباب ليلقي نظرة عليها . وأضاء النور شمال المسيح على يمين الهيكل .
فاستطاع أن يميز الوجه الجليل واللامية الشقراء واليدين تحملان الكرة

الأرضية بأصابع نحيلة . وأغلق الباب مرة أخرى بسرعة . وشعر بالحجل لأنه ظهر أمام المسيح بهذا الشكل ، فعاد يجلس على المقعد .

وسمع شخصاً يمشى في الطريق . وأحس بالسعادة لهذه التسمية الجديدة ، فأنحنى ينظر . رأى امرأة عجوزاً بدينة تسير حافية القدمين في أسمال ممزقة ، لها شارب واضح ، تحمل حزمة من الحشب ، وتنف خصلات شعرها الذي وخطه الشيب بشريط أحمر عريض كما تفعل الفتيات الصغيرات ، وخلفها يجري ولدان يقدفانها بالحجارة ويصيحان :

« أريد الليلة رجلاً ! أريد الليلة رجلاً ! »

وكانت العجوز المسكينة تنحنى على قطع الحشب التي تحتضنها ، وتحرق بعينها في الأرض لا تحركهما ولا تجيب .

وهز الأب ياناروس رأسه بقلب حزين :

— مسكينة بوليكسنى . إن عدم زواجها أفقدها الصواب وجعلها أضحوكة القرية . وهاهى الآن تضع على رأسها شريطاً أحمر كالمزوجات . كم هى مسكينة ...

كان الوقت بعد الظهر ، وأهل القرية يقضون القيلولة في بيوتهم ويمدون أنفسهم لقدس الليلة . السكون شامل لا يسمع فيه صوت إنسان ولا كلب ولا عصفور . لم يكن يسمع سوى طنين يشبه طنين النحل المحتشد يتردد خافتاً رتيباً من هذا البيت أو ذاك . فالزوجات والأمهات والأخوات اللاتي قتل رجالهن يوم الثلاثاء الكبير أول أمس ، كن لا يزالن يبكين القتلى بصوت مرهق ضعيف .

ومرة أخرى جثم الكابوس على صدر الأب ياناروس : كلمات الراهب تتردد داخل نفسه تماماً كما سمعها في الليلة السابقة . وكما فكر في هذه الكلمات ، ازداد يقينه بأن الشخص الذي أتى إليه في ثوب راهب

والصليب الحديدى على صدره لم يكن إنساناً . والأنين الذى سمعه والجرح الذى رآه وذلك الاختفاء الصامت فى قلب الليل ، كل هذا لا يصدر إلا عن الشيطان . المسيح الدجال هو وحده الذى كان يستطيع أن يقول مثل ذلك القول الخادع . ذلك أنه ما من شيء يتمناه الأب ياناروس أكثر من أن يتحول هذا العالم الحقير الظالم إلى تراب . ما من شيء يتمناه أكثر من ذلك فى أعماق أحشائه التى لا يراها أحد وبرغبة لا تقاربها رغبة . لكن بشرط أن يحدث على يدي المسيح .

وما أكثر ما أدار هذه الكلمات فى نفسه . فكانت تبدو له بعض الأحيان صادقة سليمة ، وأحياناً أخرى يستشعر فى داخله شيئاً ما يعترض قائلاً :

« لا ، لا . هذه اللغة الجديدة التى يتكلمها الأنصار لا يمكن أن تكون من عند الله . فلو كان المعزى على رأسهم حقاً لما تكلموا بهذه الطريقة عن الأمور المادية : ماذا نأكل ؟ كيف نتقاسم المنافع ؟ كيف نقتل الأعداء ؟ ثم لماذا لا يتكلمون أبداً عن السماء ؟ إن عيونهم لا تحمق إلا فى الأرض . يفكرون قبل كل شيء فى أن يملأوا البطن الكبيرة ، أن يملأوا كل بطون العالم ، ثم ينظرون بعد ذلك إلى أى شيء آخر . لا يهم سوى البطن ، لا القلب ولا الحياة الأبدية . فما أغرب هذا المعزى إذن ! »

وتنهى الأب ياناروس . كان من عادته أن يفرق فى التأمل حين يجد نفسه وحيداً بين القبور فى أرض الكنيسة . فى عقر هذه القرية الصغيرة كان يتحايل على استخدام ذلك المنح الضخم الذى وهبه الله إياه لكي يجد حلا لسر الحياة والموت . كان يسأل كل شيء يراه ويترقب الجواب .

واليوم ، تعذبه كلمات الراهب فيئن دون صوت وهو جالس على المقعد الحجري والعرق يسيل على جبهته . وأخذ يفكر هامساً :

— هل هذه هي الحقيقة ؟ هل هذه هي الحقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك فانهض يا أب ياناروس وتقدم ! احمل أشرطة الرصاص وتساق الجبل . اذهب إلى المعزى وحارب إلى جانبه !
لكن الصوت الآخر يرد صائحاً :

— لا ، لا . لا تتحمس هكذا بسهولة . إن البطن حين تمتلئ تطلب المزيد . فهل تستطيع النفس بعد ذلك أن تفلت من ملذات المعدة ؟ إن مسرات الدنيا لا تؤدي أبداً إلى السماء . والنعم مصيدة الشيطان . والفردوس على الأرض لن يكون إلا من صنع إبليس . كم من المرات أكرهها لك يا أب ياناروس ؟ إن الشيطان هو أمير السعداء المرتاحين الشبعانين . أما المسيح فهو أمير التعساء المتعبين الجوعى .
فاحذري يا أب ياناروس .

لكنه لا يكاد يدير رأسه سعيداً بالإفلات من مصيدة الغواية ، حتى يقفز إلى ذاكرته — ربما نتيجة غواية أخرى — حديث جرى منذ سنوات عديدة بينه وبين صياد عجوز على شاطئ البحر الذي كان قريباً من قريته . جرى ذلك في شهر أغسطس صبيحة يوم رائع يشبه يومه يومه هذا . كان البحر ينشر رائحته خلال النسيم ، وفراشتان تتلاحقان وتلهوان على حصى الشاطئ . لونهما أبيض به نقط صفراء . وسار الأب ياناروس على الرمال حافي القدمين قميصه مفتوح يفتن بصوت قوي نشيداً كان يحبه إذ ذاك كثيراً ، تقول كلماته : « لك أنت النصر ، يا عذراء يا سيدة الممارك . » ، وكان هذا النشيد يتردد في الزمن الماضي في احتفالات الانتصار التي تقام في الكنائس البيزنطية عند ما كانت العذراء

الحارسة قائدة القادة في الجيوش تطير لتساعد الامبراطورية وتنقذها من أيدي البرابرة .

كان الأب يانارس يعنى هذا النشيد عندما وصل إلى كهف يسكنه شقيقان يسميهما الناس « الشخص الواحد » لأنهما لا ينفصلان . أحدهما صياد سمك والثاني صانع فخار ، يعجن طين الفخار ثم يديره على عجلة الفخار ليعطيه الشكل الذي يريد . وكان الأب ياناروس متعباً فجلس يثرثر مع الشقيقين . كان الكبير لا يزال يعجن الطين ، والآخر يصلح شباكاً قبل أن يخرج إلى الصيد . وجلسوا يتكلمون عن البحر والحرب والفقراء ومحصول التين وكيف سيكون هذا العام . وفجأة التفت الصياد إلى الأب ياناروس قائلاً :

— يا أبى . أريد أن أسألك عن شيء ، فلا تؤاخذنى . هل تستطيع أن تخبرنى كيف قابل المسيح أول حواريه ؟

فأعاد الأب ياناروس عليه ما ورد في الكتاب المقدس . لكن الصياد المعجوز هز رأسه قائلاً وهو ينجنى على شبكته ويبتسم :

— أنا وحدى أعرف الجواب . لقد صنع المسيح معجزات عديدة ، وقال كلمات عظيمة ، لكن أحداً لا يعرفها . لا تصدق ما تقوله الكتب عن ذلك . سأقول أنا يا أبى كيف اصطاد المسيح تلميذه الأول . . ماذا كان اسمه إذ ذاك ؟

— أندراوس .

-- بالضبط ، أندراوس . تخيل عاصفة هوجاء ورمالا وأمواجاً ثائرة . والصيادون يقاومون العاصفة دون جدوى ، فيضطرون إلى الرجوع يائسين أيديهم فارغة . وفجأة يرون شيئاً خلف إحدى الصخور . ناراً تتراقص ظلالها متزايدة حيناً ومتناقصة حيناً آخر . ويشير إليها أحد

الصيادين قائلاً في جوع : « يبدو من شكلها أنهم يشوون عليها شيئاً .
فلنذهب لنرى . » ويجرى نحو النار المشتعلة على شاطئ البحر . .
وقاطعه الأب ياناروس مصححاً :

— هذا لم يكن بحراً ، بل كان بحيرة ، بحيرة طبرية .

فأجاب الصياد العجوز في غيظ :

— وما أهمية ذلك ؟ أنتم أيها المتعلمون تتوهون دائماً في التفاصيل .

على كل حال ، جرى الرجل نحو النار فرأى الحجر شبه منطقيء ورأى بقايا
سمك ، لكن صاحب النار كان قد اختفى . ونادى عليه كثيراً فلم
يظهر أحد .

وفي اليوم التالي اشتد هياج العاصفة . وعاد الصيادون مرة أخرى
يائسين شبا بهم فارغة . ومرة أخرى رأوا النار والظلال فوقها كأنما
هناك شيء يشوي عليها . وجرى الصياد نفسه نحو النار فوجد رجلاً يضع
فيها مشواة بها سبيخ يحمل صفاً من السمك . كان شاباً في الثلاثين من
عمره . لوحت الشمس وجهه كوجوه الصيادين . وسأله الصياد :

— هيه يا أخ ، ماذا تفعل هنا ؟

— أشوي السمك كما ترى .

— ومن أين حصلت عليه ؟

— اصطدته فترة المصير .

— وكيف استطعت أن تفعل والبحر بهذا الشكل ؟ نحن لم نأكل

منذ يومين اثنين .

— لأنكم لا تعرفون كيف تصيدون . أنا سأعلمكم .

وركع الصياد — واسمه أندراوس كما تقول — على قدمي ذلك الرجل

الغريب قائلاً :

« مولاى ، لن أترك بعد ذلك قط . »

وفى المساء حكى أندراوس لأخيه أنه تعرف على رجل يستطيع أن يصطاد السمك حتى فى الأوقات العسيرة . وكرر الأخ هذه القصة على أشخاص آخرين وآخرين . وبهذه الطريقة استطاع المسيح — وهو طبعاً ذلك الرجل — أن يعثر على حواريه الأوائل . بدأ يعلمهم كيف يصطادون السمك . ثم شيئاً فشيئاً ومن سمكة لأخرى ، جعل منهم حواريه دون أن يشعروا هم بذلك .

كان الأب ياناروس ينصت فاغراً فاه . وبينما الصياد يتكلم ، استرجع فى ذهنه صورة حامل الإنجيل الضخم المحفوظ فى الكنيسة ونقوشه المنمنمة الرائعة . كان منها رسم يمثل عيد أحد المنصرة : الروح القدس يهبط على الحواريين من أعلى الأعلى فى خط رأسى مستقيم كأنه طير جائع من طيور الماء ، ويشدهم من بطونهم بواسطة سنارات لها اثنا عشر خيطاً لونها أحمر ، ويحاول الحواريون أن يتخلصوا ، لكن السنارات تشتبك بأعماق بطونهم لا تفلت منها . قال الأب ياناروس لنفسه : يا للذكاء . إن كلمة الله تصيب البطن أولاً وتدخل أعماقها ، ثم تصعد بعد ذلك فى خفة لتستولى على القلب والروح .

ونظر الصياد العجوز إلى الأب ياناروس سعيداً بالمعجزة التى رواها ، وقال :

— بهذه الطريقة يا أبى يعمل الله ، رغم ما تظنه أنت . فأنتم يا أهل الثقافة تقولون أن الله فكرة أو شيئاً من نوع نادر لا أعرف ما هو ، أو إنه عجوز يجلس فوق السحاب . بل إن البعض يرسمون له الصور فوق السحاب وهذا كله غير صحيح . لكن تصور أن هناك عجلة فخار ، مثل هذه التى عند أخى ، ونحن من الطين . والعجلة تدور

أو تتوقف . وهو يتناولنا وينفخنا ويصنع منا ما يريد : بلايص وأباريق وزهريات وقذور طبيخ ومصاييح . من هذه الأشياء ما يوضع فيه الماء أو العسل أو الخمر ، ومنها ما يستخدم في المطبخ ، ومنها ما يستخدم في الإضاءة ... بهذه الطريقة يخرج البشر من بين يدي الله . وحين يتحطم بعضنا ، لا يكون في ذلك ما يثير الاهتمام . فهو يدير ويدير . ويصنع أوعية جديدة ، لكنه لا يستدير قط لينظر إلينا . فما جدوى ذلك ؟

وقال القسيس ليخرج الصياد :

— لكن لماذا هذا كله ؟ ولماذا صنعني ؟ وما دام قد صنعني فلماذا يحطمني ؟ أنا أرفض ذلك .

وأجاب المعجوز بضحكة جافة ساخرة :

— إيه ، لا بأس ! أرفض !

ثم أضاف :

— وهل يطلب أحد رأينا ؟

كان الأب ياناروس مغمضاً عينيه يسترجع صورة الشاطئ البعيد الغارق في النور وكلمات الصياد المعجوز تتوارد على ذهنه متميزة كلمة كلمة . ربما كان هذا المعجوز الأمي طي حق ؟ ربما يتجه الله أولاً إلى بطن الانسان فيتشبت بها ، ثم يرتفع بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى القلب والمخ والروح ؟ وربما كان الأنصار أيضاً طي حق في أنهم يرتكزون طي الأرض . الطعام أولاً ، وإشباع الجوع ، وتغذية الجذور المغروسة في الأرض ، ثم بعد ذلك تتفتح زهور الشجرة ...

ماذا يفعل روث البهائم حين يوضع في الأرض ؟ يتحول في الفاكهة إلى عسل وعطر ولب طازج . إذن ليكن مباركاً هذا الروث . ولتكن مباركة بطن الإنسان .

كان الأب ياناروس يتخبط هكذا بين المسيحيين والشيوخ وعيين
عندما حضر إليه منادى القرية كريا كوس . هناك شخص آخر يموت
خلف الأسلاك الشائكة ويطلب مناولته . ونهض الأب ياناروس . ومد
جسمه وأطرافه . ف شعر بالألم في ركبتيه وفي جنبه وفي كل مفاصله . وقال
لنفسه : « أنا أزداد شيخوخة . أنا أزداد شيخوخة ولم أصل بمد إلى
قرار . »

والتفت إلى المنادى قائلاً :

— متى يتوقف هذا يا صديقي المسكين كريا كوس ؟ متى ؟

فأجاب المنادى مرتاعاً :

— لا أدري يا أبى .

— متى يتوقفون عن صلب المسيح ؟

فهمز كريا كوس كتفيه قائلاً :

— ومتى يتوقف المسيح عن القيام من الموت ؟

ولم يجب الأب ياناروس . دخل إلى الهيكل وأحضر كأس المناولة

وغطاه بقطعة من الخمّل القرمزى وانطلق إلى الطريق .

وفي طرف القرية كان القومندان المكاف بالدفاع عن كاستلوس

قد ألقى حوالي خمسين من العجائز والنساء في حفرة كبيرة محاطة بالأسلاك

الشائكة ، لأن لهم أولادا وأزواجاً التحقوا بالتمردين . كانوا يقفون

متزاحمين فوق بعضهم وعظامهم بارزه . النساء رؤوسهن حليقة ، والرجال

مدموغ على جباههم بالحديد المحمى كلمة : « خائن » .

واجتاز الأب ياناروس القرية بخطوات سريعة يرفع بيده الكأس

عالياً . ها هو يذهب مرة أخرى ليناول رجلاً يموت . وها هو يحمل

جسد المسيح ودمه كما يفعل كل يوم ، وأحياناً مرات عديدة في اليوم

الواحد ، لكي يساعد الناس على مواجهة الموت . وهم يموتون هادئين ،

بينما الأب ياناروس يستقبل أناتهم الأخيرة ونظرة الذعر التي ترسلها
عيونهم في آخر لحظة ، ثم لا يجد هو الهدوء . فالألم يغادر هؤلاء الموتى
ويستمر في داخله .

كان القومندان ينتظر الأب ياناروس أمام الأسلاك الشائكة ، يروح
ويجيء بوجه عابس ، ضئيل الحجم نحيفا لفجت الشمس بشرته . في خده
الأيمن ندبة غائرة . له حاجبان عريضان منفوشان يحيطان بعينين صغيرتين
مستديرتين مثل عيني القنفذ . وكان يتجول وهو يقضم شاربه ويتفحص
مسجونيه طويلا الواحد تلو الآخر . كل شيء فيه ينذر بالشر : عيناه
وشفتاه وشاربه . وأخذ يدق بطرف السوط على حذائه المرتفع ذي
الكعبين المكجوفين ويغمغم وهو يقضم شاربه في غضب شديد :

— يا عصابة الخونة ، يا عصابة الخونة ! يا أوساخ ! يا مرتزقة !

والتفت جندي صغير له شارب مقصوص إلى الجندي المجاور له
وقال له خلسة :

— اسمع يا ابراهام ، حملت الليلة بنبات الحشخاش الأحمر . وهذا
نذير دم . فماذا سيحدث لنا؟ قل لي يا ليثي .

وكان ليثي هذا شاحبا ذا وجه مريض شفتاه دقيقتان كحد السكين
وشعره خفيف في لون الدررة . ابتسم ساخرا وقال :

— يا صديقي المسكين بانوس ، كم مرة أقول لك؟ ما دام الله قد
تناقص إلى هذه الدرجة ، فقد أصبح الشيطان أملنا الوحيد . إنه هو
الذي يحكم اليوم هذا العالم ، فمن أجله هو يجب أن نشعل الشموع . أما
إذا اعتمدنا على مسيحك الذي يمد خده للصفع دون ملل ، أو على إلهي أنا
« يهوه » الذي لم يشبع منذ أقدم العصور من أرواح البشر ، فلن نجد

قط مخرجا . لهذا السبب أشيخ بوجهى عن السماء وأقبل قرنيك
يا إبليس يا رئيس الشياطين !

كان النازى قد قبضوا عليه فى سالونيك وأرسلوه إلى « داخاو »
ليعزف هناك على الكمان ، ويبدو أن الأوامر كانت قد صدرت بأن يتم
إحراق اليهود على أنغام الموسيقى ، فأصبح على لىقى أن يقف أمام مدخل
المحرقة ويعزف الكمان عند دخولهم إلى الفرن . ومن ذلك الحين أصبحت
متعته الوحيدة أن يرى الدم يسيل .

ولم يعلق بانوس على كلمات الكفر هذه . فقد تصور إبليس بقرنيه
فانكش فى جلده كالدجاجة والتفت إلى جاره من الناحية الأخرى
يطلب المساعدة :

— ماذا ترى فى ذلك يا فاسوس ؟ هل سمعت كلام اليهودى ؟

لكن فاسوس المسكين لم يكن يسمع شيئا . كانت روحه قد سرحت
بعيدا ، إلى منزل فقير مع أربع شقيقات يطالبن الزواج . أهلك نفسه فى
العمل لىكى يدبر لهن مهرا ، لكن عبثا كان يكدح ، فلم ينجح حق فى
تزويج كبراهن أرسيتيا .

قال :

— ماذا ؟ أنا لم أسمع .

وأخذ الجنديان يضحكان :

— إنه يفكر فى أخواته ، هذا الحمل الوديع !

واستدارا إلى الخلف يكلمان زميلا آخر :

— ماذا تقول فى ذلك أنت يا ستراتيس ؟ افتح فمك مرة واحدة ،

فمنذ ثلاثة أيام لم تنطق بحرف .

وستراتيس شخص ضئيل نحيل ، مقدمة وجهه تشبه بوز الفأر .
لم يلبث أن دمدم قائلاً :

— أنا لا أحب الثرثارين . اذهبا إلى الشيطان !

وقال ليقي متضاحكا :

— إنه لم يهضم بعد ، موت رفيقه ليونيداس . يا صديقي المسكين
ستراتيس ، لم تعد هناك مشكلة بالنسبة له ، فهو ان يرجع . أصبح الدور
الآن علينا نحن .

وسالت دمة من عين ستراتيس ، فأدار رأسه دون أن يتكلم .
واقترب منهم الجاويش متجهماً :

— بماذا تهمسون كالبلهاء ؟ القسيس وصل ومعه القربان المقدس .

اصمتوا ، كل الصفوف !

وفرك ليقي يديه قائلاً في همس :

— أنا يهودى ، فليس فى ذلك ما يهمنى .

وظهر الأب ياناروس فى نهاية الطريق يرفع كأس المنارة أمامه بطريقة
عسكرية كأنه راية حرب . كان يسير عارى الرأس وشعره مشعث يدق
الحصى بحذائه الثقيل ، فيقرقع . ومن الكأس تشع قوة شديدة خفية
تمتد إلى يدي العجوز وذراعيه وجسمه كله بدرجة تهز كيانه .

ولم يكد المسجونون يميزونه حتى لمعت عيونهم وتعلقت كل آمالهم
بالكأس الذى يحمله . بالجسد والدم المقدسين اللذين يرقدان بداخله .
وإلا فمن أين كان لهم إذ ذاك أن ينتظروا الخلاص ؟ هل من الناس ؟
كل ما يفعله الناس معهم هو التعذيب والقتل . فلم يبق بعد ذلك سوى
المسيح . فإذا لم يكن لديه الخلاص ، فاللعنة إذن على الساعة التى رأوا فيها
النور ، واللعنة على الأيدي التى صنعت هذا العالم .

وبمجرد وصول القسيس وقفت امرأة صفراء في لون الليمونة كانت ترضع طفلها ، فرفعته فوق الأسلاك الشائكة وصاحت :

— ماء ! من أجل حب الله ماء !

ومد عجوز نحو القائد يداً متهرئة ، فزجر فيه الضابط قائلاً :

— ماذا تريد ؟

فأجاب العجوز بصوت محتضر :

— الحرية .

— اسكت ! ابنك مع الخونة .

فعاد العجوز الضئيل يقول هامساً :

— الحرية !

وكان صوته ضعيفاً متوسلاً كأنما يستجدي لقمة خبز .

ولم يكن القائد رأى القسيس يقترب ، فزجر فيهم قائلاً :

— سأعلقكم جميعاً كتلة واحدة في طرف البندقية . سأبدأ بهذا

الخائن المسمى الأب ياناروس ، وبعد ذلك يأتي دور المدرس المصدور ،

ثم أخيراً يأتي دوركم أنتم . فلا بد من تطهير هذه القرية تطهيراً جيداً .

واستدار إلى الجاويش قائلاً :

— خذ رجلين واذهب غداً لتحضر معلم المدرسة مع زوجته وابنه .

احضروهم إلى الأسلاك الشائكة !

وتوقف الأب ياناروس واهتز الكأس في يديه . وهمس قائلاً :

— يا إلهي ! حتى متى تترك عبيدك في أيدي الوحوش ؟ ألا توجد

إذن في هذه الدنيا نهاية للظلم والألم ؟ متى تقرر يا إلهي أن تسلمح الحب

أيضاً ؟ ألا تسمع هؤلاء ؟ ها هم المسجونون والحراس والقومندان .

ألا يثير ذلك عطفك ؟ اصنع معجزة !

وسمع القائد صوتاً خلفه فاستدار . ورأى القسيس قصيراً ضخماً ،
عيناه تشعان لهباً يتحدى . وقطب جبينه وركع على إحدى ركبتيه وهو
يشيح بوجهه . كان يكره هذا القسيس ذا السبعين عاماً ويشك فيه .
وكان يجد في نظراته قوة صامته تحاول إذلاله . فهذا الكاهن ذو اللحية ،
بكأسه وأناجيله وبطرشيته ومزاميره وتراتيله ، يملك قدرات خفية يخاف
منها القومندان رغم شجاعته . ودق الأرض بقدمه :

— لماذا تنظر لي هكذا يا أب ياناروس ؟

ورد العجوز بصوت متحرج ومتحفظ :

— ألا تخجل ؟ ألا تخاف الله إذن أيها القومندان ؟

وقبض القائد على سوطه ورفع يده كما لو كان يريد أن يضربه . لكن
الأب ياناروس استمر يدنو منه . وفي صوت أجش عاد يقول وقد وصل
إلى حيث لمست لحيته وجه القائد :

— هل أنت إنسان لا تزال ؟ الناس على حق حين يسمونك
الجزار . لكن ألا تعرف على الأقل من هي هذه الحملان التي تدبجها ؟
افتح عينيك وانظر يا تيمس . إنهم إخوتك وأخوانك .

وزجر القومندان وأمسك القسيس من كم ردائه ليدفعه وهو
يصيح :

— سأضعك لصق الحائط أيها التيس العجوز ! خذ حذرك فسيأتي
دورك !

— بل أتى دوري بالفعل أيها القومندان . فلتضعني لصق الحائط
فأنا أخجل من الحياة .

-- أنا الذي سأقرر متى أقتلك ولست أنت . انطلق .

— لن أنطلق ، بل سأصيح بأعلى صوتي !

واستدار نحو الجنود يرفع كأس المناولة إلى أعلى ما يستطيع ويصيح :
— كفى دماً يا أبنائي ، كفى !

واندفع القائد نحوه وأمسك بلحيته وسدّ فمه :

— اذهب وقل هذا لابنك البلغاري الخائن ، كابتن الأنصار .

لكن الأب ياناروس ، أفلت من قبضة القومندان وأخذ يصيح في
الجنود مرة أخرى :

— يا أبنائي . لا تنصتوا إلى هؤلاء الذين يأمرونكم بالقتل .

ارفعوا رؤوسكم وقولوا « لا ! » ، لا تخافوا شيئاً . إن من يخضع لأمر الله
حر ، ومن يخضع لأمر الناس عبد . الحرية ! الحرية يا أبنائي !

وارتمى القومندان على القسيس وقد رفع سوطه . لكن الجاويش

الطيب ميتروس منع الضربة وسحب المعجوز جانباً ، بينما تدخل الجنود
ليفصلوا بين الاثنين . وكان الأب يصارع ليتخلص منهم ويصيح :

— اتركوني . أنا خجل من الحياة ، أريد أن أموت . فليذهبني

الجزار خيراً من أن يهين الله !

وقال له الجاويش بصوت خافت :

— اصمت يا أبي ، اصمت . السلاح هو الذي يحكم هنا .

وتأمله الأب ياناروس في ألم شديد ، وقال له :

— أنت أيضاً يا ميتروس يا ابني ؟ أنت أيضاً ؟ هل وصلت إلى

هذه الدرجة ؟ ثم كيف استطعت أن تقتل النساء السبع يوم أول أمس ؟

وقال الجاويش وهو يخفض صوته :

— فليغفر لي الله . فهو الذي يعلم أن ذلك لم يكن بإرادتي ولكن

فرضته الضرورة .

وقاطعه الأب ياناروس قائلاً :

— هو يعلم أنك جبان ، وأن النفس أقوى من الضرورة .
ما أتعبك يا ميتروس . إن الله لا يغفر .

وفي هذه اللحظة ارتفعت حشرجة شخص محتضر ، فقفز الأب
ياناروس ورسم علامة الصليب قائلاً :

— اغفر لي يا ربّي ، فقد نسيت آلام عبدك ...
ورفع عالياً جسد المسيح ودمه ، وهبط إلى الحفرة الكبيرة .



٦

كان الأب ياناروس يقول لنفسه وهو عائد إلى الكنيسة وكأس
المنافسة في يده : « إلى أي مدى يصل الشر في قلب الإنسان ؟ الحقيقة
أن الله أشاح بوجهه عن العالم فسقط في الظلام . هذا خسوف لله !
هذا خسوف لله ! » .

كان يردد هذه الكلمات وهو يذرع الأزقة الضيقة التي تثير الغثيان .
لم يكن يرى في كل مكان سوى الأطلال والأبواب التي خرقتها طلقات
الرصاص والبقع الملطخة بالدم . وكانت الكلاب الجائعة تتشمم الأرض
بحثاً عن قطعة من جيفة . وشد الأب ياناروس يده على الكأس . وشعر
بجأة كأنه يمسك الرب بيده ويحمله عبر أزقة كاستلوس ليشهده على آلام
البشر . وقال له :

— انظر . انزل من السماء . فما جدوى وجودك هناك في الأعلى ؟
إنه ها هنا نحتاج إليك أيها الرب في كاستلوس . انظر ! إذا استمرت
الحرب فترة أخرى ، سيدتلع كل الناس بعضهم بعضاً . لم يبق فينا يا رب

أثر للانسانية . وجوهنا أصبحت متوحشة . الحرب جعلتنا وحوشاً .
يوم أول أمس فقط ، ألم يهجم الأب ستاماتيس — العمدة المعروف
بهدوئه وحكمته — على التريزي ستليانوس محاول أن يلتهم أذنه ؟
والقومندان يزداد كل يوم سوءاً ، لدرجة أنه لم يعد إنساناً بل نمرأ
متعطشاً للدم ! حتى متى ؟ حتى متى يارب ؟ إن وجه الشيطان ليظهر في
كل مكان بدلا من وجه الله . فلتساعدنى يارب على أن أعيد وجهك
إلى هذه القرية التى استودعتنى إياها !

واستمر يسير فى الطريق يمخر فى روحه عباب بحر من الظلام .
وقال لنفسه : « فى هذا العالم لا يمكن أن تكون إلا واحداً من اثنين :
حملاً أو ذئباً . الحملان تؤكل والذئاب تأكل . أفلا يوجد يا إلهى حيوان
ثالث يكون قوياً وطيباً فى نفس الوقت ؟ »

ومن أعماق نفسه ارتفع صوت يجيب : « يوجد يا أب ياناروس .
فاصبر . مضت آلاف السنين على هذا الحيوان وهو يتطور ليصبح
إنساناً . لم يصل إلى ذلك بعد . فهل أنت متمجبل ؟ الله لا يتعجل يا أب
ياناروس . »

وتوقف الأب ياناروس أمام المعسكر . كانت ركبتاه ترتعدان . فقد
رأى مجموعة من الصبية تحتشد حول كومة من القاذورات تنقب فى
النفائات طمعاً فى بقايا الطعام . بطونهم منتفخة وسيقانهم ربيعة كأعواد
الغاب . كثيرون منهم يقفزون على عكازات ، وبعضهم بين الثامنة
والعاشرة من العمر نبتت لهم فى ذقونهم لحمى . كان الأب ياناروس يود
لو استطاع أن يقترب منهم . لكن ماذا يقول لهم ؟ لقد أصبحوا وحوشاً
صغيرة مفترسة ، وليس لديه ما يصلح لهم . لهذا تسمر فى مكانه يرقبهم
دون أن ينطق بكلمة .

كان ينظر إليهم والدموع في عينيه حين مرت عجوز هزيلة حافية القدمين تسير بخطى واسعة وشعرها منفوش تحمل طفلاً ميتاً في حوالى الثلاث سنوات ملفوفاً في قطعة قماش . كانت تحمل فأساً على كتفها وتسير بعينين جاوحتين لا تدمعان وتطلق الصراخ المستيري . وعرفها الأب ياناروس . فهي العجوز آريق قابلة القرية ، والطفل حفيدها . عندما رأت الأب انفجرت تضحك في وحشية وتصيح :

— مات يا أب ياناروس . مات . اذهب وقل هذا المولود ! ألم تكن لديه قطعة خبز صغيرة يعطيه إياها ؟

ولم يجب الأب ياناروس . ونظر إلى الجسد الصغير الذى يشوبه الاخضرار وبطنه المنتفخة كالطبلة . الجسم هيكل عظمى ، والرأس مشوهة لا تظهر فيها سوى عظام .

وحملت العجوز في وجهه بكراهية شديدة وشفتها ملتويتان . وضحكت كالمجنونة ، ثم بدأت فجأة تصيح :

— قل لى يا أب ياناروس ، لماذا يترك هو الأطفال الصغار يموتون جوعاً ؟

وتوسل إليها العجوز قائلاً :

— اصمتى يا آريتى ، اصمتى . لا تكفرى بالله .

وصرخت العجوز :

— ليكن لماذا ؟ ما الذى أخشاه ؟ ماذا يستطيع أن يفعل

بعد ذلك ؟

وأشارت إلى الطفل الميت وعادت تقول :

— ماذا يستطيع أن يصنع بى بعد ذلك ؟

ومد القسيس يده إلى الطفل كأنما يريد أن يباركه ، لكن العجوز
سحبتة فجأة وهي تصيح :

— لا تلمسه .

— أين تذهبين به يا آريتي ؟

— أدفنه في حقل . وهذا هو الفأس .

— بدون صلاة ؟ سأتي معك .

وكشرت العجوز وأرغت حتى امتلأ فمها :

— صلاة ؟ أية صلاة ؟ هل تستطيع أن تقيمه من الموت ؟

لا تستطيع . إذن دعني وشأني .

وصمت حفيدها بين ذراعيها وانطلقت بسرعة نحو الحقول .

وطأطأ الأب ياناروس رأسه وضم الكأس إلى صدره وتردد في

نفسه سؤال : « بماذا ترد على هذه العجوز يا إلهي ؟ » وكاد يلقى هذا

السؤال على كأس المناولة ، ولكنه شعر بالخوف فصمت . واستأنف

السير إلى الكنيسة مطأطئ الرأس عبر أزقة القرية .

وانفرج باب منخفض عن فتحة أطلت منها رأس عجوز مقوسة

الظهر . ورأت الكاهن فرسمت علامة الصليب وهمست :

— إن الله هو الذي أرسله لي ! سوف أسأله ، وسيوضح لي

كل شيء .

ابنها ذهب إلى الجبل مع رجال البيرييه الأحمر . ويبدو أنه يريد أن

يهبط إلى القرية في إحدى الليالي لينجح الجنود . لماذا ؟ ماذا فعل له

الجنود المساكين ؟ قلبت العجوز هذا السؤال طويلاً في رأسها لكنها لم

تفهم شيئاً . ولكن الحمد لله أن رأت الأب ياناروس يسير في هذه اللحظة

بالذات . ستسأله وسيشرح لها كل شيء . وهكذا أوقفته في عرض الطريق ،
وانحنت تقبل يده قائلة :

— الله هو الذي أرسلك لي يا أبى . فانتظر لحظة . عندي سؤال
أريد أن أسألك إياه .
وأجاب القسيس :

— تكلمى يا جدتى . لكن بسرعة ، فأنا متعجل .

— لماذا يذبحون بعضهم بعضاً يا أبى ؟ لماذا يحارب ابنى ؟ يقول
إنه يريد أن يذبح هؤلاء الجنود المساكين . وأنا لا أستطيع أن أنام لأنى
أقلب هذا في رأسى مرة ومرات دون أن أصل إلى شيء .
وأجاب العجوز :

— هل تعتقدن أننى وصلت إلى شيء يا أمى العزيزة ؟ أنا مثلك
أسأل الله أن يشرح لى ذلك لكنه لا يجيب . وقلبي يتأرجح لأنه لا يجيبنى
فلا أستطيع أن أتخذ جانباً من الجانبين . الصبر إذن يا جدتى وسوف
نرى !

وهزت العجوز رأسها ورفعت يديها إلى السماء تريد أن تقول شيئاً .
لكن ماذا تقول ؟ دخلت بيتها وأغلقت الباب .

واستأنف الأب ياناروس طريقه يتنفس فى ألم . كان الهواء ثقيلًا
مشبعاً بالروائح النتنة . لم يدفنوا الموتى فى أماكن عميقة بدرجة كافية ،
فانتشرت العفونة من الجيف .

فى الحقول المحيطة بالقرية كانوا يعثرون أحياناً على قدم بارزة من
الأرض أو على جمجمة منزوع لحمها . فكلاب القرية تنبش الأرض نهاراً ،
وبنات آوى تلتهم البقايا ليلاً . فإذا أمطرت السماء ، برزت من الأرض
فى اليوم التالى رؤوس وأقدام أخرى .

وتوقف الأب ياناروس بالقرب من خرائب بيت لا تزال الراححة
النتنة تصعد منه . وسد أنفه . أصحاب هذا البيت هلكوا تحت الأطلال
أول أمس عند ما نزل رجال البيرييه الأحمر إلى القرية . كان الأب
ياناروس يعرفهم جيداً ويحبهم : مانولا كيس العجوز وزوجته والأم
كاليو . كانوا جميعاً مرضى ضعفاء فلم يتمكنوا من الفرار وانهار البيت
على رؤوسهم . أسرة طيبة تخاف الله . ليس عندهم أطفال . في طول القرية
كلها كانوا وحدهم محتفظون في فناء بيوتهم بأصيص به ريحان . وفي أمسيات
الصيف كانوا يجلسون على عتبة البيت — تماماً حيث يقف الآن الأب
ياناروس — ويتبادلون الأحاديث المرححة مع المارة . واليوم لم يبق منهم
سوى رائحة نتنة .

وخرج من الخرائب يهمس :

— يا إلهي ، ماذا أفعل ؟ ساعدني وأجب ! في كل يوم أقدم لك
تقريراً عما يحدث . وأنت تعرف كيف أصبحت القرية . لم يعد لدينا
ما نأكل . نحن نهار . وكل يوم يفر جندي جديد ويلجأ إلى الجبل .
وابني المرتد كابتن الحمر يرسل إلينا الرسائل من قمة النسور « سلموا ،
سلموا ! وإلا فالحديد والنار ! » ، ماذا نفعل ؟ وماذا أفعل أنا ؟ ها أنت
سمعت منذ لحظة آريتي وهي تكفر . الحقيقة أننا لم نعد نحتمل . كيف
ننقذ الأطفال الذين يموتون جوعاً ! دبرني يا يسوع . هل أسلم القرية
إلى الأنصار في الجبل لأنقذها من الدمار ؟ أم أعقد ذراعي وانتظر
رحمتك ؟ وا أسفاه . فنحن بشر لا نستطيع أن ننتظر . ورحمتك تأتي
على مهل . وغالباً ما تصل إلينا بعد الموت في الحياة الأخرى . ولكني
أريدها هنا في الحياة الدنيا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فجأة بصوت مرتفع :

— مهما يحدث ، فيجب أن تأتي رحمتك هنا في الحياة الدنيا !
كان يبدو عليه أنه اتخذ قرارا ، فأسرع الخطى . وقبيل الكنيسة ،
توقف أمام باب منخفض .

ها هنا يسكن مدرس القرية ، ينتظر الموت مريضا بالسل . أخذت
السجون والسوط كثيراً من صحته . لكن الأب ياناروس كان يحبه لأن
له رأساً كبيرة عميقة . في أحد أيام الأحد — وكان لا يزال قادراً على
الخروج — دعاه الأب بعد القداس ليشرّب القهوة في غرفته . في أول
الأمر ظل المدرس قليل الكلام نافرا . كان واضحاً أن تبادل الحديث مع
القساوسة شيء لم يخطر على باله . لكن شيئاً فشيئاً انفكت عقده وأخذ
يتكلم عن المسيح كما يتكلم عن صديق لا يزال يعيش في الدنيا فقيراً
مصدوراً مثله . فهو يزور المدن الكبيرة حيث ينتشر التلاميذ ، بعضهم
يعملون في المصانع وآخرون في مناجم الفحم ، ومنهم أيضاً تلاميذ
ومدرسون فقراء جوعى .

وقال الأب ياناروس مأخوذاً :

— أنت تراه إذن ؟ أنت تراه ؟ إنك تتكلم عنه كما لو كنت تعرفه .

فأجاب المدرس وهو يبتسم :

— أحياناً أراه .

ورسم القسيس علامة الصليب قائلاً :

— يا إلهي ، أنا لا أفهم شيئاً .

لكن الأب ياناروس لم يلبث أن فهم . في إحدى المرات بعد أن

خرج المدرس ، أدرك أنه كان يتحدث عن لينين .

توقف الأب لحظة أمام الباب المنخفض : هل يدق الباب ؟ أم لا ؟

كان المدرس راقداً على سريره ينظر إلى زوجته وهي تمنحني لتشمل

النار . وكان ابنه الطفل ديمتراكي جالسا على مقعد صغير يردد حروف الهجاء . طفل شاحب معتل الصحة قدماه متورمتان وعيناه منتفختان . وبجوار المدفأة ربض قط يقرقر . لونه أسود تتخلله بقع برتقالية اللون وفي جسده قروح . وفي الخارج نبحت الكلاب وتخبطت الأبواب . ومن بعيد أتى صوت الأحذية الثقيلة تدق الأرض . أما في المنزل فكان السكون مخميا لا يتخلله سوى صوت الولد الصغير يردد حروف الهجاء . وأغمض المدرس عينيه . وفجأة شعر بالخوف من سكون البيت . كان يعرف أن أيامه الباقية معدودة . عندما يعمل يحاول أن يدير وجهه حتى لا يخيف زوجته ، ويبصق الدم في منديل أحمر يخفيه تحت مرتبة السرير . ومع أنه كان يتربص الموت ، فالسكون في المنزل بعث الخوف في قلبه . قال لنفسه : « هذا غير ممكن . لا بد أن مصيبة كبيرة تدبر لنا في مكان ما ... »

ونظر إلى زوجته التي أصبحت عجوزاً قبل الأوان . وجهها متألم صامت تلفه تلفية سوداء . منذ سنوات طويلة مضت وهما يكافحان البؤس والخوف والمرض . ونقل الرجل عينيه إلى ابنه الوحيد الشاحب وإلى قدميه المتورمتين من الجوع . ومزق هذا المنظر قلبه . « ترى هل يستطيع أولادنا على الأقل أن يحصلوا على شيء من السعادة ؟ لقد ملأنا الهوة بأجسادنا كي يتمكنوا هم من العبور . فهل يستطيعون ؟ هل يصل ابني ديمتراكي يوماً إلى إتمام حروف الهجاء ؟ هل يدعونه يفعل ؟ إنهم يقتلون النساء والأطفال كل يوم في كاستلوس ... في كاستلوس وفي اليونان وفي العالم كله . هذه نهاية العالم القديم ، وبداية العالم الجديد . لهذا وجد جيلنا جسمه وروحه بين شقي الرحي يطحنانه . لتكن قادراً على أن تولد في الأوقات الحاسمة ! هذه حكمة صينية . وعلى أكتافنا

نحمل عبء هذه اللعنة ، ومهمتنا أن نحولها إلى نعمة . وهي مهمة شاقة
وجهد قاتل . فإيا أيتها الفضائل التي يفاخر بها الإنسان ، القداسة
والإصرار والبطولة ، ساعدينا ! »

وأغمض المدرس عينيه وتاه في أفكاره . منذ كم من السنين
يتذبذب قلبه بين القلق والأمل ؟ سنوات في قلق وسنوات في أمل . حتى
متى ؟ وفتح عينيه ونظر إلى زوجته وطفله . ونظر إلى القرية وإلى
اليونان ، وحملة الخيال إلى العالم كله . كم من القلق وكم من الأمل في
كل مكان ! هل كان الوضع كذلك دائماً ، أم أن الشقاء البشري زاد
منذ بدأ العالم ينهار ؟

واستعاد في ذهنه تلك المدينة التاريخية التي ابتلعها الكارثة . إن
العالم الحديث يشبهها . وارتعد المدرس بالخوف والفرح ، وهو يذكر مرحلة
بعد مرحلة ، كيف تولد المدن ثم تتضخم ثم تصيبها الشراهة ، وفي النهاية
تسقط .

كانت مخازن بومبي تفيض بالمؤن . ونساؤها مشدودات مكتملات
الزينة عقيبات . ورجالها تجار سائحون لا يتقنون الكتابة ، لكنهم
بارعون ساخرون . وكان للمدينة طاقم كامل من الآلهة يشمل كل القطيع
الإلهي الخاص باليونان ومصر والشرق ، تضامنوا معاً في مجموعة واحدة ،
تشبه اتفاق اللصوص ، يتقاسمون في خبث هبات الناس ونفوسهم . وكانت
المدينة الراقدة أسفل بركان فيزوف تضحك من المستقبل .

واليوم أصبحت الأرض كلها مدينة بومبي قبيل ثورة البركان : فماذا
سيحدث للنساء البائسات ، والرجال الذين لا يحكمهم دين ولا قانون ،
والمصانع والأمراض ؟ ولماذا يعيش كل هؤلاء التجار البارعين ؟ ولماذا
يكبر الأطفال المدلون جدا ، إذا كان مصيرهم هم أيضا أن يجلسوا في

المسارح والكباريات والخمارات ؟ هذا كله يخنق الروح . الأجيال التي سبقتنا صرفت كل روحها في النظريات والتحف الرائعة في العلم والمشروعات ، لتبنى مدينة جديدة . لكن هذا كله أصبح الآن مستهلكا ، فلم يبق إلا أن يتلاشى . فليتقدم البرابرة ليفتحوا للروح منازل جديدة ! اندفعت حشود الجوعى تهاجم المائدة التي انكفأ عليها السادة ناعسين متخمين بالطعام . لحظة عصبية ! واستيقظ السادة على الضوضاء فالتفتوا ضاحكين ، لكن سرعان ما شجبت وجوههم . فقد انتفض العبيد : العمال والحرفيون والمربيات والطباخت والحاديات ! لحظة عصبية ! إن أعظم الآثار في الفكر والفن والبناء هي نتاج هذا النوع من الاندفاع العاصف في الإنسان . هناك كائن غامض يكافح من أجل الحرية . من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان . وكل عصر يراه في وجه جديد ، أو بالأحرى في قناع جديد ، لأنه يظل هو نفسه دائماً خلف مظاهر شتى . ووجهه اليوم هو وجه رئيس هذه الجماهير الرهيبة التي تقفز إلى الهجوم .

نهضت زوجة المدرس من أمام الموقد . كانت كلما رأت زوجها غارقاً في التفكير حاولت أن تشغله بحديث يلهيه . فقالت :

— يوم أول أمس حضر من جبل آتوس راهب يحمل حزام العذراء في صندوق من الفضة . أخبرني بذلك جارتنا أم ليناكي .

لكن المدرس ثار :

— اصمتي يا زوجتي . أنت تجعلين الدم يغلي في عروقي ! هؤلاء المتاجرون بأجراس الكنائس الذين يصطنعون القصص ! متى تفتح البشرية عيونها ؟

وغلبه السعال ، وبصق في منديله الأحمر ، وارتمى على وسادته قائلاً :

— كفى كلاماً فأنا متعب .

وظل نائماً على ظهره عدة دقائق ، يتنفس في مشقة . ولكن فجأة استعاد قواه فجلس في السرير قائلاً لنفسه : « تعال يا ابن جودا ، تعال يا ابن جودا ، ساعدني ! »

وتهد قائلاً :

« ترى هل يمتد بي العمر لأرى النحرر ؟ لأرى العدل على الأرض ؟ »

ومرت أمام ذهنه حياته كلها فيما يشبه الومضة الواحدة . عندما كان مدرساً في جانينا ، قبضوا عليه وألقوه في السجن . وتضعع جسمه من السوط والجوع والرطوبة ، نخرج من السجن حطام إنسان . وعاد إلى قريته ليموت فيها . كل يوم يمر عليه كان قطعة جديدة من العذاب . لكنه يتذكر بن جودا ، فيمسك روحه بأسنانه ويرفض الموت مثله حتى يشهد اليوم الموعود . هكذا يكون الإيمان بالمبدأ . وعندما يفرع أصدقاؤه من زرقة الموت التي تكسو مظهره ، يفر في بن جودا ويبتسم قائلاً : « كيف يمكن أن أموت وأنا أحمل في نفسي هذه الفكرة الكبيرة ؟ لا تخشوا شيئاً ! »

وأصاخ المدرس السمع . فقد سمع صوت شخص يقف أمام الباب . وقفزت زوجته . ترى من ذا يكون هذا ؟ وخرجت حافية القدمين إلى الفناء واختلست النظر من شق الباب . رأت اللحية والثوب الكهنوتي فعرفت صاحبهما . قالت بصوت خافت :

— هذا الأب ياناروس ، هل أفتح ؟

وأجاب المدرس :

— لا ، لا تفتحي . سيتحدث كالمعتاد عن الله . وأنا متعب
لا أحتمل .

وكنتم الاثنان أنفاسهما حتى سمعا الأب ياناروس يدب بحذائه الثقيل
مبتعدا .

قال المدرس :

— يا للخسارة ! إنه أيضا مدان مثلي .

ومد يده تحم الوسادة واستخرج دفترأ صغيراً معجوناً في بعضه ،
أحضره سرأ بالأمس الجندي ستراتيس قائلاً : « ليونيداس هو الذي
طلب مني أن أسلمك هذا . وأنت تعرف إلى من ترسله بعد ذلك . »
واغرورقت عينا ستراتيس بالدموع ، فانسحب مسرعاً .

وهز المدرس رأسه قائلاً : « فقيد جديد ، يا للخسارة ! وليته من
أجل فكرة كبيرة . »

وليونيداس هو ابن خالته من بعيد ، من ناحية أمه التي ولدت في
ناكسوس . كان قد انضم إلى جنود البيرية الأسود . ومع ذلك ظل يأتي
خفية في بعض الأحيان ليتبادل الحديث مع المدرس . كان مرافقاً صغيراً
تغطي البثور وانفعالات الحنين وجهه . يحب إحدى الفتيات ويحمر
وجهه خجلاً حين يتكلم عنها . كانت طالبة مثله . وفي اليوم الذي توثقت
فيه معرفتهما ذهباً إلى الريف وظلاً يقفزان مثل جديين صغيرين . كانت
الأعشاب قد أصبحت طرية ، وتفتحت أزهار اللوز ، وتضوع الجو
برائحة الراتنج وسخونة الحجر . وظهرت في الأفق التباشير الأولى
لعصافير السنونو . واشتدت حرارة الجو عند الظهر ، خلعت الفتاة
بلوزتها . وهب النسيم . ومن بين عمودين أثريين ظهرت قطعة من
الخليج . البحر . حبيب الإنسان منذ الأزل . اجتمع الشباب والحب

والبحر في تركيب ساحر . وعندما نظر ايونيداس إلى البحر وهو يمسك يد فتاة لم يكن يعرفها بالأمس ، أدرك أن قلبه ذاب في المشب والبحر والخلود ، واكتشف لحياته معنىً ، وبداله العالم رائماً جديداً . ونظر إلى الفراشات الكبيرة تنتشر أمامه . وشعر بأن الأرض تفوح برائحة الجسد . وأثاره جانباً الجبل كأنهما عجيبة امرأة .

أخذ المدرس يقلم صفحات الدفتر الصغير بيد مرتعشة . وخيل إليه أنه يذبح قبراً لم يجف بعد . أول أمس فقط ، أصابت الطلقة قلب الشاب فسقط على قدمي ستراتيس . وحمله ستراتيس على كتفه حتى لا يقع في أيدي الأنصار . وفي كاستلوس دفنوه . وفي جيبيه وجد ستراتيس هذه المذكرة . كانت مكتوبة بخط دقيق . بعض فقراتها بالحبر والبعض الآخر بالقلم الرصاص . وفي بعض أجزاءها كانت الحروف غير متميزة لا تكاد ترى : يبدو أن دموعاً سالت عليها . وصفحات كثيرة منها كانت مخضبة بالدم .

أمسك المدرس بالدفتر الصغير ورفع رأسه قائلاً لزوجته :

— إذا طرق أحد الباب ، لا تفتحي .

٧

٢٣ يناير :

هذا الصباح وجدنا في أحد مجارى السيول ثلاثة جنود موتى متجمدين . كان الجليد يغطي أجسادهم فلا تبرز سوى أقدامهم . ولولا ذلك ما اكتشفناهم . وجدنا معهم أيضاً واحداً من الأنصار يرتدى على اللحم ملابس الفرقة المصنوعة من التيل ، بدون ملابس داخلية ، حافي القدمين ، ساقاه مصابتان بالجروح . يبدو أنه سقط معهم . وكان الأربعة جميعاً متمسكين ملتصقين محتضنون بعضهم بعضاً محاولين أن يتبادلوا الدفء .

٢٩ يناير :

حبيبتى . رأيت الليلة حلماً مختلطاً هو أغرب الأحلام التي رأيتها في حياتى . لم أستطع أن أجده معنى . لكنه رغم ذلك قلب كيانى . خيل لى أننى فى أعماق البحر أسمع سمكة من نوع البيكاريل تخاطب الرب فى غضب شديد . رأيتها تفتح فمها وتغلقه دون أن يخرج منه صوت ، لكننى كنت أفهم ما تقول ، تماماً كما نفهم إشارات الببم .

بل كانت كلما تزن في رأسى نائرة عنيفة . زعانفها الشوكية القبيحة تهتز في سحق وهي تصيح :

« إذا كنت عادلا يا يسوع ، فيجب أن تعطى القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل ! »

ويبدو أنها كانت تشكو سمكة أخرى أكبر منها ، ولهذا لجأت إلى الله . ورد عليها الله ، لكنى لم أسمع صوتا . فقط رأيت المياه تفور وتمور حول السمكة ، فتدور ضائعة في دوامة الماء . ثم يهدأ البحر ، فترفع السمكة رأسها مرة أخرى ، وتردد في روى نفس الكلمات : « إذا كنت عادلا يا يسوع ، فيجب أن تعطى القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل ! » . ماريو حبيبتى . أشعر أنى لو بقيت طويلا في هذه الجبال ، فسوف يختلط عقلى . لا بد أن أفكر فيك يا حبيبتى ليل نهار حتى لأصاب بالجنون .
أول فبراير :

قضيت النهار كله معك يا ماريو . وطوال النهار امتلأ أنفى بعطر خفيف ، كأنما أزهرت فى داخلى شجرة لوز يفوح عبيرها . أنت تذكرين أنه فى مثل هذا اليوم تعارفنا ، منذ عام كامل ، وقمنا بتلك الرحلة إلى سونيون لنزور معبد بوزايدون . كنا نحمل خبزا وبرتقالا كثيرا ، ونحمل هوميروس . وأزهار اللوز قد تفتحت . والأعشاب الرقيقة تغطى الأرض . وابعنا مع الجديان . وتضوعت أشجار الصنوبر بعطر حلوا كالعسل . وفوق رؤوسنا أشرقت الشمس — الأم الحنون — تلفنا بالدفء . كم كانت تتباهى بمنظرنا ونحن نسير على قطع الحجارة كأننا حشرتين صغيرتين سميدتين ! وكنت أنت ترتدين بلوزة بنفسجية وتضمين على رأسك بيريه من الحمل الأبيض ، أفلتت من تحته خصلتان نافرتان . ومشيئا مسرعين . كم كنا صغيرين فى ذلك الوقت ! وكان

العالم منتعشا والأشجار خضراء والسماء زرقاء مفعمة بالرقة. ولكن، كم تقدم
بي السن في عام واحد ا فلم أكن شاهدت من قبل جثثا ، وها أنا أجلس
الآن على أكوام مكدسة من الموتى وقد تحول قلبي إلى قطعة من الحجر .
كنا نتكلم عن هوميروس . هل تذكرين ؟ وأشعاره الخالدة تحملنا
كال موج . كم كنا سعيدين ا الكلمات المقدسة انتفضت فجأة فأصبحت شيئا
حيا في قلوبنا . هوميروس ، إنجيل شعبنا العريق ا كنا نشعر به يضحك
في نفوسنا ويدوي كأمواج البحر . تبتيس تمتطى السحاب وتصدر من
الكهوف في أعماق المحيط تحمل لابنها أسلحة ذات بريق .

كنا نلشد الأبيات الخالدة ، ويدانا متشابكتان ، نتأمل من خلال
أشجار الصنوبر شمس الإغريق تداعب البحر :

« صنع أولا درعا عظيما متينا

صاغة من كل جوانبه .

وأحاطه بحاشية مثلثة

وجعل له محملا من فضة .

كان الدرع من خمس صفائح متشابهة

نحتت عليها يد بارعة ألف تحفة .

ظهرت فيها الأرض والبحر والسماء

والشمس التي لا تكل ولا تمل

والقمر في اكتماله . وكما يوجد في الطبيعة ،

تاج النجوم

والثريات الصغيرة هياديس

والمعلقات السبع بلياديس ، والجوقة

والعذراوات السبع ، وتسمى أيضاً العربية ، التي

تدور حول نفسها ولا تهبط في المياه أبدا .
ظهرت فيها أيضاً مدينتان جميلتان من مدن البشر
الأولى حافلة بالمآدب الجميلة
وأعراس الزفاف . كانوا يزفون الفتاة
خلال الشوارع بعيداً عن منزلها
في موكب من القناديل وأغاني الفرح
والغلمان يرقصون في حلقات
على أنغام المزامير والقيثارات
والجارات يخرجن لينظرن
كل واحدة منهن تجرى إلى عتبة منزلها . «

لم تكن نشبع من هذه الأبيات الخالدة لجدنا العريق . هل
تذكرين ؟ نشدو بها تحت أشجار الصنوبر فيخيل إلينا أنها تجرى
وتدافع كالنهر يسعى إلى البحر .
حبيبتي كم كان من الممكن أن تصبح الحياة جميلة بسيطة طيبة ،
فماذا حدث ؟ كنت معك ذلك اليوم — ذلك اليوم الخالد — أفيض
بالحب نحو كل شيء ، حتى نحو أحقر الديدان الصغيرة . واليوم أقف على
أرض إيبيير العريقة أحمل بندقية وأقتل أقراني . لا . لم نصبح بعد
جديرين بأن نسمى بشرا . نحن لا نزال في وسط الطريق بين القرد
والإنسان . بل نحن أقرب إلى القردة منا إلى البشر . شيء ما ، بين
الاثنين . . ومع ذلك يا عزيزتي ماريو ، أشعر بقلبي يذوب في ذكراك
ويتفتق مثل زهور اللوز . لا يكاد يتذكر هوميروس ، حتى يدرك
ما هو الإنسان وما هو الخلود .

٣ فبراير :

عندما استيقظت ، كانت شجرة اللوز لا تزال تفتح زهورها داخل
نفسى ، والدماء تنبض فى عروقى بإيقاع موسيقى مفعم بالفرح والحزن
والحنين . اسمك يا ماريو العزيزة يخطر برقة على قطرات دمي كما يخطر
طير البحر على صفحة الماء . آه ! كم أود لو يتاح لى الوقت - الوقت
والقوة - فأصوغ هذا الإيقاع فى كلمات وأنقله فى قصيدة شعر !

على شفتى طاقت أغنية ، فقلت لنفسى : آه ! لو يتركونى اليوم وحدى
ومعى ورقة وقلم ؟! لكن البروجى أطلق إشارة الخطر ، فحملنا بنادقنا .
كان المتمردون قد أطلوا بوجوههم من فوق قمة النسور حيث تحصنوا
منذ عدة شهور دون أن تتمكن من إزاحتهم . وكان معنى ذلك أننا
سنتبادل الذبح مرة أخرى . وفى هذه الساعة ، أكتب لك بعد أن عدنا
وقد هبط الليل منهمكين مخضبين بالدم . من كلا الجانبين سقط عدد غير
قليل من الضحايا ، دون أى نتيجة لنا أو لهم .

جرت الدماء دون جدوى ...

عندما يصف لنا هوميروس معارك الآخيين والطوراديين ، وعندما
نقرأ ما يحكيه عن آلامهم ، نستشعر نوعاً رقيقاً من السرور ، وتصبح
أرواحنا ذات أجنحة ، لأن مبدعا عظيما استطاع أن يستخرج من هذه
المدبحة غناء لا مثيل له . ها هنا يبدو كأن هؤلاء الضحايا ليسوا بشرا ،
لكنهم قطع من السحاب ذات أشكال بشرية ، لا تحس بالألم ، تتلاقى فى
معركة وهمية خلال الأثير الذى لا يصيبه سوء . دماؤهم المراقبة تبدو مثل
غسق المساء القرمزى . فى الشعر ، ليس ثمة فارق بين الإنسان وقطعة
السحاب ، ولا بين الموت والخلود . أما حين يحدث ذلك على الأرض بين
متحاربين لهم أجساد حقيقية تتكون من لحم وعظم وشعر وتجرى فيها

الروح ، إذن كم تصبح الحرب يا حبيبتى شيئاً بالغ الوحشية .
نبدأ القتال ونحن نفكر في أننا لا نكره أحداً ، وأننا قادرون
على كبح جماح أنفسنا والتمسك بإنسانيتنا حتى خلال المعركة . لكن
لا نكاد ندرك أن المسألة أصبحت دفاعاً عن الحياة ، حتى نشعر بوحش
أسود كثيف الشعر من أجدادنا الغابرين ، ينتفض في أعماق نفوسنا .
وسرعان ما نفقد وجهنا الإنساني ونحمل بدلاً منه قناع غوريلا . ويتحول
رأس الإنسان إلى كرة من الدم مختلطة بالشعر . ونأخذ في الصياح :
« إلى الأمام جميعاً ! سنغلبهم ! » لكن هذه الصيحات ليست صيحاتنا ،
رغم أنها تخرج من أفواهنا . إنها ليست صيحات بشر . حتى الكائن
الشبيه بالقرود يفر مذعوراً إذا سمع صياح هذا الجد الغابر جدا :
الغوريلا .

في بعض الأوقات يتملكني حنين أن أقع قتيلاً لأنقذ ما تبقى لي من
إنسانية وأنجو من الوحش الذي يلبسني . لكنك أنت ، أنت تجعليني
أتمسك بالحياة . وهكذا أصبر . وأقول لنفسي : لا بد حتماً أن تتوقف
المذبحة في يوم ما ، فأستطيع أن أنسلخ من جلد الغوريلا : ملابس
الفرقة والحذاء الثقيل والبندقية . ثم نعود يا ماريو المزيزة إلى سونيون ،
يدك في يدي ، نردد أشعار الإلياذة الخالدة .

١١ فبراير :

انهمر الثلج طوال النهار . وكان البرد يخرق عظامنا ، وليس عندنا
من الخشب ما نستدفئ به . لم يسمح لنا الأنصار بلحظة نغمض فيها عيوننا .
كان الرعب يبعد النوم عن جفوننا ليل نهار . البنادق في أيدينا طول
الوقت . حالة الخطر استمرت دون انقطاع ، والآذان مرهفة . لا تكاد
تدحرج قطعة حجر أو يتحرك حيوان ، حتى يبدأ على الفور إطلاق

النار في الظلام . القلق الدائم والحربان من النوم لم يتركا من أجسادنا سوى الظلال . ثم يا ليتنا واثقون من أننا نحارب لفكرة كبيرة ..
عندنا قومندان فظ جداً . شخصيته قاسية . دائماً غاضب ثائر . هناك مصير محتوم يدفعه ، وسوف يبتلعه . ولا بد أنه يدرك ذلك ، وهذا ما يجعله سيئاً إلى هذه الدرجة . لكنه عاجز عن المقاومة ، ينحدر مطأطئء الرأس نحو الهاوية .

هذا القومندان يبدو لي مثل بطل تراجيدي . ولهذا أحمل له نفس الاحترام والاشفاق اللذين نشعر بهما عندما نرى أوديب يصارع الحقيقة ، أو أغاممنون يدخل الحمام ليقتل . لكنه منذ عدة أيام على وجه التحديد لم يعد قط إنساناً . أصبح وحشاً مفترساً . تركته زوجته والتحقت بالانصار على الجبل . كانت قد أتت من مدينة جانينا في عيد رأس السنة . امرأة رائعة ! على الأقل هذا هو الانطباع الذي تركته فينا في هذا الجو الموحش . كانت مثل فجر طلع في ظلام دامس ! لم نكن رأينا امرأة حقيقية منذ عدة شهور ونحن مشردون وسط الجبال لا نعرف النظافة ولا الحلاقة ولا النوم . وظهرت هذه الجنية الساحرة . هذه المرأة ذات الشعر الأشقر والقوام المشوق وطابع الحسن . مشيتها ! وفوق ذلك كله ، العطر الذي تتعطر به والبودرة والزهور التي تتحلى بها ، فترك خلفها خطاً من العبير . في أول الأمر أصبحنا نرى القومندان يضحك . لم يعد وجهه كما كان . وأصبح ينظر إلينا كبشر . وفي كل يوم كان يخلق ذقنه ، ويرتدى أحسن ملابس ، ويلبغ حذاءه . وتغير حتى صوته وطريقة سيره . لكننا لم نر زوجته تضحك أبداً .. وبمرور الأيام كانت تزداد اكتئاباً . وإذا نظرت إلينا تبدو نظرتها قاسية باردة مليئة بالكرهية . وفي إحدى الليالي ، فتحت الباب وفرت إلى الجبل . وأتى ستراتيس الحبث ذو الساقين

الموجتين ، ونقل إلينا الخبر وهو يتلوى من الضحك . وألف أغنية انتشرت بسرعة في المعسكر ، تقول « العصفورة تركت القفص ، وطارت بأقصى سرعة ، بأقصى سرعة ... » ، وقال صديقي فاسوس هامساً :
— لقد وضعنا جميعاً . الآن لن يتركنا قبل أن نسقط كلنا قتلى .

سوف يستمر القتال ليل نهار ا

وصمت لحظة يفكر ، ثم قال لي بصوت منخفض لا يسمعه أحد آخر :
— أقسم لك يا ليونيداس أنه لا يهمني أن أقتل ، بشرط واحد ، هو أن أعرف لماذا أو من أجل من . لكني لا أعرف . فهل تعرف أنت ؟

وكيف لي أن أعرف يا حبيبتى ؟ وبماذا أرد عليه ؟ هذا هو الشيء الذي يسبب لي أشد العذاب .

١٣ فبراير :

بروجي خطر في الفجر . ضربنا حصاراً حول القرية كي لا يهرب أحد . صدرت الأوامر باعتقال كل من له أب أو ابن أو أخ أو زوج مع المتمردين ، والتحفظ على الجميع خارج القرية في حفرة كبيرة محاطة بالأسلاك الشائكة . وهكذا دخلنا البيوت وسحبنا الزوجات من مراقدهن والمجائز والشيوخ . وبدأ الناس يصرخون ويتعلقون بالأبواب والنوافذ والأحواض . وكان علينا أن ننزعهم . كان الجنود يضربون على أيديهم بالعصى الغليظة ، ويمزقون ملابسهم ويجرونهم . وجرح الكثيرون أثناء صفهم لإنزالهم إلى الخندق الممد لاعتقالهم . في أول الأمر شعرت بالرغبة في البكاء . أثارني هذا الظلم ولم أستطع أن أحتمل صراخهم . وكانت المجائز تشتمني وأنا أدفنهن بالقوة ، فكنت أشعر بالرغبة في أن أضعن بين ذراعي وأبكي معهن . كن يصرخن :

« ماذا فعلنا ؟ لماذا تضعوننا وراء الأسلاك الشائكة ؟ »

وكنيت أقول لهم :

« لا شيء قط . هذا ليس ذنبنا . هيا أمامي ! »

ولكن شيئاً فشيئاً ، اندججت في اللعبة . ما هذا الوحش الخطير الكريه الذى يسمونه إنساناً ؟ فى أول الأمر حاولت رغم أنفى أن أسلك كما لو كنت متوحشاً ، فكانت النتيجة أن أصبحت متوحشاً . وبدأت أقتحم الأبواب وأجذب النسوة من شعورهن وأدوس على الأطفال الصغار .

١٤ فبراير :

الثلج يتساقط . الجبال كلها بيضاء ناصعة والبيوت مكسوة تماماً بالثلج . شيئاً فشيئاً تنكرت كل الأشياء القبيحة فى القرية تحت قناع سحرى . حتى الحرقرة الممزقة المعلقة على جبل ، أصبحت ذات منظر ساحر رائع . والمهر الذى ينفق تحت الثلج تتحول جثته إلى مجموعة من التلويات اللطيفة والألوان الجميلة : لون وردى فى الصباح ، وأزرق بعد الظهر ، وبنفسجى فى المساء . والدنيا كلها تسبح فى صفاء ناصع كالقمر . قولى لى يا ماريو . كم كانت تصبح سعادتنا لو لم تكن الحرب قائمة وانطلقنا نحن الاثنين نترزه على الجبل تحت قطع الثلج بحذاءين كبيرين ، نتردى البلوفر والطاقيه الصوفية حتى الاذنين ، وفى المساء نذهب إلى بيت صغير به حمام دافئ ومائدة معدة فى ركن بجوار النار وعليها أطباق الحساء يتصاعد منها البخار ! ترى من هو هذا الفاتح المشهور الذى تنهد ساعة موته وقال : « ثلاثة أشياء تمنيتها طوال حياتى : بيت صغير ، وزوجة طيبة ، وأصيص به ريحان . لكنى لم أصل إليها أبداً . »

ما أبسط الحياة يا حبيبتي إذا تأملنا حقيقتها ! وما أقل ما يلزم

الإنسان من أشياء كي يكون سعيداً ، لكنه يفضل أن يضيع جرياً وراء أمجاد وهمية . أكثر من مرة ، تملكتنى الرغبة في أن ألقى البندقية وأرحل ، وأظهر فجأة على عتبة غرفتك يا ماريو ، غرفة الطالبة . وإذ ذاك أمسك بيدك دون أن أتكلم . فقط لأشعر في يدي بحرارة يدك . أنا واثق يا حبيبتي أنه ما من سمادة أعظم من أن أضغط على راحتك . لكنني لن أفعل قط . وسأبقى هنا والبندقية على كتفي ، أحارب حتى يأمروني بالعودة . لماذا ؟ لأنني خائف . لأنني أشعر بالحجل . وحق لو لم أكن خائفاً ، فلن أفر من الحرب . فهناك الواجب ، والوطن ، والشرف ، والفرار من الجندية ، هذه الكلمات الكبيرة الرهيبة التي تقيد بالأغلال روعي المسكينة وجسدي ، وتصيبني بالشلل .

١٦ فبراير :

يكفي أن أعرف شيئاً واحداً لأحتمل كل ما أفعل وكل ما أرى هنا . شيئاً واحداً ، لماذا . لماذا نحارب نحن الجيش الوطني — أو رجال البيرييه الأسود كما يطلقون علينا — لماذا نحارب لننقذ اليونان بينما أعداؤنا رجال البيرييه الأحمر يحاربون ليبيعوا اليونان ويقسموه ؟ ؟ ! لو أستطيع فقط أن أعرف ذلك ، لو أستطيع أن أعرفه عن يقين ! إذن لأصبت كل جرائمنا مقبولة — كل ما صنعناه وكدسناه من شقاء نتيجة أعمال القتل والإحراق والانتهاك . إذن لقدمت روعي — لا أقول بسرور ، طالما أنك موجودة يا ماريو — لكنني على الأقل باستسلام ، ولقيت أن أضيف عظامي إلى عظام أجدادي ، ما دامت الحرية كما يقول النشيد الوطني ثمرة أكوام من الهياكل العظمية .

كنت قد أمسكت بامرأة من رقبتها وركلتها لأدفعها إلى الصف . واستدارت تنظر إلي . لن أنسى نظرتها مبدى الحياة أبداً ، أبداً . كل

ما يمكن أن يتاح لي من خير أفعاله لا يكفي ليهبني الراحة بعد هذه النظرة . ثم تفتح المرأة فمها . لكنى سمعت في داخلي صرخة عظمتي : « ألا تحجل ياليونيداس وقد سقطت إلى هذا المستوى من الانحطاط ؟ » ووقفت مشلولاً . وهمست : « أنا أشعر بالحجل . أشعر بالحجل . لكنى جندي . لم أعد أملك حريق . لم أعد إنساناً . اغفر لي . » لكن المرأة لم تجب . رفعت رأسها شامخة عالية ، وضغطت بذراعيها على ابنها الرضيع ودخلت في الصف . وقلت لنفسي : « لو استطاعت هذه المرأة لأشعلت النار في المعسكر وأحرقنا جميعاً . وابنها الرضيع لن يرضع لبنا بعد ذلك ، بل كراهية واحتقاراً وانتقاماً . وعند ما يكبر سيذهب ليلتحق بالتمردين . وسيفعل هو ما لم يستطع أن يفعله أبوه وأمه . وسندفع غالباً ممن الظلم . »

والغريب أن هذا التفكير خفف عن نفسي . هل تصدقين يا حبيبي ؟ قلت لنفسي : ان مظالمنا وتصرفاتنا الوحشية وأعمال الإذلال التي نلحقها بهم لن تضيع هباء . ستعود مرة أخرى . ستجعل قلوب ضحايانا قاسية . كان من الممكن أن يظل هؤلاء القرويون راضين بالعبودية طوال حياتهم لا يرفعون الرأس أبداً . لكن من حسن الحظ أننا متوحشون . لا نترك عبيدنا نياماً في استسلام الجبن ، بل نوقفهم بكرلات الأقدام . وهم يستيقظون فعلاً . وسرعان ما نرى بعد ذلك فرق الجبال تهبط لتسحق فرق السهول . وإن شاء الله هذا الطفل الرضيع سيكون على وجه التحديد قائدهم . الرضيع الذي تحتضنه اليوم ذراعاً أم صامتة ذات كبرياء . . .

١٧ فبراير :

الحرب . دائماً الحرب . والثلج . والبرد والجوع والغربان . والهدوء

الذى يسبق العاصفة . ثم مرة أخرى البرد والجوع والغربان . الليل ،
ودوريات المرور والطواف في الصقيع . أحد الزملاء لم يرجع . خرجوا
يبحثون عنه بالكلاب . وجدوه في حفرة متجمداً وعيناه مفقوءتين .
فالغربان تبدأ دائماً بالميينين . وفي كل مكان بالجبل ترقد جثث البغال
والجياذ التي نفقت نتيجة الجوع والبرد والمدفع . قال لي فاسوس اليوم :
« أنا لا أتحسر على البشر . فنحن نستحق ما يحدث لنا . لكن ما ذنب
البغال والجياذ ؟ »

٢٣ فبراير :

لماذا ومن أجل من نحارب ؟ في كل يوم يتزايد في نفوس الشك ،
ومعه القلق . وقد وصلت بي الحال إلى حيث أصبحت أخف اللحظات التي
أستطيع احتمالها ، هي تلك التي أقبض فيها بيدي على البندقية . وهذه
حقيقة أرتعد لها . لكن في تلك اللحظات لا يكون لدى من الوقت
والقوة ما يسمح بالتفكير ، فلا يبقى إلا أن أحارب كيوان يدافع عن
جلده . ثم لا تكاد العاصفة تهدأ حتى أواجه مرة أخرى هذا السؤال
الرهيب ينتفض أمامي وينفخ رقبتة كالأفعى : هل نحن الذين نحارب
للباطل والظلم واستعباد اليونان وإنقاذ المجرمين ؟ هل نحن المرتزقة
والخونة ؟ وهل رجال الجبل يمثلون قطاع الطرق والتمردين في ثورة
عام ١٨٢١^(١) ؟ كيف أستطيع أن أكتشف القضية العادلة التي تستحق
أن أضحي بالحياة من أجلها ؟ لا أظن أن المحارب يواجه سؤالاً يعذبه
أكثر من هذا . صباح اليوم ، أمر القومندان بإطلاق النار على خمسة

(١) ظلت اليونان خاضعة للاحتلال العثماني حتى بدأت منذ عام ١٧٧٠ انتفاضات
التحرر هناك ، ووصلت إلى قمته في ثورة ١٨٢١ . كان الوالى العثماني يطلق على
الثوار اليونانيين اسم « التمردين وقطاع الطريق » .
الترجم

صبية ، خمسة فتیان مفعمين بالحياة ، لأنهم رفضوا التجنيد في الجيش الوطني وأصروا على ذلك . وطوال النهار كنت أتساءل : هل يمكن ألا يكون عادلاً هذا الهدف الذي يصنع مثل هذه البطولة ومثل هذا الاستهتار بالموت ؟ لكنني لم أستطع أن أصل إلى جواب . فأنا أعرف من رجال البيرية الأسود من تصرفوا في المعسكر الآخر بنفس هذا القدر من البطولة . كان الأتصار بعد أن بأسروهم يسألون :

« — هل ترغبون في الانضمام إلينا على الجبل ؟ — لا ، لا نريد . — سوف نقتلكم رمياً بالرصاص . — اقتلونا . لقد ولدنا يونانيين وسنموت يونانيين . »

ويطلقون عليهم الرصاص . ويعوتون صائحين : « عاشت اليونان ، عاشت الحرية ! »

البطولة والإيمان لا يصلحان إذن معياراً حاسماً للحكم . فكيف نميز الحق من الباطل ؟ كم من الأبطال والشهداء ضحوا بأنفسهم من أجل هدف باطل ؟ فالله والشيطان : كل واحد من الاثنين له قديسوه وشهداؤه . فكيف نميز بين النوعين ؟

أول مارس :

السماء تختلط بالجبال ، فلا نستطيع أن تميز شيئاً . الضباب يلفنا والثلج يسقط قطعاً كبيرة . ومنذ الصباح نعمل على إزاحة الجليد . اليوم لا حرب . لن يهبط رجال البيرية الأحمر ، ولن نذهب نحن للبحث عنهم . تدخل الله بيننا وبينهم ليعطينا فترة قصيرة نتنفس فيها . حوالى الظهر حضر ستراتيس لزيارتنا . كنا نجلس ملتصقين في أحد أركان المعسكر . أنا ، ومعى صديقي فاسوس ، وبانوس وهو راعي غنم ساذج جدا ، وايثي وهو يهودي شيطان . وقال لنا ستراتيس :

— تعالوا . أنا في حاجة إليكم .

وتبعناه خلال الثلج المتراكم نخوض فيه حتى الركبتين ، وكل منا يحاول أن يسير في آثار من يسبقه . ودفع ستراتيس باب أحد البيوت الخالية . كنا قد أنينا هذا البيت منذ عدة أيام واعتقلنا صاحبيه — الرجل الشيخ وزوجته العجوز — ووضعناهما وراء الأسلاك الشائكة ، لأن لهما ابنين معروفين بالشجاعة يميلان مع المتمردين .

وجدنا في أحد الأركان منضدة ، ووجدنا بلطة ، فكسرتنا المنضدة إلى قطع صغيرة من الخشب لنشعل النار . وبعد المنضدة ، حطمتنا أريكة متداعية . وارتفعت النار وتراقصت في المدفأة . وتلاصقنا حولها نمد أيدينا لنستدفي . وشديئا فشيئا عاد الدم يجري في عروقنا ولعلت وجوهنا . وتبادلنا النظرات . إن أقل الأشياء تكفي لتبعث الفرح في نفس الإنسان . كانت أيدينا تمتد نحو اللهب كأننا نصلي ، وكأن النار أصبحت مرة أخرى إلها — أقدم الآلهة وأحبها وأعظمها في خدمة البشر . حرارتها جعلتنا إخوة متلاصقين ، كالفراريج تحت جناح دجاجة واحدة .

كنا خمسة . ليس منا واحد يحمل نفس أفكار الآخر أو يمارس نفس عمله أو يؤمن مثله بنفس الهدف في الحياة . خمسة عوالم مختلفة . ستراتيس عامل في مطبعة ، وبانوس يرعى الماشية ، وفاسوس نجار ، وليني تاجر ، وأنا طالب . ومع ذلك كانت الحرارة في هذا الوقت تجمعنا في خليط واحد ، وتجعلنا شخصاً واحداً . ذابت عروقنا وقلوبنا معاً . أقدامنا ممتدة في صف واحد أمام المدفأة ، يتصاعد منها ارتياح سميد يصل إلى الركبتين والظهر ثم إلى القلب والرأس . وكان بانوس هامد القوى تماماً ، فنام . ونظرت إليه في حسد ، وتملكتني رغبة في أن أغمس عيني لأعوض الليالي التي فاتني فيها النوم . لكن ستراتيس الكزني :

— أنا أحضركم إلى هنا لتناموا ؟ ا افتحوا عيونكم يا حثالة . عندي شيء هام سأقرؤه لكم .

وسحب من جيبه رسالة وقال :

— أقسم لكم يا أولاد ، أنا لا أعرف كيف وصلت هذه الرسالة إلى جيبى . لا بد أن معنا جاسوس يوزع أحياناً مجلة « الراديكالى » وأحياناً المنشورات الشيوعية والرسائل . اللهم أنى وجدتها فى جيبى هذا الصباح . وقرأتها مرة ومرتين . ولم أصل إلى رأى فيها . فدعوتكم لتقرأها معنا ونناقشها . نعم يا عساكر . هل نحن بالفعل آدميون ، أم قطيع من الخراف نسير مستسلمين إلى الجزر نشغو : ماء ، ماء — أى :

اذبحونا آمين ! اذبحونا آمين !

وغمز له ليشى بعينه ساخرآ :

— قل لى إذن يا ستراتيس يا أخبث الماكرين . هل هذه مصادفة أنك تصاحبنى ؟ يقال إن اليونانيين يغلبهم اليهود ، واليهود يغلبهم الأرمن . وفى حدود معلومأتى ، أنت لست أرمنيا . أليس كذلك ؟ إذن ان تغلبنى . إنك أنت الذى كتبت هذه الرسالة . احذروا يا أولاد ...

ودافع ستراتيس عن نفسه قائلاً :

— مهما كان الشعب ما كراً يا عزيزى ابراهام ، فهو يكشف عن نفسه بأرجله الأربعة . خذ الرسالة وانظر الخط والتوقيع . ها هى .

وأخذ ليشى الرسالة واتحنى بها على النار . وصاح :

— لكن هذا الكلام من أليكوس الأعرج ! إذن فهو حى لم يقتل ؟ يا خسارة الدموع التى سكبتها عليه !

كان أليكوس جندياً ما كراً كالشياطين ، عمل معنا طباخاً . وقبل الحرب كان صاحب محل حاتى فى بريفيزا . شخص سمين أعرج له شارب

كشيف . كنا نجد دائماً في الحساء شعرات من شاربه . وفي أحد الأيام قيل إنه قتل وأكلت بنات آوى جثته . ووزعنا فيما بيننا مخلفاته : بعض الصديريات والأحذية وأربع سكاكين من الفضة كان قد سرقها .
وتصايحنا جميعاً :

— هل هو حى ؟ هل هو حى ؟ اقرأ يا ستراتيس . من أين يكتب ؟ وماذا يقول ؟ حتى هذا الأعرج ؟
وسأل ليثى :

— لمن يكتب ؟

وأجاب ستراتيس :

— ليس لأحد . أو بعبارة أخرى ، لكل الناس . هذه بالفعل رسالة عامة كما يقول بنفسه . ستسمعون . هيه يا بانوس . أيها الراعى العزيز ، استيقظ . افتحوا آذانكم جميعاً !

واقرب ستراتيس من النار وبدأ يقرأ مضخماً صوته :

« أصحابي الأنفار وعساكر المشاه . تحياتى لكم يا أولاد ! أنا الشبيح أليكوس الأعرج . هذه ليست رسالة عادية ، لكنها عامة . فافتحوا عيونكم . مضى شهر تقريباً منذ رحلت من هذا الجزر حيث كانوا يسدون فى ، وحضرت لألحق بالشجعان على الجبال الحرة . يا جماعة الحقى ، لاتسمعوا ما يهرف به الأوساخ الذين يحشون أمعاءكم بالأكاذيب . يزعمون أننا هنا جوعى ، وأننا نقتل الأسرى ونتعامل مع البلغار بين والألبانيين . إنما ترفرف هنا الراية اليونانية وحدها — يشهد على ذلك شاربي الذى أطعمتكم منه شهوراً عديدة . وعندما نقبض على رجل من البيرية الأسود نخيره بين أمرين : هل تريد أن تأتى معنا ؟ إذن مرحباً . هل تريد أن ترحل ؟ إذن ، مع السلامة . وإذا اردتم أن أرد عليكم

بنفس الطريقة يا أولاد ، فأنا أقول : عاش الأمريكان ، الذين يرسلون لكم شحنات اللحم المحفوظ والشاي والسكر والمربي . إن التهمة تنقلب عليكم ونحن الذين نتهمكم . ولو كان الأمريكان يدعون بعض الأشياء تسقط عندنا ، لأصبحنا في خير وفير . لكن من حسن الحظ أن الأب ترومان يعرف ماذا يفعل . ويبدو أنه سيرسل لكم إمدادات جديدة للصيف ، ومعها مدافع وسيارات . ندعو الله أن تصل سريعا حتى يتيأ الناس قبل حلول هذا الفصل الجميل !

« وديني وإيماني ، أنا أفكر فيكم كثيراً ، وأنا أتم لكم . حتى متى تستمرون في الانحدار والتدهور ، يا بلاليس ؟ ألم تدركوا بعد أنكم خسرت المباراة ؟ إننا نعيش مرة أخرى أحداث ثورة ٢١ - يا أصحاب الأبخاخ التركية الأتراك هم أتم ، والمتمردون وقطاع الطريق الذين يحاربون من أجل الحرية هم نحن .

« قال لنا الكابتن يوم أول أمس : دائماً تحارب من أجل الحرية صفوة قليلة ، ولا تلبث دائماً أن تكسب الجماهير . فإذا أردتم نصيحة أيها الحملان الصغيرة ، اقفزوا من فوق سور الحظيرة . افعلوا مثلي . فأنتم لستم عرجاء ! أليس كذلك ؟ اقفزوا من فوق السور وانضموا إلينا . وإلا فسوف تضيعون يا صغاري الأعزاء . ولن يبقى بعد ذلك إلا أن أنوح عليكم . ما أخبار الجزائر قومنداننا السابق ؟ ما أخبار الجاويش السابق ميتروس ، الأحق الطيب ذوالرأس المصنوعة من شحم الخنزير ؟ ما أخبار زميلنا السابق ليونيداس ، الولد الصغير الطيب وأوراقه وأقلامه ؟ العالم يمكن أن يحترق في أي وقت دون أي يشعر هو بشيء . إنه يعني طي الحجر كالتقواقع . وما أخبار زميلنا السابق ابراهام ؟ ألا يزال الشيطان يلبسه

كما كان دائماً ؟ وستراتيس ؟ ألا يزال يسير بنصف قامته وساقاه كالطوق المستدير ؟

« انهضوا أيها الموتى بحق الشيطان ! لا زال في الوقت متسع . اخرجوا من قبوركم يا أولادى المساكين . تعالوا عندنا ، على الجبل ، نشرب ماء الخلود . هذا أنا الذى أكتب لكم . أليكوس ذو القدمين الخفيفتين ، الذى فر من الجزر . الطباخ ذو البيريه الأحمر ! »

وطوى ستراتيس الرسالة وأعادها إلى جيبه قائلاً :

— هذا هو الموضوع . والآن يا أولاد ، يجب أن نناقشه . فليقدم كل واحد رأيه . . فإذا كان ما يقوله صحيحاً
لكن أحداً لم يتكلم . كنا ننظر إلى النار وهى تنطفىء ، وتنطفىء معها قلوبنا . وأخيراً قلت أنا :

— ما جدوى المناقشة يا ستراتيس ؟ دعنا أولاً نهضم فى عقولنا كل هذا ، ثم نتكلم بعد ذلك ...
وعلق ستراتيس فى تهكم :

— هل أنت خائف ؟ هل تخاف أن تقع وتقتل بالرصاص إذا حاولت الفرار من الخدمة ؟
وأجبت :

— لست خائفاً من أن أقتل بالرصاص . لكنى لا أحب أن يكون ذلك من أجل لا شىء . أنا لم أدرك بعد فى أى الجانبين توجد الحقيقة وفى أى الجانبين يوجد الكذب .

ووجه ستراتيس السؤال إلى اليهودى :

— وأنت يا مختون ؟ لاجدوى من غمز العين . ليس هناك أسرار على الآخرين . تكلم على المكشوف .

وقال ليثى وهو ينظر لى ساخراً :

— فى نظرى أنا ، لا تساوى الحقيقة درهما . كل أنواع الخنازير لها
خرطوم واحد .. وقد رأته عيناي كثيراً . فليذهب الجميع إلى الجحيم .
الجميع ، الجميع ..

وبصق فى النار ثم أضاف :

— أنا لا أريد سوى شىء واحد . أن أعيش . وأنا الآن أعيش
كملك : معى بندقية والبوايس يبيع لى أن أقتل . فماذا أطلب أكثر
من ذلك ؟ ليت الحرب إذن تستمر إلى الأبد ! أما أن أعرف من
أقتل ولماذا ، فهذا شىء لا يشغلنى لحظة واحدة .

ونظر إليه ستراتيس فى وجهه قائلاً :

— والكنك فاشستى !

وشحب وجه ليثى ، ومد يده نحو النار التى كادت تنطفئ . وقال

فى همس :

— كيف تستطيع أنت أن تفهم يا صديقى للمسكين ستراتيس ؟
وساد الصمت مرة أخرى . كان يبدو لى أن ستراتيس يريد أن يقول
شيئاً . ونظر إلينا الواحد تلو الآخر ، لكنه لم يلبث أن ابتلع الكلمات
التي تعلقت على طرف لسانه .

واستيقظ بانوس ، ونظر إلى الحجر وتشاءب . ثم رسم على شفتيه
علامة الصليب وبدأ يتكلم :

— قولوا لى يا أولاد . ماذا لو كان لدينا موقد ومعه قوالب فطير

بالجن وطبق به عسل وزجاجة عرقى و ...

واستأنف فاسوس الكلام وهو يتهد :

— وماذا لو لم تكن هناك حرب ، ولو لم يكن لدينا أخوات يطلبن

الزواج ، ولو كنا قد أتينا هذه الجبال كرفاق رحلة لمجرد أن نطارد الحنازير الوحشية بدلا من أن نطارد البشر ...

٣ مارس :

ليس هناك ما يشير الحزن أكثر من أن تحب ، لأنه في الحب يمكن أن ينفصل الإنسان عن حبيبه . وليس هناك ما يشير الفرح أكثر من أن تحب ، لأنه في الحب يمكن أن يعود الإنسان إلى حبيبه . الأيام والأسابيع تمضي ، أحيانا كعاصفة هوجاء من الجنون والدم ، وأحيانا أخرى ثقيلة كجثث الموتى . وأنا أمضى مع الأيام ، لكن عيني تظلان ثابتتين عليك يا ماريو ، وكل جهدي أن ألغى المسافة التي تفصل بيننا . أنا أنظر إلى السحب تسير نحو الجنوب ، فأسترجع في ذهني الأغاني الشعبية التي تستودع السحب والرياح والعصافير رسائل الحب لتحميها إلى المحبوبة . والفتاة تجلس إلى النافذة تنظر إلى السحاب وتفتح ذراعها لتتلقى الحب الذي ينزل إليها مع المطر . اسمي :

« حبيبي الجميل . ليتك سحابة تطير حتى تصل عندي .

ليتك تغني ريحا لينة تلامس سطح منزلي . »

٧ مارس :

الحرب . مرة أخرى الحرب ...

الأيام تزداد رقة ، لكن قلوبنا نحن تزداد قسوة . المتمردون نزلوا ، وصعدنا نحن للملاقاتهم . وحدث الاشتباك في منتصف جانب الجبل . بدأنا بالبنادق ، ثم السنكي ، ثم تصارعت الأجساد . ليس هناك أشد هولا من أن تشعر فوقك بجسم إنسان يحاول أن يقتلك .. تشعر بأنفاسه واللعب الذي يسيل من فمه وخوفه الذي يختلط بخوفك . ثم هذا الغضب الذي يثور داخل نفسك لتقتله ، ليس لأنك تكرهه ، لكن لمجرد أن تمنه

من أن يقتلك هو . أعتقد أن الوصول إلى القتل دون كراهية ، بل بدافع الخوف فقط ، هو أسوأ درجات التدهور .

كنت مشتبكا مع فقي أشقر لا يزال صغيراً جداً ، حافي القدمين ، يرتدى — بدلا من البنطلون — نوعاً من القماط يلفه حول وسطه كما كان يفعل الإغريق القدماء . وغرز أسنانه في عنقي . لكنني في تلك اللحظة لم أشعر بشيء ، وقبضت على وسطه وانحنيت عليه أحاول جاهداً أن ألقيه أرضاً . لم ينطق واحد منا بكلمة . فقط كنا نحن الاثنين ننصت إلى صدرينا يلهثان وعظامنا تنز . كم من الوقت تصارعنا ؟ لا أذكر سوى شيء واحد هو أن ركبتى انهارتا وأن الفقى الأشقر أمسكنى بإحدى يديه ورفع خنجره باليد الأخرى . وفجأة أطلق صرخة حادة وتدحرج تحت قدمي . انفرزت في ظهره سكين . كان أحدهم قد تدخل : ستراتيس ؟ فاسوس ؟ بانوس ؟ لم أستطع أن أحده ، لكنني سمعت فقط صوتاً يقول : « اطمئن يا ليونيداس ! » . ورأيت السكين يبرق ، فانهرت أنا أيضاً . كان الدم يسيل من عنقي ، وجسمي يتألم .

وعدنا بعد أن هبط الليل ، ولحق بي فاسوس قائلاً :

— هل رأيت ؟ لقد أصبته تماماً . لو كان ذلك تأخر لحظة ،

لكنك الآن مع عزرائيل .

وأسرنا ثلاثة : الفقى الأشقر الصغير الذى أصيب بجرح في كتفه فقط ، واثنين آخرين عملاقين كانا قد خرجا إلى الحرب لا يحملان سوى زمزية ماء على أمل أن ينتزعا بأيديهما سلاحاً . وكلفوني مع اثنين من الزملاء أن نحرسهم أثناء الليل . وأعطيناهم قروانة لوبيا مسلوقة وقطعة خبز جافة . وانكفأ العملاقان على الطعام يأكلان على الأرض كالكلاب .

أما الفتي الأشقر فكان يتألم والدم يسيل منه ، فلم يقبل على الأكل . وفتحت الحديث معه قائلاً :

— من أين أنت يا زميل ؟ وما اسمك ؟

— من بارامشيا في منطقة ايبير . أنا نيكوليوس ألافيف .

— ألا تعرفني ؟

— لا يا عمي الصغير . لماذا ؟ هل أعرفك ؟

— لكننا تصارعنا معاً هذا المساء عند ما كنت تعض رقبتى . ماذا

تحمّل في نفسك ضدى ؟

— أنا ؟ وماذا يمكن أن أحمل ضدك يا زميل ؟ أنا لم أرك قط

ولا أعرفك . وأنت ؟ هل تحمّل في نفسك شيئاً ضدى ؟

— لا ، أبداً ...

فقال وهو يطرف بعينيه كأنما يفكر في هذا الموضوع لأول مرة :

— وإذن ؟ إذن لماذا أراد كل منا أن يقتل الآخر ؟

ولم أجب . واقتربت منه أكثر :

— هل تشمر بألم ؟

— طبعاً أشعر بألم . وأنت ما اسمك ؟

— ليونيداس .

— أشعر بألم يا ليونيداس . أشعر بألم . ماذا سيصنعون بي الآن ؟

هل سيقتلونى ؟

— لكن لا . لا تخف يا نيكوليوس . نحن — أقصد هنا —

لا يوجد قتل .

— إذن قل لي ، هل إذا حاولوا قتلى تحمّيني أنت يا ليونيداس ؟

أنا أثق فيك . ولا أعرف عندكم أحداً آخر . قل لي هل تخميني ؟
نحن صديقان ؟

وقلت له وأنا أحمر خجلاً :

— لا تهتم يا نيكوليوس . سأفعل ما أستطيع .

وهل يتوقف الأمر على إرادتي ؟ كيف أستطيع ، أنا العسكري
النفير ، أو الطالب الصغير ، أن أذهب لأقف كاللوح أمام القومندان ،
بل أن أخطو أمامه خطوة واحدة ، لكي لا يقتل نيكوليوس ؟
وفجأة تذكرت الحلم الذي رويته لك منذ عدة أسابيع — سمكة
البيكاريل التي تشكو إلى الله : « لو كنت عادلاً يا يسوع ، فيجب أن
تعطى القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل . » ، واأسفاه ! هذه
السمكة هي أنا !

٨ مارس :

هذا الصباح أعدم الثلاثة معاً . عند ما وضعوهم لصق الحائط ،
استدار الجريح لينظر إلى . كيف أستطيع أن أنسى نظرتي ؟ كان ينتظر
أن أتدخل . أن أقرب من القومندان وأدافع عنه وأنقذه ! لكنني
وقفت ثابتاً لا أنطق . ومع ذلك كنت أرتمد تألماً واستنكاراً . ونظر
إلى نيكوليوس الأليف نظرة مفعمة بالعتاب حتى شعرت بقلبي يتمزق .
وأغمضت عيني حتى لا أرى .

ومر الجاويش ليخرج فرقة التنفيذ . وغاصت ركبتي . ماذا يحدث
لو استدعاني أنا ؟ لو قال : « تقدم قليلاً يا ليونيداس ، أيها المعلم ، لنرى
ما إذا كنت لا تخشى الدم ! » ماذا كنت سأفعل في هذه الحالة ؟
هل كنت سألقى بالبندقية وأصرخ : « اقتلني أنا أيضاً فلم أعد أحمّل » ؟
لا ، لا . فهذه الشجاعة لم تكن ستتوفر لي أبداً . كنت سأطيع الأمر

يا ماريو ، لأنك موجودة وأنا أريد أن أراك مرة أخرى وأعود لأضحك
بين ذراعى . كم من أعمال الجبن ارتكبت هنا من أجلك يا ماريو ،
وكم من أعمال البطولة صنعت . أنت وحدك منذ عرفتك تسيطرين على
أفكارى وأعمالى .

على كل حال ، الحمد لله أن الجاويش مر من أمامى دون أن يشير لى ؛
وأخرج ثلاثة آخرين . وأغمضت عيني . وانفجرت الطلقات . وارتطمت
بالجليد أجساد ثلاثة صدر عن ارتطامها صوت مكتوم . وفتحت عيني
مرة أخرى . كان نيكوليوس الأليف قد تدحرج على الأرض وانعمر
شعره الأشقر فى بركة من الثلج الأحمر .

١٢ مارس :

أصبت بالحمى منذ ثلاثة أيام . وكان ستراتيس يرعانى ... خلال الأيام
الثلاثة كنت سيعداً لأنى لا أدرك أين أوجد . نسيت الجبل والحرب ،
وخيل لى أننى فى ناكسوس عند أسرتى فى الجزيرة . لكنى لم أكن
وحدى ، بل كنا نحن الاثنين معاً . قال لى ستراتيس اننى طوال فترة
الهديان لم أتوقف عن ترديد اسمك وأنا أضحك . هل تعرفين ماذا رأيت ؟
كنا قد حصلنا نحن الاثنين على الدبلوم - أنا وأنت - واصطحبتك
إلى الجزيرة لأقدمك إلى أمى وأبى قائلاً : « ها هى زوجتى . زوجتى .
هل تباركان زواجنا ؟ »

ونزلنا فى الميناء الصغير البائس الذى تفوح منه رائحة الحمضيات الفاسدة
والليمون . وقبل أن آخذك إلى والدى ، ذهبت أريك على الشاطئ
صخرة معبد ديونيزوس وبابه الأثرى الضخم . انتزع إله الخمر حبيبتة آريان
واصطحبها إلى هنا ، وفوق هذه الصخرة اتحدت روحاها لأول مرة .
وجلسنا بين قطع الرخام . وأمسكتك من خصرك . لم أعد أذكر ماذا

قلت لك . أذكر فقط أنني كنت أشعر بنفسى إلهاً . تملكنى سكر سماوى وأنا فى حالة الهديان . كان يخيل إلى أن العالم كله يسقط فى أعماق الموج ، فلا تبرز منه سوى هذه الصخرة الأبدية الراسخة ، ونحن فوقها سعيدان متلاصقان نتأمل البحر الذى يمتد إلى غير نهاية . وعاد الإله إلى الأرض . ديونيزوس عاد إلى الأرض وانتزع ابنة مينوس مرة أخرى ، وجلس الاثنان هنا متلاصقين كما نألم يتغير منهما شئ سوى اسميهما : أصبح ديونيزوس يسمى ليونيداس ، وآريان تسمى ماريو .

وبعد ذلك — بعد ذلك أو فى نفس اللحظة — أصبحنا فى حديقة جدى فى إيجاريس ، القرية الجميلة الخضراء التى تبعد حوالى ساعة عن المدينة . كان ساعدى يحيط دائماً بخصرك ونحن نتنزه تحت الشجر ، ونرى أشجار الورد والتفاح والبرتقال محملة بالثمار . وكان الوقت ظهراً ، وفراشتان كبيرتان فى حجم الكف يتطايران حول شعرك ويسبقان خطواتنا مثل ملاكين . وفى كل لحظة يدوران وينظران ليعرفا ما إذا كنا نتبعهما ، ثم يطيران أمامنا مرة أخرى . وسألتينى أنت وقد التصقت بى فى شئ من القلق :

— إلى أين يذهبان بنا ؟

وضحكت قائلاً :

— ألم تخمى ؟

— لا ..

— إلى الفردوس .

وبقيت فى الفردوس ثلاثة أيام بلياليها . ثلاثة أيام بلياليها فى هدوء وانتعاش وسعادة . هكذا يجب أن يكون الحب ، وربما الموت أيضاً . أما اليوم فقد هبطت الحمى . وفتحت عيني مرة أخرى : المعسكر والبنادق والسناكى ، وستراتيس ينحنى على عطف .

١٣ مارس :

لم أستطع اليوم أن أنهض . أشعر بارهاق مريح . فأنا لا أستطيع أن أحمل بندقية مهما قال الجاويش . أما الآخرون فقد رحلوا منذ أول النهار ليستأنفوا القتال . وكانت الانفجارات تدوى في منعطفات الجبل دون توقف . ومن حين لآخر كانوا يأتون بمجموعة من الجرحى . وامتلاً عنبر النوم بالأنين . لكننى كنت منهكا ، حتى خيل لى أن هذا كله حلم ، ولم أشعر بأى شىء فى العالم . كان كل ما يحيط بى أنين وصراخ وتوجع . لكننى لم أكن أفكر إلا فىك ياماريو وفى الشعر . خلال اليوم كله كانت تحلق فوق رأسى فى عنبر النوم الذى يثير الغشيان أبيات شعرية أربعة لأفلاطون ، تشبه الفراشتين اللتين رأيتهما فى الحلم . الأبيات التى كنا نحبها كثيرا ، هل تذكرين ؟

« خذى مع قلبى هذه التفاحة الحمراء . . .

وإذا رضيت بقلبي ، فاعطينى يدك . . .

وإلا فامضى التفاحة التى فى لون بشرتك

لأنها لن تبقى حتى غد . »

١٨ مارس :

منذ فترة تأتى عندنا امرأة تلف رأسها بمنديل أحمر ، وتتجول حول المعسكر . من حين لآخر تظهر وتختفى دون أن تتمكن من اصطيادها . وفى كل مرة تظهر ، يكون معنى ذلك أن حدثاً سيقع . مرة تنفجر عربة نقل ، ومرة يسقط جسر ، وفى مرات أخرى وجدنا اثنين أو ثلاثة من زملائنا صرعى . وفى كل ليلة ، بل وأحياناً فى وضع النهار ظهراً ، ىرن فى جنبات الجبل صوت غض ، فى الغالب صوت غلام ، يصيح خلال

بوق مكبر للصوت : « أيها الإخوة ، كونوا إخوتنا ! أيها الإخوة ،
كونوا إخوتنا ! »

ويرتعد الراعى الطيب بانوس ويرسم علامة الصليب وبهمس :
« ليس هذا صوت إنسان . إنه بوق الملاك يعلن حلول الدينونة الأخيرة ! »
ونضحك نحن في مرارة . ونسأله :

— والمرأة ذات المنديل يا بانوس ، من تكون ؟

ويجيب في تردد وبعد أن يرسم علامة الصليب أكثر من مرة :

— ربما تكون سيدتنا العذراء .

— إذن فالعذراء تقتل ؟ وترمى القنابل اليدوية وتضع الديناميت

تحت الجسور ؟

— الحقيقة يا بانوس أنت تكفر . وسوف تصيبك اللعنة !

ويفهم بانوس ، ويهرش رأسه قائلاً في همس :

— وهل أعرف أنا يا أولاد ؟ العذراء هي التي تفعل ما تريد ؟

ويتكلم ليثى ليغيظه :

— أما أنا فأقول لك إنها أم الشيطان .

ويجيب بانوس :

— ربما ، ربما . . . كل شيء يحدث . أنا لا أعرف سوى شيء

واحد .

— وما هو يا بانوس ؟ ما هي نبوءتك الجديدة إذن ؟

— الشيء الذي أعرفه هو أننا وقعنا بين يدي الشيطان .

وانتفض ستراتيس . وستراتيس موجود دائماً وفي كل مكان ، ويسمع

كل شيء ، ويشير الجنود . ولهذا أطلقنا عليه اسم « البصلة » أو « جرس

المنبه » . صاح :

— إذن لماذا لا تذهب مع المتمردين يا بلاص ؟

— لأنهم أيضا بين يدي الشيطان .

— وأين الله إذن ؟ هل ترك الأمر ؟

— من المؤكد أنه نام .

وانفجر الجميع ضاحكين ، ولكني قلت :

— إنك أنت النائم يا بانوس . فهل ينام الله مثلك ؟

— بديهي . ألم تسمع هذا من قبل ؟ ماذا تعلمت إذن ؟ نعم ينام .

وعندما ينام يستيقظ الشيطان ويفعل ما يريد . وهكذا بالدور . هل

فهمت ؟ وعندما ينام الشيطان يستيقظ هو . والآن الآب نائم ، ولهذا

السبب سيطر الشيطان علينا . هذا كلام مفهوم . . .

٢٥ مارس :

هبّت ريح دافئة حتى أحسست بالحضرة تنمو في رأسي . وامتلاً قلبي

بزهور حنك السبيع . اليوم العيد القومي . ألقى علينا القائد محاضرة .

علق خارطة لليونان على حائط المعسكر ، وأشار إلى الحدود الشمالية وشرح

لنا لماذا يريد المتمرّدون أن يسلموا مقدونيا وإيبير ، للسلاف والألبان .

كانت عيناه تشتعلان ، وإصبعه يرتعد على حدود اليونان . وضغط بيده

على إيبير ومقدونيا والتراس ، كأنما يريد أن يمك بها . وصاح بصوت

عنيف :

« منذ آلاف السنين عجن اليونانيون هذا التراب بالدم والعرق

والدموع . فهو ترابنا ! ولن ندع أحداً يمد إليه قدمه ، وإلا فالموت

أهون من ذلك ! لهذا السبب نحن هنا الآن يا أبنائي . . . ولهذا السبب

نحارب في إيبير . الموت للخونة ! لامهادنة ! المتمرّد الذي يقع بين برائتنا ،

ليس له سوى الموت ! الغاية تبرر الوسائل . وغايتنا هي إنقاذ اليونان . »

هذا الرجل لا يشير التعاطف قط . فهو فظ حقود ضيق الأفق ،
تسيطر عليه قوة غامضة قاتلة . في داخله وحش متفطرس مجروح .
استطاعت امرأة أن تدلل هذا الوحش وتهديه بالكلمات الحلوة . لكن
هذه المرأة رحلت ، فأصابته بجرح آخر . ومع ذلك ، أشعر نحوه باحترام
غير مفهوم ، وأشعر نحوه بالخوف والشفقة . فهو شجاع وشريف وفقير ،
وهو يؤمن بالمعركة التي يخوضها ، وهو مستعد في كل لحظة للموت في
سبيل اليونان . وعندما نكون معه ، لا نكون على يقين أننا سنقاتل
من الموت ، لكننا نكون على يقين أننا لن نفقد سمعتنا . فالقومندان
هو أحد الرجال القلائل في هذا العصر المتدهور الذين يضعون مثلهم
الأعلى فوق مصالحهم وفوق سعادتهم الشخصية . ربما يكون هذا المثل
الأعلى صحيحاً أو خاطئاً ، لكن المهم أنهم يضحون من أجله بحياتهم .

اختتم القومندان حديثه صائحاً : « اليونان في خطر . وهي تدعونا
لنجدتها ! فيا أيها الأصدقاء المخلصون ، لننقدم كلنا معاً لننقذها ! »
وانهار صوته ، وسالت دموعه من عينيه — عينيه الصغيرتين الغائرتين
في محجريهما بصورة غريبة ...

ونظرت حولى . كان كثير من الجنود يبكون . وميتروس الرومى
كان يعض شاربته ، وبانوس ينظر إلى خارطة اليونان كأنها أيقونة
مقدسة . ومن خلفي كان ستراتيس يتنحنجح متهمكماً ، وليقى يتسهم في
خبت ووجهه شاحب نحيل وعينه حواء .

وهبط الليل ، فتدثرت بمعطفي الثقيل ونمت مع الآخرين دون أن
أززع بندقيتي أو حذائي أو شرائط الرصاص . لكنني لم أستطع أن أنام .
وفكرت . القائد له حق . فالمشكلة هي أن يجد الإنسان مثلاً أعلى يجعله
الهدف الأوحى لوجوده . وإذا ذلك يصبح عمله نبيلاً ، والحياة تكسب

معنى ، والموت يتحول إلى خلود . هذا المثل الأعلى يمكن إعطاؤه أى اسم مقدس : الوطن ، أو الله ، أو الشعر ، أو الحرية ، أو العدالة . فالمهم شيء واحد ، هو أن تؤمن به وتعمل من أجله .

لم يقل الشاعر سولوموس : « إذا احتضنت في نفسك اليونان — أو شيئاً آخر — فسوف تشع في داخلك ، بنخفات المجد كله ؟ » وعبارة « أو شيئاً آخر » تبين إلى أى درجة كان شاعرنا العظيم متقدماً عن عصره .

لكنى يا حبيبتي لم أجد بعد المثل الأعلى الذى أضحي من أجله بحياتي الصغيرة التافهة . فأنا أنتقل من هذا إلى ذلك . أحياناً يغرينى الشعر ، وأحياناً العلم ، وأحياناً الوطن . . ربما لأنى لا زلت صغير السن يفقصنى النضج . وربما لأنى لن أجده قط . فى هذه الحالة يكون ضياعى . فالإنسان لا يصل أبداً إلى شيء عظيم فى هذا العالم إذا لم يخضع حياته لسيد أعلى .

أول أبريل :

هذا الصباح دخل ستراتيس علينا فى ساعة مبكرة كالزوبعة ، يضحك ويرقص ويضرب على نخديه ويرفع عقيرته بالغناء :

« حتى متى يا إخوتى

سنضرب الأماكن

التي تسكنها الأسود المفردة

فى الجبال والصخور ؟ »

وانطلق كالإعصار بين السرائر يشاكس الجميع لكي يستيقظوا من

النوم . وصاحوا فيه :

— ماذا حدث لك يا ستراتيس ؟ هل شربت ؟

— ومن أين كنت سأحصل على الخمر ؟ يا مجموعة الأنفار الملائين !
عندي خبر هائل سأعلنه عليكم ! وعندما تعرفونه ستقفزون إلى
السقف وتضربون أفخاذكم أنتم أيضا وترقصون كال دراويش ! . . .

وقفزنا كلنا وأحطنا به :

— هيا وحب الله ، قل لنا يا ستراتيس هـذا الخبر الهائل لنفرح
نحن أيضاً .

— القومندان هو الوحيد الذي يعرفه ، وهو يكتم سره . لكني
حصلت عليه وجئت أعلنه لكم لتفرحوا أنتم أيضاً .

وتعلقت أنظارنا بشفتيه :

— هيا ، قلبه لنا . أنت تقتلنا .

— منذ لحظة صعدت إلى غرفة القومندان وتسللت خلف الباب .

كان هذا هو الوقت الذي يفتح فيه الراديو ليستمع الأخبار . وهتف في
نفسى شيء ما أن هناك أخباراً من أئينا . فأرهفت السمع ، وإذا بي
أسمع شيئاً لو قلبته لكم لقتلكم الفرح !

— هل ترك رجال البيرييه الأحمر قمة النسور ؟

وصاح ستراتيس :

— بل أحسن من هذا ، أحسن من هذا كثيراً . لنسمع واحداً

آخر . أنت يا بانوس ، قل أى كلام أيها الحمل !

وتكلم الراعى الساذج :

— ماذا أقول ؟ هل استولينا على أريجورا كاسترو ؟

— قلت لكم أحسن من هـذا كثيراً . تكلم أنت أيها العالم

الكبير .

وأجبت وأنا أضحك ، لكن قلبي كان يدق بشدة :

— الحرب انتهت ؟

— لقد وجدتها ! أحييك يا سليمان الحكيم ! الحرب انتهت
يا إخوتي ! قادة الجبال من ناحية ، والملك من ناحية أخرى مع وزرائه
وجنرالاته ، اجتمعوا كلهم في أثينا ليتصالحوا قائلين : « لماذا نقتل بعضنا
بعضاً يا أولاد ؟ ألسنا أخوة ؟ وإذا نزعنا البيريهات الحمراء والسوداء ،
ألا تصبح رؤوسنا جميعاً يونانية ؟ إذن كفى مذابح . أتم شجيمان ونحن
شجيمان . . فلنتصافح ! » وبعد ذلك تصالحوا ووقعوا بعض الأوراق
وتبادلوا الأحضان . كل هذا في نفس الليلة . وأعطوا التعليمات بإعادتنا
إلى بيوتنا وبأن ينزل الأنصار من الجبال . وفي كل قرية سيقومون الموائد
ويحضرون الحمر ويرقصون ويقذفون بالبيريهات الحمراء والسوداء في
الهواء . وفي اللحظة التي أكلتم فيها ، تمتلئ أثينا بالألعاب النارية وتدق
الأجراس وينتشر الشعب في الشوارع وتفتح الكاتدرائية أبوابها للملك
ليرتل « أنت يارب » .

وقفزنا جميعاً على ستراتيس لعناقته ، ثم بدأنا نعانق بعضنا ونطاق
صيحات الفرح . كان بعضنا يبكي والبعض الآخر يرقص ، والجميع
يتعانقون . « المسيح قام » . لا بد أننا كنا وحوشاً ، ولا بد أننا كنا
مليونين ، حتى نذبح بعضنا بعضاً طوال هذا الوقت . تحيا اليونان !
وقذف ستراتيس البيريه إلى السقف وصاح :

— لنخرج يا أولاد ونجتمع في موكب ! سندق الجرس ونستدعي
القسيس ليأتي ومعه إنجيله إلى المعسكر ليحتفل بهذه النعمة الإلهية .
وأسرعنا جميعاً إلى الخارج ، إلى الطريق . وبدأنا ننشد النشيد
الوطني . وتفتحت الأبواب والنوافذ وخرج أهل القرية .

— ماذا يحدث يا أولاد ؟

— انتهت الحرب يا إخوتي . ماتت ! أخرجوا راياتكم ،
وأخرجوا براميل النبيذ لشرب منها . فالحرب انتهت .
وأسرع القرويون إلى الشارع وهم يرمون الصليب . ووقفت النساء
والفتيات على عتبات البيوت يتصاحن :
— وداعاً يا أولاد ، عودة طيبة .

وخرج الأب ياناروس من الكنيسة يجرى فاتحاً ذراعيه . وهو
شيخ يعقد شعره في مؤخرة رأسه لكنه صلب المراس ، كان قد لعب
دوراً بارزاً في الحرب الألبانية ، ولا زالت آثار الجروح تغطي صدره .
وصاح الأب ياناروس :

— ماذا أسمع يا أبنائي ؟ هل انتهت الحرب ؟

وأجاب ستراتيس :

— ضع البطرشيل على كتفك يا أبي واحمل الإنجيل وهيا نهىء
القومندان . أنت تلقي خطبة ونحن نستصدر منه إعلان التسريح .
الحرب انتهت . ماتت . اللعنة عليها !

وبدأ ستراتيس ينشد في سرور الموسيقى الجنائزية : « هيا نودع
الوداع الأخير ! » ورسم القسيس علامة الصليب وامتلت عيناه
بالدموع . وقال :

— الصلح ؟ الصلح ؟ قولوا لي مرة أخرى يا أبنائي ليفرح

قلبي !

وصحنا جميعاً بأعلى صوت :

— الصلح ! الصلح ! هيا البس البطرشيل .

وظهر ميتروس وهو يلهث وصاح :

— ماذا يحدث يا أولاد ؟ ماذا أصابكم ؟

— الحرب انتهت يا ميتروس العزيز ! ستعود إلى سريرك الصغير مع مدام ميتروس .

وفغر ميتروس فاه وتوقف قلبه . وأخيراً تكلم :

— أنتم جادون في هذا الكلام ؟ هل حقاً انتهت هذه الحرب اللعينة ؟ ومن أخبركم بذلك ؟
— صفارات الإنذار .

وأخذ ميتروس يدق بيديه ويرقص ويصيح :

— تهبنا أرض الروم ! كل واحد يمسك يد الآخر أيها الإخوة ،
وانرقص لنحتفل بموت عزرائيل . . .

وامتدت الأيدي ، وتماسك خمسة جنود أو ستة وبدأوا يرقصون
رقصة التساميكو .

وخلال ذلك وصل القسيس يرتدى البطرشيل ذا الأطراف المطرزة
ويعمسك حامل الإنجيل الفضي . . قال :

— قدموا الشكر لله . هذا هو البعث الحقيقي ! سيروا !

وبدأنا السير ومعنا القرية كلها رجالاً ونساء . كانوا ينطلقون خلفنا
ويدقون أبواب البيوت التي نمر عليها ويصيحون :

— تعالوا ! تعالوا !

وكنت أسير إلى جانب ستراتيس ، لكن أفكارى كانت تسبقني .
تخيلت نفسي وقد وصلت إلى أئينا أدق باب حجرتك ، وتفتحين الباب
وتجديني واقفاً على عتبة ، فترعين في حضني وأقبل عنقك وأقبل الشامة
على خدك . وأعجز عن الكلام ، أختنق ، لأنى أجد في رأسى من الأشياء
أكثر مما أستطيع أن أعبه عنه . ونذهب إلى ناكسوس كما رأيت في الحلم ،
لنحصل على بركة أبى وأمى ، ونعقد الزواج في حديقة جدى فى إيجاريس ،

تحت أشجار البرتقال بين الورود . تخيلات ذلك كله في رأسي ، وأفكارى
تطير لتخلق حول شعرك كأنها فراشات .

وفجأة رفع ستراتيس يده وقال :

— قفوا يا أولاد . عندي كلمة أقولها لكم !

ووقف الناس جميعاً ، فصاح وهو ينفجر بالضحك :

— هذه أ كذوبة ! هذه أ كذوبة ! كذبة أبريل !

وذهلنا . فوقفنا متبلدين . وغاصت ركبتي . وطأطأ القسيس رأسه

وتهد ، ثم نزع البطرشيل ولفه حول حامل الإنجيل ، واستدار دون كلمة
عائداً إلى الكنيسة .

كان حتى تلك اللحظة يدق الأرض بقدميه كالحصان ، فإذا به الآن

يجر قدميه محطماً كشيخ عاجز . وتفرقنا نحن في صمت . لم تظهر لنا

الحرب في أى وقت مضى ثقيلة بهذه الدرجة التى لا تحتمل . اختفى كل

ما كان يملأ عيوننا : أمهاتنا وبيوتنا وزوجاتنا . وعدنا إلى المعسكر :

إلى القاذورات والبنادق .

٣ أبريل :

منذ أول أمس أصبحت الحياة بالنسبة لنا أثقل كثيراً . فقد

استشعرنا السعادة التى فرت منا ، وأدركنا أن شيئاً واحداً — شيئاً

بسيطاً جداً — يكفى ليعيد إلينا آدميتنا . لكن هذا الشئ لا يحدث ،

ولهذا نبقى وحوشاً . نحن الموبة فى يد قوة غامضة لا أعرف اسمها . هل

هذه القوة عمياء لا تحس ولا تشعر ، أم أنها بالمعكس واعية شريرة ؟

فكرت فى ذلك كثيراً منذ أول أمس . أحياناً يبدو لى أن هذه القوة

هى القدر . وأحياناً يبدو لى أنها الشيطان ، وأحياناً الله . هذه القوة

تحكم العالم وتنفذ أغراضها — التى لا يعرف أحد ما هى — وتستخدم



في سبيل ذلك السلم والحرب على التوالي . واليوم تستخدم الحرب .
فالشقاء لمن يريدون السلام ! ما أكثر ما أفكر وما أكثر ما أتساءل .
هل هي قادرة على كل شيء ، واعية كانت أو عمياء ؟ وإذا كانت كذلك ،
فكيف نستطيع أن نقاومها ؟ أليس الأحرى إذن أن نتحالف معها
ونتقبل مصيرنا القاسى دون معارضة ، ونمارس الحرب بكل أجسادنا
وأرواحنا ، فنساعدنا بذلك في حدود طاقتنا وقوانا الضعيفة على أن
تنفذ اغراضها ؟ لكن إذا لم تكن قادرة على كل شيء ، ألا يكون
الأجدر إذن أن نقاومها ؟ وأن نتبع الأغراض الصحيحة النابعة من
قلوبنا ، وأن نعيد للأرض حكم الطبيعة الذى هو حكم الإنسان ؟ روحى
تأرجح في هذا المأزق عاجزة عن التحديد . ومع ذلك فإن سعادتى
ونجاحى يتوقفان على عملية الاختيار هذه .

ويبدو لى أن الإغريق القدماء اختاروا الطريق الأول ، طريق
الانسجام مع القدر ، ولهذا حققوا معجزات فى الجمال . واتبع المسيحيون
الطريق الثانى ، فحققوا معجزات فى الحب . فالطريقان يمكن إذن أن
يدفعا الإنسان إلى المعجزات ؟ !

يا حبيبة قلبى . كلما تعمقت هذه الأمور ازددت تخبطا فى التناقضات
لا أصل أبداً إلى اكتشاف حجة ثابتة تتيح لى أن أتعلق بها لأجد
الراحة .

ومع ذلك أشعر بأننى لو كنت قريباً منك أمسك يدك فى يدي ،
لوجدت جواباً لكل هذه الأسئلة ، جواباً بسيطاً واضحاً . لكنك
بعيدة ، فى آخر العالم ! ويدي الممدودة لا تلتقى سوى الفراغ ، فأسقط
غارقاً فيه . ماريو حبيبتي ، أنا معذب جداً وضائع جداً . وأنا أحتاج
بشدة إلى أن أضغط على يدك الصغيرة . لكنى أمسك ببندقية !

٧ أبريل :

الحرمان من النوم . الجوع . الحرب . كيف يستطيع جسمنا المسكين أن يقاوم ؟ إنه لم يصنع من خشب البلوط ولا من الحجر ، لكن من اللحم فقط . ثم ليتنا كنا نملك الإيمان .

كيف استطعنا أن نصمد من قبل في ألبانيا ، في الجبال ، بلا ملابس ولا أحذية ولا طعام ؟ كيف استطعنا أن نحقق هذه المعجزة التي تسمى الحرب الألبانية ؟ كثيراً ما يحدث أن أفكر في سلاتنا الرومية التي كتب عليها القهر والاضطهاد والجوع ، فتثير في نفسي الإعجاب والشفقة . منذ كم ألف سنة تشبثنا بهذه الصخور والحقول الضيقة لنقاوم زحف البرابرة ؟ ! ولم نقنع بالمقاومة ، بل وجدنا القوة والوقت لنقدم للعالم أحسن وأتمن شيئين : حرية النفس ووضوح الروح . اخترعنا المنطق والقياس وأدخلنا النظام إلى العماء والفوضى . وأنقذنا العالم من الخوف .

ولم يكن هناك البرابرة فقط ، بل كانت الحرب الأهلية أيضاً تندلع دورياً من فترة لأخرى منذ آلاف السنين فتخضب اليونان بالدم ، حتى قيل إن الروح تحتاج إلى أن تنغمس في جريمة قتل الأخ لأخيه حتى تنتج هذه التحف الرائعة . وهذه في الحقيقة فكرة تثير الذعر . ومن يدرى ربما كانت الحرب الحالية لازمة أيضاً لتعطي روحنا طفرة جديدة . وما أكثر الأرواح اليونانية التي انغمست في هذه الفورة اللعينة ، فتشككت وتصلبت . وعندما يجف الدم ويعود الهدوء ، سوف تله هذه الأرواح تحفا رائعة ، بدافع الاستنكار والعزة والحاجة إلى تخطي الشعور بالألم . فهل نبارك الحرب إذن ؟ هذه فكرة تملأ النفس بالذعر . ومع ذلك ، فهل هذه هي الحقيقة يا حبيبة قلبي ؟ هل هذه هي الحقيقة ؟

١١ ابريل :

في هذه الأيام ننتظر أن يمر علينا الجنرال للتفتيش . و ننتظر أيضاً تدعياً عسكرياً للقيام بهجوم عام . فهم مهتمون بإزاحة المتمردين تماماً من أعلى الجبل . القومندان قال لنا أكثر من مرة : « كاستلوس مركز استراتيجي ، فمن يسيطر عليها يسيطر على مدينة جانينا . » وفي بعض الأحيان عند ما يكون النهار شديد الصفاء ، نستطيع بالمنظار المكبر أن نرى أطراف هذه المدينة الأسطورية على شاطئ البحيرة يحيط بها الضباب . وفي البحيرة ترقد كنوز على باشا وجسد فيرافروسيني . الجسد الذي خلدته الشعر ، كما خلد جسد هيلين . مرة أخرى أشعر أن الأب الأكبر لسالتنا هوميروس عاد يملأ جوانحي . وتختلج في نفسي رغبة كأنها بذرة تنبت في أعماقي ، رغبة كلتك عنها كثيراً يا حبيبتى : أن يعطيك الله القدرة يوماً على أن أغني هذا الالتقاء بين هوميروس وهيلين . إن هيلين أصبحت اليوم عجوزاً ، ذبل عنقها وتساقطت أسنانها وشعرها . ومات مينيلاس . أما الأبطال الذين حاربوا من أجلها ، فقد مات بعضهم وانكس البعض الآخر أطفالاً . ولم يعد أحد يذكر هيلين ، رمز الجمال اليوناني وابنة زيوس رئيس الآلهة . (١) فهي تجلس وحيدة على شاطئ نهر يوروتاس تفكر في حياتها ، وحولها أشجار الورد . لماذا ولدت ؟ من أجل من ؟ ضاعت حياتها هباء من أجل لا أحد . لمعت مثل ومضة خاطفة ثم انطفأت . النسيان يحيط بها ، والأجيال الجديدة لا تذكر اسمها . فهل ماتت إذن كأعشاب الحقول ؟ وجسدها الذي كان يشير العالم ، ألم

(١) في السطور التالية محاولة مستمدة من الأساطير اليونانية القديمة ترمز إلى تدهور اليونان خلال العصور السابقة ، والأمل في أن تعود إليها بعد ذلك روحها الساحرة — هيلين — فيتجدد شبابها واستعيد مجدها . (للترجم)

يكن هو الذي اصطفاه القدر ؟ ألم تكن روحها عظيمة لا تستطيع كل
البحار أن تحتويها ؟ وتتهدى هيلين تحت شجر الورد : يجب أن أهرب !
يجب أن أرحل مرة أخرى إلى هناك ! يبدو أن محباً إلهياً يجاذبها بالغناء
من شاطئ بعيد .. « آه لأذهب مرة أخرى ، لأهرب من الموت ! »
وتهبط إلى مجرى اليوروتاس ، وتنتقل من نهر إلى شاطئ حق تصل إلى
البحر . وتخلع ملابسها وتغوص في الموج وتبدأ السباحة . يا للطراوة !
يا للهناء ! هذا هو ماء الخلود ، البحر ! وترفع رأسها وتسبح نحو آسيا
بضربات واسعة . وطى شاطئ أيونيا يجلس شيخ مهيب هادى كأنه
تمثال إله . أعمى ، ولحيته في لون الثلج . يجلس بين حصى الشاطئ
الأبيض مرتفع الرأس ، يدير نحو اليونان ثقبى محجريه . ومن هناك تأتي
نسمة منعشة ، ويطلع النهار ، ويشعر الشيخ أن اللون الأحمر جرى
في وجهه . ويهمس : يا للحلاوة ! يا للنسمة المنعشة ! ما أجمل النغم في
همسات الموج !

وفي هذه اللحظة يرتفع من الشاطئ غناء . ويرهف الأعمى أذنه
ويعتلى رأسه الأشيب بالموسيقى . ويمد يده نحو اليونان كأنما يمدّها نحو
شخص يفرق . وهيلين كانت قد سبحت طوال الليل ، وبرزت من
الأمواج رأسها . ولم تكذب تقرب من شاطئ أيونيا حتى استعاد شعرها
لونه الأسود وتماسك ثدياها وأصبحت مشدودين ، وعاد حاجباها يستديران
كالقوس ، واكتسب ثغرها ألواناً جديدة . وعندما نظرت في خيوط
الفجر الأولى فرأت الشيخ يمد يده ، أدركت لأول مرة لماذا ولدت وإلى
أين كانت تسبح . وهتفت :

— أبى ! أبى !

ونفض الشيخ وخاض في البحر ، فأنعش الموج قدميه الخافيتين . وأجاب

وهو يفتح لها ذراعيه :

— هيلين ، ابنتي !

وعادت هيلين عذراء إلى الأبد ، شابة إلى الأبد ، ودخلت دائرة الخلود .

حبيبة قلبي ، هل سأجد الوقت لأكتب هذه الأغنية عن هيلين ؟ هل سأخرج من هذه الجبال على قيد الحياة ؟ هل سأراك مرة أخرى ؟ في بعض الأيام تطوف بروحي وساوس سوداء ، لكنني أستمد الشجاعة منك . فالحب يغلب الموت .

١٣ ابريل :

تلقيت اليوم رسالة من عمي فيليساريوس ، الأستاذ بالمعاش ، دفعتني إلى التفكير الشديد رغم أنها غاظتني كثيراً . سأنقلها لك ، كي تدركي إلى أي مدى يمكن أن تذهب البلاغة بالإنسان عندما يعلق على نفسه برجاً عاجياً ويمسك بشعرة ليقسمها إلى أربعة . أنت تعرفين عمي ، فقد ذهبنا معاً لزيارته . كان يدخن غليونه في المكتبة ، ويحدثنا عن المشاكل الكبرى وعن المدينة والله والحرب ، ويقطع الورق أثناء كلامه ليصنع منه لعباً مختلفة يضعها أمامه في صف ويبتسم . هل تذكرين كيف سحرتنا كلماته ، وكيف كانت عميقة ومؤلمة ؟ لكنه في إحدى العبارات المؤثرة ، بدأ يصنع لعبة جديدة من الورق وهو يتكلم ، ثم توقف فجأة وأخذ يضحك . ولم نحتمل ذلك . إذ لم نعد نعرف هل كان مخلصاً فيما قال أم كان يسخر منا .

هكذا كنت أتصور دائماً هؤلاء الأواخر الكبار في المدن العظيمة : أناس يتأملون البشرية من ارتفاع شاهق ، حتى لتبدو مجموعة من الحشرات المحتشدة . أحياناً حشرات مضيئة من نوع فراشات الضوء ،

وأحياناً حشرات مقززة من نوع صراصير البالوعات . والأرض كلها تبدو في نظرهم « قرعة جو زهند » تتقاذفها الأمواج . وهم يحلقون عالياً فوق العواصف التي تجتاحنا ، ثم لا يشعرون إزاء ذلك إلا بأننا مثيرون للتسلية ، أو للشفقة الباردة المجردة . لكنهم لا يحركون إصبعاً صغيراً لينقذوا هذه الجوزة من العرق . عند ما كنت أكله عما ندرس في الجامعة ، كان يبتسم بطريقة سيئة . وسألته يوماً لماذا يسخر مني ، فقال :

— عند ما تكبر ربما تفهم . فالوقت مبكر جداً الآن بالنسبة لك ، وسوف تضيع كلماتي عبثاً . ثم جازج جداً أنك ابن تفهم أبدأ . أما أنا يا ولدي العزيز (وهو دائماً يناديني بذلك عند ما يريد أن يتهمكم) فأنظر إلى المدينيات بعيني شاعر . إنها غمامات تصعد وتتضخم وتنفخ بالمطر والأعاصير والبرق . ثم تهب نسمة صغيرة فلا تلبث أن تتغير ، وإذا هي تسح وتتفكك وتكتسب اللون الأحمر عند الغسق . ثم تهب الريح مرة أخرى ، فإذا هي قد اختفت . هل تستطيع أنت في يوم من الأيام أن تنظر بهذه الطريقة إلى المدينيات والبشر والآلهة ؟ في رأي أن هذا عسير . ومع ذلك فلا بد أن تحاول يا ولدي العزيز . تشجع !

لكنني لا أنتهي عند ما أتكلم عن عمي . فيجب أن أترك له القلم الآن .

يبدو أنه كان رائق البال يوم كتب هذه الرسالة . وستبين أنه يهاجم فيها ببراءة كل الناس وكل الأفكار . لكن لاحظي أيضاً كيف يبدو مسروراً وهو يعضى في تلاعبه حتى النهاية .

« تحياني إلى ابن أخي العزيز ليونيداس ، الذي لا يتربع على عرش

اسبرطة !

« يبدو أن شخصك العبقري يقاسى من هذا الأكل العقلي الذي

يشير معظم المراهقين . فهم يخترعون المشاكل ، ثم يعجزون عن حلها ، فيأسون من الله ومن الشيطان ومن روح الإنسان . وبعد ذلك يطلقون صرخات الألم ويطلبون النجدة من عمهم . ولكن أى نجدة تنتظرها من بومة أثينية عجوز ؟ أنت تصيح قائلاً : « هواء ! هواء ! » لكن ادخل في شوك المشاكل الأبدية التي تشبه القنفاذ الخيفة ! تعذب واجلس على أشواكها أنت أيضاً مثل كل الناس . أما إذا شعرت يوماً بأن الدم الذي تعلقه ليس دمهم ولكنك دمك أنت ، فلتستسلم إذن دون قيد ولا شرط لتحصل على السلام . بل يجب أن تختار لنفسك شوكة كبيرة تجلس عليها .. أعني فكرة كبيرة تؤمن بها . ولديك أشياء كثيرة لتختار : الوطن والدين والعلم والفن والمجد والشيوعية والفاشية والمساواة والأخوة .. فأنتم أيها الشباب لديكم فرصة كبيرة . فقد وصلت في لحظة متأخرة . وفي أيامنا هذه توجد عشرات الأفكار الكبيرة .. لأنه لا توجد ولا فكرة كبيرة . وهم يبيعون بالتخفيض . ولما كان الوقت قد تأخر كما قلت لك ، فالأثمان تزداد انخفاضاً . فأنت تستطيع أن تحصل على فكرة كبيرة بقطعة خبز .

« عندما كنت أنا شاباً ، أذكر أني رأيت في جزيرتنا مشعوذاً إيطالياً يضع على رأسه قبعة بريشة ، ويزعم أنه يعرف دواء كل داء . كانت له عربة تجرها حمارة مسكينة اسمها كارولين ، ولا أعرف لماذا أعطاها اسماً . وكان يسميها أيضاً كاروليتوس . وكانت جيوبه مليئة بالزجاجات الصغيرة والمساحيق والمراهم . فإذا كنت مريضاً ، فهو يشفي كل شيء ، ويخلع الأسنان ويبيع العيون الزجاجية والخطاطيف لدوى الأذرع المبتورة ، والسيقان الخشبية وأحزمة الفتق . وعنده أيضاً أوراق سحرية

ضد آلام الحب . وعنده فأر أبيض يستطيع أن ينتقى بطرف بوزه
التذكرة التي تحمل حظك مكتوباً بالشعر .

« والروح البشرية يا عزيزي ليونيداس هي تماماً مثل كاروليتوس .
قل لها عن ألمك وستجد لك على الفور الدواء الناجع . وإذا كان لي أن
أصدق بعض رسائلك ، فأنا أظن أنك وجدت بالفعل دواء يبدو أن أثره
سيكون خارقاً . تريد أن تعرف : من أين أتينا ، وإلى أين نذهب ،
ولماذا ، وكيف ؟ هذا مرض خطير ! لكن كاروليتوس ستمثر على
دواء له . بل أنا أعرف دواءه فعلاً ، لأنني أشبه كاروليتوس إلى حد ما .
دواؤك اسمه ماريو . ماريو ستزودك بجواب عن كل هذه الأسئلة . خذ كل
مساء قبل النوم نقطتين أو ثلاثاً من النقط التي تسمى ماريو ، وستجد
الراحة . خذ أكثر من ذلك إذا استطعت . وكلما تناولت منها أكثر ،
ارتحت أكثر .. أنت ستتصور أنني أهزل كالمعتاد ، وأني لا أريد أن
أناقش معك الأمور بطريقة جدية . لكنك مخطيء يا ولدي العزيز .
إنما أقدم لك هنا ثمرة خبرة طويلة . ولتعلم أنني لا أومن مطلقاً بقدره
الإنسان ، ولا أصدق الأفكار الكبيرة التي تعذب المراهقين . فهي مجرد
فورة طارئة . ذلك أن دماءهم ثائرة ، وأتفه الأشياء تجعلها تغلي .
هل العالم له بداية ونهاية ؟ هل الوجود له هدف ؟ هل البيضة سبقت
الدجاجة أم الدجاجة سبقت البيضة ؟ كل هذا يا ولدي العزيز ليس أكثر
من مرض جلدي .

« وهم يظنون غائبين في القلق غارقين في التأملات العميقة ، حتى
يقابل الواحد منهم في صباح يوم جميل ، فتاة قروية سمينة ، أو حضرية
عجفاء ، كل واحد منهم وما يتفق مع ذوقه . وسرعان ما يفغر فمه : فقد
وجد الجواب . يتزوجها ويهدأ بقية عمره .

« هذا ما أريد أن أقول لك عن الناس وقلقتهم وأفكارهم الكبيرة . فأنا لا أصدقها ، لأن عندي منها الكثير . والخطباء الذين يكلمونكم عن الحب ، والساسة الذين يخرقون آذانكم بالحديث عن الوطن والشرف والعدالة ، كلهم يثيرون الغثيان . وهم يمتنون أى شىء يقتربون منه . كل الناس يعرفون ذلك ، وهم يعرفونه قبل غيرهم ، لكن أحداً لا يجروء على أن يبصق فى وجوههم .

« بدأت رسالتى بالابتسام ، لكن الغضب تملكنى عندما تذكرت هذه الأشياء التى تحيط بنا . الغضب والاشمئزاز . لا تتصور أنى شخص سبى إذا لم أشاركك فى مشاعر القلق الكبير . اعذرني إذا قلت لك إنك ترتكب بهذا إسفافاً يثير الأعصاب . فأنا لم أحمل نفسى مشقة إرسال هذا الخطاب كمرم للعلاج إلا لأننى أشفق عليك . فاقراء كلما شعرت بالأكل فى روحك ، وسوف يهدئك . أما أنا فقد تلقيت مرها آخر أصابنى بالتسمم . فأصبحت نفسى كالجمارة كارولين تجر روحى التى تشبه المشعوذ . وأصبح العزاء لا يجدى مع هذه النفس ، لأنها عرفت جيداً أنواع الالف والدوران التى تتحايل بها الروح ، وفقدت الثقة فيها تماماً . لكنها لا تزال تجرها مع كل ما تحمل من أدوية ، وتسمعها تتفنن فى إلقاء المواعظ ، فتز رأسها فى استسلام . ومع ذلك ، فرغم أن مرضى هذا لا علاج له ، فأنا أفضله على الطب الذى تعالج نفسك به . أنا أرفض أن أبحث عن مهرب وراء أى فكرة كبيرة . وفى هذا الإعصار أمشى خلال الريح وتحت المطر وفى الطرق المهجورة حافياً عارى الرأس ، بدون بيريه أسود ولا بيريه أحمر ، بدون أمل . أمشى وقد تصلبت رقبتى مثل الملك لير ، لكن ليس لأن بناتى هجرننى ، بل لأننى أنا هجرتهن .

« وحين أسقط فى منتصف الطريق ، أحب أن أنتهى كما انتهى أحد

ضباط الجيوش المرتزقة في إيطاليا . واسمه ستروتشى . أنا أحبه كثيراً .
مات في ٢٠ يولييه ١٥٥٨ ، وهو تاريخ مقدس بالنسبة لى ا ركع بجانبه
صديق محاص وهو محتضر ، وتوسل إليه ويدها مضمومتان :

— أنت آثم كبير ، فاعلمن توبتك ! تب عن حياتك ! فسوف تمث
أمام الله . ارسم علامة الصليب واذكر اسم الرب !

فزجر ستروتشى قائلاً وهو يموت :

— اسم من ؟ اللعنة ! لقد انتهى الحفل .

« وبعد ... عندي أشياء أخرى كثيرة أريد أن أكتبها لك . لكنك
أصغر كثيراً من أن تحملها .. ومن المؤكد أنى آلمتك بالفعل . فالوداع
إذن . اقتل من إخوتك قدر ما تستطيع . هذا شيء قدر ، لكنك لست
مستولاً عنه . فلتحاول على الأقل أن تعود حياً لتستكمل الدورة ..
طفولة سعيدة ، ومراهقة تثير الأكل ، زفاف ، أولاد ، عذاب ، موت .
أمسية سعيدة !

« عملك فيلبسار بروس »

(خادم شيطانى للاله)

أو بنفس المعنى :

(خادم إلهى للشيطان) . «

١٥ ابريل :

الأسبوع المقدس . الجرس يدق دقات الحزن . ذهبنا إلى الكنيسة
نسمع آلام الرب . « هوذا العريس مقبل . » الأب ياناروس هو الذى
ألقى القداس . لكنه لم يلبث أن ترك نفسه ينحرف . بدأ بالحديث عن
المسيح ، ثم خلط كل شيء بالتدريج ، وأخذ يتحدث عن اليونان .

اليونان هي التي تتألم ، وهي التي تضرب بالسياط وتصلب من أجل خلاص البشرية .

واغرورقت العيون بالدموع . فهذا الكاهن يملك قوة غامضة غير محدودة وإيماناً لا يتزعزع . يملك شيئاً رقيقاً ووحشياً في نفس الوقت . يفيض من عينيه ومن لحيته ألم عميق ، يعطيه صورة تشبه موسى . وهو دائماً ينطلق في المقدمة ويخترق القفار ، لكننا نحن الجبناء لا نتبعه . عند ما كان يتكلم ، اختلطت في أرواحنا أيضاً صورة المسيح الصلوب باليونان : بيوتنا وأصدقائنا وحياتنا التي تضيع عبثاً . . .

كل واحد منا كان يرى المسيح في شكل مختلف : فهو مثلاً قطعة أرض بور غير صالحة ، أو تكعيبية كرم مهملة ، أو قطيع يفتك به الموت ، أو بيت مهجور ، أو امرأة شابة ، أو طفل رضيع . . . كل واحد كان يبكي في المسيح فقدان شيء عزيز عليه . فقد كنا نراه حقاً على الأرض يرقد أمامنا فاقد الحياة ، فنبكي جميعاً في انتظار قيامه ...

وأنا أيضاً يا ماريو كنت أبكي ذلك اليوم وأنا أفكر فيك . اتخذ المسيح وجهك الحلو ، فلم أستطع أن أمسك دموعي عند ما انحنيت عليه أقبله في الكنيسة .

الاثنين المقدس ، ظهرآ :

حبيبتي . انتشر الدفء اليوم وسطعت الشمس ، وقفز قلابي عند ما رأيت في الجو أولى عصفير السنونو !

حتى هنا في هذه الجبال القاسية ، حل الربيع يا ماريو . والمسيح يقوم من الأرض في صورة نبات أخضر . والطيور المهاجرة تعود ، وتبدأ على الفور في بناء أعشاشها . ويعود الأمل أيضاً كعصفورة

السنونو بعد غيبة طويلة . يعود إلى عشه القديم — قلب الإنسان —
ويتهياً ليضع فيه بيضه . . .

اليوم ، وبعد هذا القلق الذي استمر يتملكني طوال الشتاء ،
شعرت بقلبي يمتلىء بالبيض . كل شيء سيسير طي ما يرام يا حبيبتي .
فلا تقلقي . اطمئني . سوف تتفتح الأزهار ويفرخ البيض ، وتتحقق
أحلامنا في الحياة : بيت ، وابن ، وأغنية هيلين .

أنا أومن بالروح . أومن بأن لها أجنحة وأنها تطير وتستكشف
الأشياء التي ستحدث قبل أن تراها العين . وهذا المساء طارت روحى
يا ماريو ، وشاهدتك في بيت صغير ، بيتنا ، تمسكين بين ذراعيك قطعة
صغيرة من إنسان يشبهنا . اطمئني إذن يا حبيبتي . فكل شيء سيسير
طي ما يرام .

الاثنين المقدس ، مساء :

« الموت يجثم على روحى . .

كما المريض في دور النقاهاة

يستعيد شيئاً فشيئاً طعم الحياة .

« الموت يجثم على روحى . .

أشم رائحته أحلى من زهور الشاطيء

عند ما تهب طي البحر من بعيد عاصفة .

« الموت يجثم على روحى . .

مثل ذكرى البيت البعيد

تسكن روح السجين طي طول ما يحتمل العذاب . »

هنا انقطعت فجأة يوميات ليونيداس . فقد قتل يوم الثلاثاء
المقدس .

وأغلق المدرس الأوراق المكتوبة التي يخضبها الدم . وانحنى يقبأها
كأنما يقبل جسد الولد المسكين نفسه .

لم تكن عيناه تدمعان . وقلبه أصبح قطعة من حجر . بدت الحياة
في نظره شريرة ، ظالمة ، لا قلب لها ولا عقل ، كل شيء فيها خاضع
للمصادفة .

٨

وقف خمسة أو ستة من أهل القرية يوم الجمعة المقدس يتناقشون في ساحة الكنيسة . كان منهم ستليانوس النساج الذي عض العمدة أذنه ، وأندرياس الحداد ، وكريا كوس منادى القرية ذو الشعر المرسل المدهون بالزيت ، وبانا جوس الحلاق ، وكان حافي القدمين حزينا يلبس صديرية سوداء . وفي وسطهم وقف الأب مندراس ، أكبر أصحاب الأملاك في القرية . وهو مراب نحيف الجسم ، أعجم كالعصا ، له عينان صغيرتان خبيثتان .

أما شيخ أعيان القرية — ويسمونه الحاج — فكان يستدفيء على المصطبة بجوار الباب . كانت مفاصله الملتهبة تؤلمه بشدة ، لكنه تحامل على نفسه حتى وصل إلى الكنيسة وهو يئن ويتوجع . أراد أن يحصل على بعض أعواد الريحان ونبات إكليل الجبل من فوق قبر المسيح ، ليحرقها ويعالج نفسه بدخانها . أجداده منذ القدم يعالجون الروماتيزم بحرق جذور النباتات المباركة . فما حاجته إلى الأطباء إذن ؟ هذا اختراع

شيطاني لا يوثق فيه . والمؤكد أن الأعشاب المباركة أحسن وأكثر فائدة .
والحاج رجل لثيم جداً . رحل في شبابه إلى بعيد ورأى بلاداً كثيرة .
ووصل إلى أثينا بل إلى بيروت ، وانتهى إلى نهر الأردن . وهناك استحم
في مياهه المقدسة ليصبح حاجاً . وكان يقول لنفسه : « مفيد جداً أن
تكون حاجاً . فاحترام الناس لك يزداد ، ويصبح من الأسهل عليك
أن تخدعهم . » وهذا ما حدث بالفعل . فلم يكذب يخرج من مياه الأردن
حتى خطرت له فيما يشبه التجلي فكرة إلهية .. أشرفت في رأسه فكرة
عظيمة . كان حتى ذلك الوقت يعمل حمالاً أو ماسح أحذية ، وأحياناً
يقوم ببعض أعمال التهريب . وكان يهلك نفسه من التعب ويتعرض لآلاف
المخاطر ، ورغم ذلك لا يحصل على القدر المناسب من النقود . أما الآن
وقد أصبح حاجاً ، فقد أشرفت روحه . صرف مدخراته في شراء قطعة
كبيرة من الخيش وبعض الأوتاد ولفة من الحبال ، وبدأ يجوب المدن
والقرى على طول الساحل . وحيثما يصل يدق الأوتاد ويمد الخيش لينصب
خيمة يضع عليها راية مكتوب عليها بحروف كبيرة : « أسرار الزواج » .
ويقف أمام الخيمة ثم يأخذ في الصفيح بإصبعيه . ويجتمع حوله حشد .
وإذ ذاك يرسم الحاج المحتمل علامة الصليب بكل احترام ، ثم يقفز على
مقعد ويبدأ الصياح : « سيداتي سادتي . في هذا المكان المغلق ستتكشف
لكم الآن أسرار الزواج الرهيبة ! الدخول لا يكلف سوى فرنك واحد .
فرنك واحد ! ما قيمة فرنك صغير ؟ وهل للفرنك روح ؟ لكن في
مقابل هذا الفرنك الحقير ستشاهدون أسرار الزواج الرهيبة التي تجعل
شعر رؤوسكم يقف . وإذا لم يقف شعر رؤوسكم ، فأنا أقسم بشرف الحاج
أن أعيد لكم الفرنك . والله يشهد على كلامي ! تعالوا . تعالوا .
لا تترددوا . سيداتي سادتي . بالترتيب . المكان يتسع للجميع . »

وطبيعى أن أحداً لا يتحرك . ويصفر الحاج مرة أخرى ، ويعيد كلمات
الشموذة . ودأماً ينتهى الأمر بأن يجد شخصاً ما ، يكون فى الغالب
أعزب ، يضع يده فى جيبه ويدفع فرنكا ليعرف أسرار الزواج . ويرفع
الحاج قطعة خيش ويدخله الخيمة . وينظر الرجل حوله ، ثم يفرك عينيه ،
لكنه لا يرى شيئاً ، فيقول له : « هل ترى شيئاً يا عزيزى ؟ لا . أنت
لا ترى شيئاً . ولا فائدة من أن تصاب بالتهاب فى أعصاب رقبتك . فليس
هناك شىء تراه . لكن خيراً لك ألا تقول ذلك للآخرين عندما تخرج .
سيقولون إنك مغفل . الأحسن أن تحكى لهم أنك فهمت ما هى المرأة
وما هو الزواج . هذا ما يجب أن نقوله للآخرين حتى يشربوا المقلب هم
أيضاً فلا يسخروا منك . فهمت ؟ إلى اللقاء إذن . أترك مكانك الآن
لمن سيأتون بعدك . »

بهذه الطريقة استطاع الحاج أن يكسب بعض المال . ولم يلبث أن
عاد إلى القرية وعلى صديريته سلسلة ذهبية كالأعيان . لكنه كان قد
أصبح شيخاً هرمًا . وهو الآن يقضى أيامه على المصطبة أمام الكنيسة ،
شبه مخبول ، كسيحاً مصاباً بالصمم ، ليس فى فمه سن واحد ، يسيل لعابه
ويهرش ركبتيه الملتهبتين .

وقف الآخرون فى ساحة الكنيسة يتناقشون ويتشاجرون .. بدأت
المشكلة حول الأناجيل التى قرئت ليلة أمس فى قداس المساء . لم يكن
الأب مندراس يفهم لماذا ثار المسيح ضد الشريعة اليهودية ، ما دام الله
نفسه هو الذى أنزل هذه الشريعة على موسى فى جبل سيناء . أما أندرياس
فلم يكن يفهم لماذا لم يطلب المسيح الملائكة ليبيدوا العبرانيين ، ما دام
قادرًا على كل شىء ، مع أن هذا الأمر لم يكن سيتطلب منه سوى طرقة
إصبعين ! قال :

— هذا ما كنت أفعله لو كنت مكانه . ذلك أنه إذا كان الشخص
إلهآ ، فلماذا يتصرف كالحمل ؟ لو كنت أنا ، لتصرفت كالأسد ا
ما رأيك في ذلك أنت يا كريا كوس ؟

وسهل كريا كوس وهرش رأسه . منذ سنوات وهو يفعل كل
ما يستطيع ليصبح قسيسآ .. وبدأت أمامه إذ ذاك فرصة سانحة للكلام .
قال لنفسه : « يجب أن أتكلم وأنور الآخرين . » كان على قسط ما
من التعليم . وكلمنا وجد نفسه بعيدآ عن الأب ياناروس ، شعر بجرأة
كبيرة في التعبير عن رأيه .

هكذا أطلق صوته الجهـورى الذى يرتل به ، وبدأ يكلمهم عن
المسيح . كان المسيح رجلا طيبآ فقيرآ ، شعره طويل مرسل ، لأنه كان
يريد هو أيضاً مثل كريا كوس أن يصبح قسيسآ ليحمل إلى الناس كلمة
الحق . لكن الأغنياء والقادرين اضطهدوه وأهانوه وضربوه . واليوم
— يوم الجمعة المقدس — أخذوه ليقتلوه .

وعقب المرابي مندراس على هذه الكلمات قائلا :

— هذا ما يحدث لمن يرفع رأسه .

ونظر كريا كوس حوله ليتأكد من أن الأب ياناروس لم يظهر بعد .
وعندما رأى أنه غير موجود تجاسر على الرد . كان قد عثر منذ عدة
شهور على تفسير لتصرف المسيح ، وهو لا يملك الحق في الاستئثار وحده
بهذا التفسير ، فالنور يجب ألا يبقى فى الصندوق . لهذا شرع فى تنوير
أهل قريته :

— اعلّموا أن المسيح فى ذلك الوقت كان بالنسبة للمجتمع ما نسميه

فى القواعد ، الفعل الشاذ أو الاسم الممنوع من الصرف .

وقال الحلاق باناجوس :

— ماذا ؟ ألا تستطيع أن تتكلم كما يتكلم الناس يا صعلوك ؟
ولكنه استمر :

— معنى ذلك أن الناس الذين كانوا حوله ، وهم الكتبة والفريسيون
وعنيا وقيافا ، كانوا أفعالا قياسية تصرف وفق القاعدة . كان لديهم
قوانين مكتوبة ، وهم يتبعون هذه القوانين من أيام أجدادهم ، ويعرفون
بدقة ما هو الخير وما هو الشر ، وما هي الأمانة وما هو عدم الأمانة ،
لأنهم كانوا يسترشدون بما يسمى الوصايا العشر . وكل من كان يتبعها
كانت علاقته بالمجتمع سمياً على عسل . لكن من يخالفها يعتبر متمرداً ،
لا يكاد يرفع رأسه حتى يثور المجتمع غضباً عندما يرى قواعده تهتز .
ويقبضون على الفعل الشاذ ويقولون له : « ألا تستطيع أن تصرف
نفسك وفق القاعدة مثل كل الناس ؟ » ، وهنا ، طاخ ا يسوون
حسابهم معه .

وحك ستليانوس أذنه ، وكانت لا تزال تؤلمه ، وقال :

— آه ! الأمر كذلك إذن ؟ لكن أي الجانبين على حق ؟ أنا
لا أفهم . هل الفرد الواحد يملك الحق في معارضة الأغلبية ؟ هل يملك
أن يرفض ميراث آبائه قائلاً : هذا لا يعجبني ؟ فمثلاً يأتي شخص ويدخل
بيق ومعه بلطة ويقول لي : « نول النسيج الذي تشتغل عليه لا قيمة له »
ثم يحطمه ؟ لكن هذا النول ورثته عن آبائي وأجدادي ، وهم الذين
علموني أن أكسب رزقي بهذه الطريقة ، ثم تأتي أنت ...
وانطلق الحداد يقاطعه :

— المسيح على حق . والا ماذا يا أولاد ؟ هل الناس مياه راكدة ،
تتحول إلى طين فقط ؟ العالم يتحرك . فهو شيء حي ، له حياة وعمر .
في فترة الطفولة ، كان يرتدى ملابس مختلفة . والآن بعد أن كبر ، ألقى

لغافات الطفولة وأصبح يرتدى البنطلون . ما رأيكم ؟ لغافات الطفولة
ومناديل الرضاعة مفيدة طبعاً ، أنا لا أنكر ذلك . لكنها تصلح للأطفال
الرضع . والمسيح هو أول من أدرك أنه لم يعد طفلاً رضيعاً . وأنا أقصد
بلغافات الطفولة ومناديل الرضاعة ، القوانين القديمة . هذه القوانين
أصبحت في نظره غير كافية . هل فهمتم ؟

وتدخل الثرى مندراس ، وكان قد بدأ يشعر بالغيظ :

— يبدو أنك تفهم ، هل ما أظن ، أليس كذلك ؟ لكن قل لي ،
أين تعلمت هذه الأشياء كلها ؟ هل تعلمتها على السندان ؟
ورد عليه الحداد ثائراً :

— أنت يا من تملك الحقول ، خير لك أن تنصت جيداً . الحديد
عندما يدخل النار يصبح ليناً تماماً . وسوف تصبح أنت كالحديد اللين .
فاحذرا ! وإذا كان يهملك أن تفهم كيف تعلمت أن الأشياء الصلبة تلين ،
فاعرف أنني تعلمت ذلك على السندان .

وقاطعه كريا كوس صائحاً وهو في قمة السرور :

— نعم . والنار هي المسيح .

ونظر الأب مندراس إلى الحداد نظرات حادة قائلاً :

— آه ! هكذا إذن ؟ لا شك أنهم على حق حين يسمونك

البلشفي . .

وأخذ أندرياس الحداد يضحك .

— منذ الآن لن يسموني البلشفي ، سيسمونني الفعل الشاذ ! بارك

الله في كريا كوس الذي فتح عيني !

وكان الحاج لا يزال جالساً على المصطبة ، لا يستطيع أن يعبر بدقة

ما يحدث أمامه . كان يرى هؤلاء يصيحون ويلوحون دون أن يعرف :

ما هو الشيء الذى يختلفون على توزيعه فيتشاجرون بهذه الطريقة ؟
وأرهنف السمع على قدر ما يستطيع لكن دون جدوى ، فلم يصل إلى
أذنيه سوى ضوضاء مختلطة كأنها صوت مجموعة من السلاحف تتخاطب
وتضرب كل منها درقتها فى درقة الأخرى . وكان يسأل كل لحظة :
— ماذا يحدث ؟

ويسيل اللعاب من فمه دون أن يحصل على جواب ، فيسأل مرة
أخرى :

— ماذا يحدث يا أصدقاء ؟

وأخيراً ثارت أعصاب باناجوس فاقرب منه وصاح فى أذنه :

— يريدون أن يفتحوا صندوقك . هل تسمع ؟ يريدون أن يعرفوا
عدد النقود التى عندك .

وارتمت كل فرائص الشيخ ، وكاد لجمه ينفصل عن عظامه . وسأل
وهو يتهته :

— من هذا ؟ من هذا ؟

واتسمت بقع اللعاب على صدر ثيابه .

وصاح الحلاق فى أذنه :

— الفقراء ! الفقراء والجوعى والحفاة !

وتضحك الشيخ واطمأن قلبه ، وقال :

— الفقراء ؟ فليذهبوا إلى الجحيم ! الله موجود .

ومال الحلاق على أذنه مرة أخرى وصاح :

— لكن الفقراء لهم رب هم أيضا . رب يمشى حافى القدمين جائعا

ويرسم الصليبان الحمراء على أبواب الأغنياء . وقد رسم على بابك صليبا

أحمر يا حاج . ألا تعرف ذلك ؟

وارتعد الشيخ مرة أخرى . أراد أن يتكلم ، لكن لسانه تلعثم .
وأشفق عليه ستليانوس فقال :

— أترك الشيخ المسكين . ستصيبه أزمة في قلبه .

وانفجر الأب مندراس صائحا :

— أيها الحلاق القذر . من الذى يدفعك إلى مهاجمتنا ؟ هل هو

مدرس القرية ؟ أم أنه الأب ياناروس القسيس الأحمر ؟ هذا الكلام
ليس مصادفة .

وأجاب الحلاق وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— لا المدرس ولا الأب ياناروس ، ولكنه طفل ذو ثلاث سنوات

مات من الجوع أول أمس أمام عيني .

— أنت مجنون ! أى طفل ؟

— طفلى أنا .

وصمت الجميع . فقد حدث بالفعل أن ابنه مات من الجوع منذ

يومين . وكان قد أغلق دكانه من عدة شهور لأن أهل القرية لم يعد

لديهم ثمن الحلاقة فأرسلوا الحام وشعورهم .

وقف الجميع صامتين في خجل كأنهم هم الذين قتلوا الولد الصغير

بأيديهم . ولم تكدمر لحظة حتى وصل العرجى ماتيوس في حالة

اضطراب ، وشعر بالارتياح حين رأى زملاءه ، فصاح :

— لقد ضعنا ، والمجد لله ! يبدو أنه لم يعد لدينا ذخيرة ، ورجال

البيريه الأحمر عرفوا ذلك . وسوف يصلون بين لحظة وأخرى ،

ويقلبون كل شيء إلى حريق ودم . وسنسلم لهم !

وفرك ماتيوس المسكين يديه في فرح . فهو أ كول شره لكنه

لا يجد ما يأكل ، وهو سكير لكنه لا يجد ما يشرب ، وهو زير نساء

لكنه فقير وفيه قدر والنساء يرفضنه . لهذا كان ساخطا على العالم كله .
كان يقول : « طالما أنى لست غنيا فيجب ألا يوجد أغنياء . طالما أنى
لا أجد الطعام فيجب ألا يأكل أحد . هكذا يكون الله والعدالة ! »
وثار الأب مندراس ورفع عصاه وهجم عليه :
— ابلع لسانك ياسافل ! لو كان الله يسمع للغربان ، مابق إنسان
واحد على قيد الحياة !

وأمسك الحداد بذراعيه قائلا :

— العجلة تدور يا أب مندراس ، فيجب ألا تغضب . الفقراء
سيصبحون أغنياء ، والأغنياء سيصبحون فقراء . هذا شيء يجب أن يمر
على الجميع . والراهب الذى حضر أول أمس ومعه حزام العذراء الحقيقي ،
لم تسمع ماذا قال وهو يمشى أمام المعسكر ؟ كان يصيح : « اقتلوا
يا أولاد ، اقتلوا لتستحقوا الخلاص ! » فلنقتل إذن !
وأجاب الثرى :

— لكنه كان يريد أن تقتلوا الحجر لا أصحاب الأملاك الشرفاء !
وأخذ أندرياس يضحك :

— لا تثق فى شيء أيها المالك الشريف ! من المؤكد أن راهبا
آخر سيحضر ليلقى المواعظ باسم الأنصار ، وسيقول : « اقتلوا رجال
البيرية الأسود ، اقتلوا أصحاب الأملاك ، لتكسبوا الخلاص ! » فهم أيضاً
يقتلون . وماتيوس يقول الحقيقة . فأنا أعتقد أننا ضعفا .

لكن ماتيوس لم يكن قد انتهى من الكلام :

— قل لى إذن أيها المالك مندراس ، هل تعرف المثل القائل —
ولا تؤاخذنى : الشيطان يأخذ نصف الثروة الحلال ونصف الثروة الحرام
ثم يأخذ بعد ذلك صاحب الثروة ؟ أنا عندى شعور أن الدود ان يتمكن

من الزحف على جثتك أيها المرابي ، لأن الشيطان سيخطفك بسرعة !
وفي قفزة واحدة خرج من الكنيسة . وقذف الشيخ الثرى عصاه
فأصابت الحائط وارتدت بعد أن أسقطت بعض الجير .
في هذه اللحظة خرج الأب ياناروس من غرفته . كان قد سمع صوت
الشجار في الفناء ، لكنه كان غارقاً في آلام المسيح وآلام البشر . وعبثاً
كان يفكر فلا يمر على حل . وظلت عيناه تترددان بين لوحة الدينونة
الأخيرة هدية صديقه الشهيد أرسينوس وأيقونة القديس قسطنطين
الانستناري . وفكر في نفسه : « آه لو كان الإنسان يستطيع أن يرقص
على الحجر الملتهب ! لو كان يستطيع أن يسير في هذا العالم دون أن يسقط
في اليأس والخوف واللعنة ! »

وسيطرت عليه فكرة وهو ينظر إلى الأيقونة :

« إن الله ليس ماء بارداً نشربه لمنتعش . الله نار يجب أن نمشي فوقها .
لا نمشي فقط ، بل نرقص . ومن المؤكد أنه عندما يصل الإنسان إلى
هذه الدرجة لا تلبث النار أن تتحول إلى ماء منعش . لكن ، يا إلهي ،
ما أقسى ما يحتمل الإنسان من الصراع والألم قبل أن يبلغ ذلك ! »
ونهمض . كان قد قضى النهار في تزيين المذبح بالزهور البرية التي
أحضروها له من براستوفا ، وأنزل المسيح من على الصليب وسجاء على
الزهور البرية ، وانحنى فوقه يقبل قدميه اللاميتين وجنبه الذي يسيل
منه بغزارة لون أحمر وأبيض . وقال له وهو ينزله :

« تعال واصبر يا ولدي . لا يهملك شيء ، فأنت الله ، وسوف تقوم

من الموت . فلتنم . »

والآن شعر الأب ياناروس بأنه وحيد في غرفته ، والأصوات في
داخله لا تتوقف لحظة ولا تتعب من المطالبة بجواب . ونهمض مضطرباً ،
واتخذ قراراً :

« سأذهب إلى الكنيسة . إنى أحمل مسؤوليات ثقيلة . فقريق في خطر . ونفسى في خطر . ويجب أن أحصل على جواب . هل اليمين أم اليسار ؟ أريد جواباً واسم الله ! »

ورسم الصليب ثم خرج من غرفته عارى الرأس حافى القدمين مكتئباً . وهمس ستليانوس عندما رآه غارقاً فى الهم :

— انتبهوا يا أولاد !

وأفسحوا الطريق ليسمحوا له بالمرور . لكن الأب ياناروس لم يلق عليهم نظرة واحدة .. كانت عيناه غائمتين معلقتين على الله ، فلم ير أحداً . وخاطر الحداد بالسؤال :

— هل من جديد يا أبى ؟ هل قاربت آلامنا أن تنتهى ؟

— أنا ذاهب أكلم الله ، فليس عندى وقت أضيعه مع البشر .

ونظر الأب مندراس إلى القسيس فى حقد وقال له :

— لكن لا تذهب لتعد لنا خدعة . إن عينيك تمتلئان بالخيانة .

— بل عيناي تمتلئان بأطفال يموتون . دعنى إذن .

— أنا لا أخشى فى القرية أحداً سواك يا أب ياناروس .

— وأنت أيضاً بالنسبة لى يا أب مندراس . ألا تستطيع أن تنسى

مرة واحدة مصلحتك الشخصية التافهة وتفكر فى القرية ؟

— القرية ومصلحتى أنا شىء واحد . ثم ما الذى ترمى إليه ؟ أنت

تضع فى فم الله ما يفيدك شخصياً ثم تعلن من أعلى الكرسي : « هذا

ما قاله الله لى ! » لكن الله لم يقله لك أيها الدجال إلا لأنك أمليته عليه .

وعاد الحاج يصخب ويحك ركبتيه من الألم ؟

— ماذا يقولون ؟ ماذا يقولون ؟ لماذا يتشاجرون ؟

لكن أحدا لم يرد عليه . فقد كانت أنظار الجميع معلقة على قعابي
القرية وهما يتبارزان .

وأزاح الأب ياناروس المالك الثرى قائلا :

— القسيس هو فم الله في الأرض . لا تضيف خطيئة الكفر إلى
آثامك الأخرى . إن في ضميرك عددا كافيا من الأرامل واليتامى .
وفتح المرابي الشيخ فمه ليرد ، عندما تردد فجأة صهيل جعلهم جميعا
ينظرون . وانقض عليهم القومندان على حصانه يمدو بأقصى سرعة ،
ويرفع سوطه ويفرقع به الهواء كالمجنون . كان احتشاد أهل القرية حول
القسيس قد أثار انتباهه ، وخيل إليه أن الحائن لا بد يدبر الآن مؤامرة ما .

وصاح القومندان كأنه يموى :

— يا بلغارين ! يا بلاشفة ! ياخونة !

وكان يدير حصانه كالزوبعة ، حتى أرغى فمه كفم صاحبه .

وتفرق الجميع ، ماعدا الأب ياناروس الذي ظل واقفا على عتبة
الكنيسة .

— سأشنتك وأعلقك من رجلك يا غراب ! لماذا تحشد الناس ؟

ماذا كنت تروج بينهم ؟

وأجاب الأب ياناروس بصوت فيه هدوء وقسوة :

— أنا أشفق عليك ، أيها القومندان . أنا أشفق عليك . فقلبك

يمتلئ مما ، وأنت تريد أن تسمم كل شيء . لكن الله موجود !

وتقدم خطوة وأمسك بالحصان من لجامه . وفصدت عينا القومندان

دما ، ورفع السوط وزمجر :

« أيها الغراب ! »

لكن القسيس نظر إليه ووجهه يفيض بالمرارة والشفقة وقال له في هدوء :

— يا ابني ، ألسنت إنساناً ؟ ألا تذكر أحياناً أمك ؟ دعني أكلك .
وتردد القومندان وغاض الدم من وجهه . أغمض عينيه ، وفي ومضة
سريعة اختفى كل شيء أمامه — كل شيء ما عدا منظر مهزوز لبیت صغير
على عتبه عجز ضئيلة تنتظر ابنها محطمة مبتسمة غارقة في روب لم تلبسه
بعد ذلك إلا على سرير الموت . لكن القومندان استطاع في هذه الومضة
السريعة أن يميز التجاعيد على وجهها والصبر والاستكانة يملآن عينها
والدبول في شفيتها . .

وجأة اختفى ذلك كله : المنزل وعتبه والأم العجوز . وفتح
القومندان عينيه . ورأى أمامه الأب ياناروس ، فقال له وهو يزوم :
— ماذا تريد ؟ قلت لك من قبل ألا تنظر لي هكذا . انصرف .
وقال الأب ياناروس وهو ينظر إلى القومندان في عطف لكن
دون أن يترك لجام الحصان :

— يا ابني ، ألا تستطيع أن تسمعني في هدوء ؟

— تكلم ، ماذا تريد ؟

— هذه لحظة رهيبية يا ابني ، سوف تسجل عليك طوال حياتك ،
وسوف نرى الآن إذا كنت إنساناً بحق . وأبناؤك وأحفادك سيحكمون
على ما ستفعل . والله سيحكم أيضاً .

— تكلم ، تكلم ، أنا أسمعك .

— مصير هذه القرية موضوع بين يديك . فأنت تستطيع أن تفعل كل

شيء في كاستلوس . تستطيع أن تقبض الحياة وأن تدعها . تستطيع أن

تجعل القرية رماداً وأن تنقذها من الهلاك . عليك أن تختار . فهل

قررت ؟

— لا توجه لي الأسئلة . إلى أي شيء ترمي ؟

— أن أحرك قلبك ، إذا كان لا يزال لك قلب . ولهذا السبب سألتك عما إذا كنت تذكر أمك أحياناً .

وعوى القومندان كأنما طعنه أحد بسكين :

— لا تذكر بعد ذلك أمي ! أنا لا أحب أن تتكلم عن أمي .

وقال الأب ياناروس وقد أضاء وجهه :

— إذن لا يزال لك قلب أيها القومندان . المجد لله ! لا يزال لك قلب . ترحل عن حصانك وتعال نجلس نحن الاثنين على مصطبة الكنيسة . نستطيع أن ننسى الماضي — عليه اللعنة — ونعمل معاً على إنقاذ القرية . ألا تأخذك الرحمة ؟ في كاستلوس أنت تمسك السيف ، وأنا أمسك كلمة الله . تعال إذن ، ترحل يا ابني ، لنجمع معاً هاتين القوتين الهائلتين .

وكان الأب ياناروس أثناء كلامه يربت بخفة على صدر الحصان الغارق في العرق وينظر إلى القومندان في توصل .

ثم عاد يقول في إلحاح :

— تعال ، تعال . ارسم علامة الصليب ، وقرر .

كانت الشمس قد آذنت بالغروب . وبدا اللون البنفسجي يكسو الجبال . ومن بعيد انطلقت الصيحات الأولى من بنات آوى . ومر من فوق الكنيسة سرب من الغربان لا يسمع له صوت . ومن قمة النسور هبت ريح باردة .

واستمر الأب ياناروس يقول :

— ليس الأمر أمر كاستلوس فقط يا ابني ، لكن هناك أيضاً

اليونان كلها ، والعالم . إن المسيح في خطر ، فقرر ...

ولم يستطع القومندان أن يصمت ، فصرخ :

— احرص ! المسيح ، المسيح ، اليونان ! ...
وتناثرت الرغبة من فمه :

— أنت تعود إلى الدجل ! تكلم بصراحة . هل تريد أن أسلم القرية
للمتمردين ؟ هيه ؟ أليس هذا ما تريد ؟ هيه ؟ أليس هذا ما تريد
يا خائن ؟ خذ ! خذ ! ...

وجعل يضرب الأب ياناروس بالسوط على خده ورقبته وهو يموى
في هياج شديد .

وصاح القسيس وعيناه تمتلئان بالدموع :

— يا ابني ، يا ابني ، لا زال في الوقت متسع . أنت تجرى نحو
الهاوية . قف ، قف . سوف تهلك !

وزجر القومندان وهو يهز الحصان حتى يدميه :

— حسناً ، سوف أهلك ! لقد قررت ! سوف أهلك !

وصاح الأب ياناروس :

— وأنا أيضاً قررت . وسوف يختار الله !

واختفى القومندان عند منعطف الطريق ، لكن صهيل الحصان

ظلي يتردد من شدة ضربات المهماز .

ووقف الشيخ بلا حركة يتأمل الظلام ياف السماء . ووضع يده على

خده وعلى رقبته ، وشعر إذ ذاك بأنه يتألم . ورفع يده . كانت مخضبة بالدم .

وقال لنفسه هامساً :

— لن أنتظر بعد ذلك شيئاً من البشر . وما حاجتي إلى البشر ؟

أماي الله وسوف أكله .

انتشرت في أرجاء الكنيسة رائحة البخور والزهور البرية . ومن خلال النوافذ الضيقة في القبة ذات الزجاج الملون تسالت الأشعة الأخيرة للشمس وهي تنحدر ، خضراء وحمراء وزرقاء ، فنزات على صورة المسيح خالق الأشياء كلها . كان الأب ياناروس قد رسم هذه الصورة بيده منذ سنوات عديدة ووضعها على ظهرها فوق حامل خشبي . لم يرسم المسيح في الصورة قاسياً غاضباً كما جرى العرف ، بل رسمه حزيناً شاحباً متألماً كاللاجئ الطريد . وكان يهمس لنفسه وهو يرسمه : « أنا نفسي لاجئ طريد . طردوني من بلدي في أرض التراس الحصبة ، وعشت هنا في جبال إيبيير الموحشة أكفح دون هدوء لأجعل من هؤلاء الوحوش بشراً . وفي هذا البلد ، المسيح لاجئ أيضاً . ولهذا سأرسمه في صورة لاجئ . » واستخدم الأب ياناروس الأصفر والأخضر ليرسم له خدين غائرين ، وأبرز طرفي شفثيه ورسم تجميدات واضحة في رقبته ، وخطط حول عينيه - فقط - أشعة ذهبية طويلة تضيء وجهه المحطم وتملؤه بالأمل . وجعله

على وسادة مستطيلة مطرزة بصور العصفير والسمك والبشر . ووضع في يده بدلا من الإنجيل طائراً صغيراً قبيح المنظر جناحاه كبيران . وعند ما جاء الأسقف أثناء مروره على رعاة الكنائس ورأى هذه الصورة سأل في استنكار شديد :

— المسيح يمسك في يده دائماً الإنجيل المقدس أو كرة زرقاء ترمز للأرض . فماذا وضعت أنت في يده ؟ فأرآ ؟ يا إلهي ارحمنا ! وأجاب الأب ياناروس في غضب :

— انظر جيداً يا صاحب الغبطة . ألا ترى أن له جناحين ؟

— حسناً ، ماذا يكون إذن ؟

— الفأر الذي أكل جسد مولانا على المائدة المقدسة فنبت له

جناحان في جنبيه . الخفاش .

وصاح الأسقف :

— خفاش ! وما معنى ذلك بحق السماء ؟ ألا تنجبل ياأب ياناروس ؟

واحتد القسيس وقال :

— يا صاحب الغبطة ، أنت تفهم ببطء ، إنه يمسك روح الإنسان !

هذا الفأر الذي يأكل جسد مولانا فينبت له جناحان ، هو الروح .

دخل الأب ياناروس الكنيسة كيأتما يجري من شيطان ، ودفع

المزلاج ونظر حوله . لكن عينيه كانتا ترسلان لهبا ، فلم يلمح الأمهات

المتشحات بالسواد محتشدن في جانب غير مضيء وينشجن حول قبر

المسيح . كان أبناؤهن قد قتلوا في الأسابيع الماضية ، فحضرن إلى الكنيسة

منذ الصباح الباكر آتيات من القرى المجاورة ، ووجدن الباب مفتوحا

والمسيح راقدًا على الكفن ، فدخلن وأخذن يرددن البكائيات المعروفة .

كن قد بدأن يبكين المسيح لكن لم يلبثن أن نسين ذلك شيئًا فشيئًا ،

فأزاحت كل منهن الشال على كتفها وأخذت تبيكي ابها . وكن خمس
أمهات في ثياب الحداد ، أعطين المسيح في ذلك اليوم خمسة أسماء ، كل
واحدة منهن كانت تنادى اسما : ستيلْيوس ! يانا كوس ! مار كوس !
ديميتروس ! أرسوتوليس !

وفجأة انفتح باب الكنيسة في دوى يشبه الانفجار . ودخل القسيس
كالزوبعة . فتلاصقت النساء الباكيات في ارتباك وذعر ، وانكشنت في
مقاعدهن .

كان الأب ياناروس لا يزال ذاهلا فتعثرت في قبر المسيح ، ولولا شعرة
واحدة لانقلب . لكنه استطاع أخيراً أن يمسك به . وهمس وهو يرتعد:
— يارب ارحم ! يبدو أن القبر دبت فيه الحياة ويريد أن يجرى ...
ودخل الهيكل ، ولثم قطعة حجر ملطخة بالدم موضوعة على المائدة
المقدسة ، ثم استدار خارجا ، ووقف أمام الأيقونة الكبيرة للمسيح
على يمين الهيكل .

كان قلبه يغلي . وحاول أن يسيطر على نفسه . لكن الكلمات
احتبست في حلقه وعجز عن الكلام . الآن في حضرة المسيح اختفى غضبه
وأصبح الخوف هو الذي يستولى عليه . ورسم علامة الصليب ثلاث
مرات ليستعيد شجاعته ، ثم ركع وصاح بصوت مرتفع :

— « أنا أقدس آلامك أيها الرب ، لكن ارحمني . أنا أخافك
وقوتك تجعلني أرتعد . لكني لست سوى إنسان . وأنا أتألم . أنا يوناني .
يجب أن تسمعني ، أو على الأقل دعني أصرخ معبراً عن عذابي منفساً عما
يملأ قلبي . ولتقتلني بعد ذلك مادمت أهين جلالك المقدس .

« أنا أتأمل العالم يخرج من بين يديك فلا أرى فيه خيراً . وأنا أتأمل
البشر الذين صنعهم فيما يبدو على صورتك . لكن هل يمكن أيها الرب

أن تكون أنت شبيه هؤلاء البشر؟ أليست الدنيا معسكر اعتقال واسع
تحتبطينا فيه سجناء محاصرينا الأسلاك الشائكة؟ وفي كل نداء منك تصطفي
أخيار الناس لتوفاهم؟ ماذا فعلت لك اليونان إذن أيها الإله الذي لا يرحم؟
ولماذا اخترتها هي، دون ألبانيا أو تركيا أو بلغاريا؟ هل صنعت شعوب
هذه البلاد أى شيء فى أى يوم من الأيام من أجل تمجيدك؟ هل قدموا
لك فى أى وقت شيئاً من الخير أو أعطوك شيئاً من الرضا؟ لكن اليونان
أمسكت بيديك حين كنت لانزال طفلاً صغيراً تتعثر فى قطع الحجارة،
ثم مدت مديك إلى أطراف العالم. ماذا كنت ستصبح بدونها؟ كاهنا
من كهان اليهود تقضى الوقت فى مناقشات واحتكاكات مع زملائك فى
المعبد. لكن اليونان أخذت بيدك، وصورت جمالك فأصبحت جميلاً،
وتغنت بحسناتك فأصبحت حسناً، وشيدت من أجلك قصوراً فأصبحت
الرب (١). فهل هذا جزاؤها الآن؟ تتركها تمزق نفسها بأظافرهما فلا
تأخذك بها شفقة؟ ألا تشمر بالتقدير نحوها إذن؟

وارتعد الأب ياناروس حين أدرك الكلمات التى خرجت من فمه.
ولطم هذا الفم الكافر، ونظر حوله إلى الأيقونات وصورة الملاك
القديس ميخائيل المرسوم على باب الهيكل بنصله الأحمر وجناحه الأسود.
ووقف ينتظر مرتعداً يهمس لنفسه:

« الصاعقة ستنزل على رأسى. فهل يمكن أن يسكت الرب على إهانة
تلقه من آدمي؟ »

ثم عاد يقول:

— يا إلهى، أنا أختنق. فأسمح لى أن أنطق كلمة كفر كبيرة، وإلا

(١) أول بلد حافظت على التراث المسيحى فى بدايته هى اليونان، حتى أن النسخة
الأولى للكتاب المقدس التى ترجمت إلى اللغات الأخرى كانت باليونانية، بعد ضياع
الأصل العبرى. (المترجم)

فسوف أنفجر . في بعض اللحظات يختلط عقلي . وتبدو لي قطع الخشب
والحجارة والقديسين في ضوء جديد . أنا أنظر إلى صورة العذراء على يسار
المحراب وأقول لنفسى : « هذه ليست العذراء تتربع هنا جميلة جداً
وحزينة ، تكشف عن ثديها لترضعك أيها الرب . هذه ليست العذراء ،
لكنها اليونان ! »

وسال العرق على وجهه المحطم . وأخذ يتشمم بمنخريه يبحث في الجو
عن رائحة كبريت ، رائحة الله . وهمس لنفسه :

— ما أعظم سرورى حين ألقى هنا اللهب الإلهى إذا هبط فوقى
ليحرقنى ! إذ ذاك أعرف أن الرب له أذنان وأنه يسمعنى وأننى لا أصرخ
في صحراء مقفرة ، لكن صوتى يرتفع فيصدم السماء ثم يرتد ساقطاً أشد
من الصاعقة على رأسى الطائش .

ثم صاح :

— « يا إلهى ، هل تذكر قريتى هناك على شاطئ البحر الأسود
في يوم القديس قسطنطين الرهيب ، يوم ٢١ مايو من كل عام ؟ كنا
نشعل في الميدان ناراً والناس يلتفون حولها ويرتعدون ، والرب فوقها
معلق . وكنت أمسك الأيقونتين وادخل في اللهب حافى القدمين وأرقص
وأقذف حفنات الجمر على الجمهور . كان اللهب بالنسبة لى ماءً بارداً لأننى
لم أكن أرى سواك يا إلهى . لا النار ولا الموت ، لكن أنت وحدك .
وكما تتحول أشد أنواع الحديد خبثاً إلى حديد صلب إذا مرت في اللهب ،
كذلك كنت أنا تماماً . عندما أخرج من نارك أشعر أن جسدى كله
أصبح بين يديك سيفاً من الصلب .

« أما اليوم فأنا أتكلم وأنت لا ترد . وأصيح ، فتشيع بوجهك عنى .

لكننى سأظل أصرخ حتى تسمعنى . فمن أجل هذا وهبتنى فما . ليس للأكل ولا للكلام ولا للتقبيل ، ولكن للصراخ . »

واستدار نحو الأيقونة الكبيرة صانعة المعجزات ، أيقونة العذراء الموضوعه على يسار المحراب ، كأنما يسألها أن تشفع له لدى ابنها . كانت تضم الطفل بشدة على صدرها وعيناها السوداء وان الحزینتان مثبتتان فى تأثير وانفعال على صليب معلق فى الفضاء . وكان وجهها مشقوقاً كأنما بضربة سيف قاطع . فى صباح يوم من الأيام كان الأب ياناروس يلقى القداس ، وفى نفس اللحظة التى وقف فيها أمام باب الهيكل يدعو : « من أجل سلام العالم كله » ، دوى فى المحراب ما يشبه الانفجار . فقد انشق خشب الأيقونة وأصاب الشق وجه العذراء من حاجبها إلى ذقنها . وارتعد المؤمنون خوفاً وخروا راكعين على بلاط الكنيسة فى انتظار الكارثة التى ستقع . وكانوا يهيمسون : « الأرض ستتهتز ، وستنزل من السماء نار تحرقنا عن آخرنا . » ثم انكشف الخبر الرهيب بعد عدة أيام . فالنار كانت قد نزلت من السماء فى مكان بعيد على أطراف هذا العالم وأهلكت مائتى ألف شخص . وفى الطرف الآخر من الأرض فى قرية صغيرة اسمها كاستلوس ، صرخت العذراء حين وصلت إليها آلام البشر فانشقت لها . وصاح الأب ياناروس ويدها ممدودتان نحو الأيقونة المشوهة :

— أيتها العذراء البتول . أنت يامن أشفقت على هؤلاء الناس ذوى البشرة الصفراء فى أقاصى الأرض ، ألا تشفقين على أطفالك الذين يموتون جوعاً هنا فى كاستلوس أمام ناظريك ؟ ألا تقبلين ركبة ابنك لىكى يضع حداً لآلامنا ؟ »

واستدار مرة أخرى إلى المسيح ينتظر الجواب . ونظر إليه المسيح

مبتسماً لكن شفثيه لا تنبسان . ودخلت من الطاقة المفتوحة في أعلى الهيكل نحلة أخذت تطن فوق زهور قبر المسيح ووقف الأب ياناروس ونظر حوله . في وسط الكنيسة كان القبر قائماً مجلاً بزهور الحقول والريحان وإكليل الجبل . وفي الداخل كان المسيح يرقد ميتاً ، مطرزاً على حريز فاخر . كان هذا يوم الجمعة المقدس . والمسيح ينتظر قيامه من الأموات في هدوء وثقة .

واقرب الأب ياناروس وانحنى على قبر الكنيسة كأنما ينحني على القبر الحقيقي للمسيح ، وصاح بأعلى صوته :

— أيها اليوناني ، أيها اليوناني ! لماذا تريد أن تقتل أمنا ؟ وانفلتت نفس الأب ياناروس من بقية جسده لتتجمع كلها في أذنيه وعينيه وأطراف أصابعه . فقد كان ينتظر المعجزة . لا بد أن صوتاً ما سيتردد الآن . فلا يمكن أن يظل الله صامتاً ! لهذا انتظر ... وانتظر . ولكن شيئاً لم يحدث . السماء بكاء . والإله أصم . مات المسيح . وأصبح الأب ياناروس وحيداً في هذا العالم .

وإذ ذاك انفجر غضبه ولم يسيطر على نفسه ، فصاح :

— حسناً إذن . لن أقيم لك القيامة . فلتبق نائماً في الكفن تنتظر . لن تقوم من الموت إلا ومعك اليونان . هل تسمعي ؟ لا سلام ؟ إذن لا قيامة . لست أملك شيئاً آخر أفعله . لكنني قسيس أملك هذه القدرة وسوف أستخدمها . وحتى إذا ألقيت بي في الجحيم مع يهوذا ، فلتعلم أنه مهما فعلت فلن تكون لك قيامة هنا في كاستلوس وشاليكا وبراستوفا ، القرى الثلاث التي أرهاها .

كان الهواء يهتز بهذه الكلمات التمردة ، عند ما سمع الأب ياناروس نجاة قطعة جبس ملونة تتفتت في ركن الهيكل ، حيث رسمت لوحة

« سجود الملائكة » . وانتفض الشيخ . وأحس في لحظة أن ملاكا قد تحرك . فاستدار نحوه مقطب الحاجبين يصيح :

— أما أنت فليس لك في الأمر كلمة . فلست سوى ملاك عاجز عن التألم ، عاجز عن ارتكاب الخطيئة ، سجين الفردوس حتى نهاية الزمن . لكنى أنا إنسان . شيء مشتعل يتألم ويدين نفسه ويموت . وأنا الذى أقرر بإرادتى أن أذهب إلى الفردوس أو لا أذهب . فلا تحرك جناحك فى وجهى ولا تجرد سيفك أمامى . عند ما يتكلم إنسان مع الله فلا دخل لك أنت .

واستدار الأب ياناروس نحو أيقونة المسيح ، وامتلاً صوته بالسرور فجأة وقال :

— يا إلهى . نحن الاثنان فقط نعرف ذلك . أما الملائكة فلا يعرفون . أنت وأنا كلانا شيء واحد . أصبحنا نحن الاثنان شيئاً واحداً منذ ذلك اليوم المبارك فى بيت المقدس . هل تذكر ؟ كان الناس يستعدون للاحتفال بالقيامة . كل الأجناس فى العالم يختلطون فى الكنيسة هذا اليوم ، البيض والسود والملونون . ونحن ننتظر — وأرواحنا فى أفواهنا — نزول النور المقدس . والهواء يقطع بشرارات الاله . وحول كل وجه تلتف هالة من النار . والمعجزة فوق رؤوسنا كأنها الصاعقة . والنساء يفشى عليهن ، والرجال يرتعدون ، والعيون كلها مثبتة على القبة المقدسة التى سينزل منها الاله الإلهى . وفجأة يشع المعبد بالنور الخاطف ، ويهبط الله ، وتندفع جماعة من العرب ليشعلوا الشموع . ثم ، هل تذكر يا إلهى ؟ تملكى مس منك فأخذت أصرخ . بماذا صرخت ؟ لم أعد أدرى . كانت أسناني تصطك وفى رغى . وشعرت بأن لى جناحين وأنى أحلق فى الهواء وأصرخ صرخات حادة . وأمسك بى العرب ورفعوني إلى أعلى سواعدهم .

وطرت فوق رؤوسهم وفوق الشموع المشتعلة . ولحقت النار بملابسي وأحرقت شعري ولحيتي وحواجبي . لكنني كنت أردد أغاني الفرح التي يغنونها في بلادى ، وأشعر بأن كل شيء حولي برد وسلام . وارتفع صراخ النساء . ولفوني في غطاء مبطل ، وأخرجوني إلى الساحة . واعتنى بي القساوسة . ومضت ثلاثة شهور طويلة وأنا أكافح الله وأكافح الموت دون أن أتوقف عن الغناء وضرب الهواء بيدي . ولم أشعر في حياتي قط بمثل هذا القدر من الحرية والسعادة . وكان القساوسة يهزون رؤوسهم ويظنونني مجنوناً . أما أنا فكانت أشعر بأن هذه النار التي أحاطت بي وأحرقتني ، هي أنت يا إلهي ، هي أنت !

وكنيت أصبح : « هذا هو الحب الحقيقي ، هكذا يتوحد الرجل بالمرأة ويتوحد الله بروح الإنسان ! »

« ومنذ ذلك الوقت أصبحنا كما تعلم شيئاً واحداً . أصبح لي الحق في أن أنظر في وجهك وأكلك ورأسي مرفوعة . أصبحت أنظر فلا أرى دائماً سوى المسيح ، لست أنا وأنت سوى شيء واحد . نحن الاثنان نرقد معاً على القبر والزهور البرية منشورة فوقنا . لكننا لن نقوم طالما استمرت مذبة الإخوة ... »

وفوجيء الأب ياناروس فاندفع قائلاً :

— حدثني بكلام البشر إذا أردت أن أفهمك . أنت تهدر كالوحش ، وأنا لست وحشاً لأفهمك . أنت تهدل كالجمام ، لكنني لست طائراً . إنما أنا بشر . فحدثني بكلام البشر !

كان سيمضي في الكلام بهذه الطريقة الجريئة ، حين ارتعد أنفه فجأة : فقد امتلأ الهواء برائحة الكبريت . وشعر الشيخ بالخوف ونسي كلمات التجديف ، وانحنى يهمس وهو يركع على ركبتيه :

— إنه يأتي ... يأتي ... يأتي ، يأتي ! هذا هو !

وفي ومضة واحدة شعر بكيانه كله يتمزق ، أصبحت الصاعقة في داخله .
سمع صوتا وقورا حزينا يعرفه . فهو المسيح . عندما يتكلم ، يأتي كلامه
دائما من أعماق أعماقنا ، ويكون صوته دائما كما هو . ومال الشيخ برأسه
على صدره لينصت ويستجمع نفسه .

— يا أب ياناروس ، يا أب ياناروس ، لا تجدف بالله ! أنت أتيت
تسأل ، فاسأل !

وتلعثم الرجل العجوز وهو يقول :

— وما جدوى سؤالك أيها الرب ؟ لاجدوى من سؤالك ، فأنت
تعلم كل شيء .

— أنا أعلم كل شيء ، لكني أحب أن أسمع صوت الإنسان . فتكلم !

— أنا أحاول أن أتبع خطاك ، لكني لا أعرف أين تقف . هاك

ما أريد أن أسألك إياه :

« أين تقف؟ هل مع السود أم مع الحمرة؟ قل لي حتى أذهب معك . »

وترددت ضحكة مريرة ، ثم عاد صوت المسيح :

— تسألني أين أقف ؟ أنت تقيمني من الموت كل عام ثم لا تعرف

أين أقف ؟ في السماء .

ودق الأب ياناروس الأرض بقدمه ، وأصابه الس مرة أخرى .

— أترك السماء أيها الرب ، فلم يأت وقتها . روحي لم تنفصل عن

جسدي . فأنا دائما على الأرض أ كافع فيها لأشقى الطريق . هنا في الدنيا

في هذه القطعة من الصوان والبحر التي يسمونها اليونان وفي هذه

الصحور اليونانية التي يسمونها كاستلوس . حدثني إذن أيها الرب عن

كاستلوس ، هذه القرية النعسة التي علقها في رقبتى . انزل إلى كاستلوس

وارشدنى إلى الطريق . هذه هى المكرمة التى أسألك إياها . هذه بالذات ولا شىء آخر ... ارشدنى إلى الطريق أيها الرب .

وعقد الأب ياناروس ذراعيه على صدره الذى يغسله العرق . وفاض صوته بالتضرع :

— يا إلهى ، هات يدك لترشدنى . هل أسلم القرية للأنصار أم لا ؟
عندما أسمع الكابتن فوق الجبل يتمهد بأن يوفر العدالة والحبز لكل الناس ، أشعر بأننى معه . لكن عندما أهبط إلى كاستلوس وأسمع القومندان المتوحش يصيح : الوطن والشرف والدين ، أشعر أيضاً بأننى معه . لم أعد أحتمل هذا . أنت يا إلهى أملئ الأخير . فهات يدك وارشدنى .
وكان الليل قد هبط . ولا بد أن القمر كان يرتفع فى السماء ، لأن أشعته المضيئة الرقيقة تخللت طاقة الهيكل . وانطلق فوق الكنيسة طائر ليلى أرسل صرخة شاكية ، فامتلاً قلب الأب ياناروس فجأة بحزن عذب .
ومرة أخرى ارتفع الصوت حزيناً حلواً :

— يا أب ياناروس ، يا أب ياناروس ، أريد أن أسألك مكرمة ، فلا ترتعد .

— مكرمة ؟ مكرمة منى أنا الحشرة ؟ النملة ؟ فلنأمر !

— ارشدنى .

— أنا أرشدك ؟ ألسنت أنت الذى تعلم كل شىء ؟

— أنا كذلك فعلاً ، لكن فقط بمساعدة البشر . وبدونك أنت

لن أقدر على أن أمشى فى هذه الأرض رغم أنى خلقتها . سأتعثر . سأتعثر . سأتعثر

فى الحجارة ، وفى الكنائس ، وفى الناس . هل تفتح عينيك جيداً ؟ ألا

تعلم أننى خلقت فى أعماق المحيط أنواعاً هائلة من سمك القرش لا تستطيع

أن تجرى فى البحر إلا بمساعدة سمكة ضئيلة الحجم اسمها سمكة الربان ؟

وهكذا أنت . سمكة ربان لى . فتقدم أمامى وارشدنى .

ونظر الأب ياناروس إلى المسيح وهو يرتعد ، وعيناه جاحظتان . ترى هل يقول الحقيقة ، أو يحاول أن يوقعه فى الغواية ؟ الأب ياناروس يعلم منذ زمن طويل أن كلمات الرب تكون غامضة . غامضة وخطيرة كالسلاح ذى الحدين . يا لشقاء هذا الذى لم يسمع قط كلمة الرب ، لكن أيضا يا لشقاء هذا الذى يسممها . الدهول يصيب روح الإنسان ، وكل كلمة من كلمات الله تفتح باباً فى الجنة ، لكنها تفتح أيضا باباً فى الجحيم . والخوف يفقد الإنسان وعيه حتى يعجز عن تمييز الباب الذى يريده الله . وقد رأى الأب ياناروس البابين الاثنيين مفتوحين أمامه . وسكت عن الكلام ليكسب فسحة من الوقت تتيح لروحه أن تستوضح الأمور قبل أن تتخذ قرارها .

وما أكثر المرات التى تصارع فيها الأب ياناروس مع الشيطان . وما أكثر المرات التى تصارع فيها مع الرب . من الممكن دائماً التعويد على الشيطان بالآيات التى تقيده ، لكن ما العمل إزاء الله ؟

وظل الأب ياناروس صامتاً يتفحص بعينيه وحده الرب ، ويرتعد وهو يفكر فى سر الكلمات الإلهية . ترى أى معنى خفى يمكن أن يكون وراء هذه الكلمات ؟ إنه يتكلم كهذا الذى لا يعرف شيئاً ، وهو الذى يعرف كل شيء . يتكلم كهذا الذى لا يقدر على أن يفعل شيئاً ، وهو القادر على كل شيء . فلماذا ؟ لماذا ؟ ألا يحبنا ؟ ألا يهتم بالبشر ؟

فكر الأب ياناروس فى أن ينخر ساجداً وينكفى على وجهه وبطنه أمام قدمى المسيح صائحاً : « لا تتركنى وحدنى ! ساعدنى ا » لكن الوقت لم يتح له ، فقد ارتفع من أعماقه مرة أخرى ذلك الصوت الغامض لكنه فى هذه المرة كان قاسياً غاضباً :

— ألا تخجل يا أب ياناروس من أن تسألني التوجيه ؟ أنت حر ،
أنا خلقتك حراً . فلماذا تريد أن تتعلق بي ؟ قم يا أب ياناروس ! دع
السجود والركوع . احمل مسؤولياتك ولا تطلب النصيحة من أحد ،
ألسنت حراً ؟ إذن اختر طريقك !
— ما أثقل الحرية يا إلهي . فكيف يستطيع الإنسان أن يحمل
هذا الثقل ؟

وتردد الصوت مرة أخرى ، ساكننا حزينا هذه المرة :

— حقا ما أثقلها يا ابني ! فتشجع !

وانسد الشق الذي أنفتح في أعماق القسيس وسكت الصوت . ورفع
الأب ياناروس رأسه التي مال بها على صدره . ومن أرض الكنيسة
صعدت في جسده قوة مفاجئة ، هبطت إليه أيضاً من صورة الخالق في
أعلى القبة ، فملأت صدره وشدت ركبتيه . لا يذكر أنه شعر في يوم من
الأيام بمثل هذه الشجاعة وبمثل هذا اليقين وهو يتحدث مع الله .

وضغط بيده على صدره وتكلم بصوت قوى كأنه يؤدي قسما :

— سأحمل إذن على عاتقي مصير قريتي . أنا الذي سأقرر ضياعها أو

خلاصها . أنا حر كما تقول . الشرف والعار يتوقفان على إرادتي . أنا
حر . فأنا إنسان .

ورسم علامة الصليب ووقف على أطراف قدميه يلصق شفثيه بوجه

المسيح قائلاً :

— اغفر لي يا رب أنني جدفت بك . فكثيراً ما يركبني شيطان

الغضب الأحمر . اغفر لي ، وهبني بمد ذلك القدرة على أن أتكلم بركة

وبلا غضب ولا شكوى . واتعطف أنت من السماء على هذه الأرض الشقية .

اشفق عليها كما تفعل الأم التي تبكي وأطفالها على صدرها .

وشعر بالطمانينة تعود إلى قلبه . كل مرة يتسكّم الله ، يبدأ بالصدام
ويتصبّب العرق على جبهته ويمتلئ أنفه برائحة الكبريت والرعب ، ويكافح
ويهجم ، ولكن شيئاً فشيئاً يستولى عليه شعور حلو ، ويتوافق مع الله ،
وتلمس قلبه يد خفية فيصبح شديد الرقة . وركع في إحساس عميق
بالعرفان بالجميل ، وقال هامساً :

— المجد لك يارب . لقد تصالحنا . تصالحنا مرة أخرى . أصبح الرب
من جديد ، جاري وصديقي ، والدائن الذي خفف عني الدين : وانزاح
عن كاهلي حمل ثقيل .



١٥

انحنى يلتقط طاقيته ليخرج . كان يجمع شعره بيده ليضع الطاقية فوقه ، حين سمع أنينا عميقاً يرتفع في الظلام . وتردد صرير أحد المقاعد الخشبية . وخيل للأب ياناروس أن شعر رأسه وقف . لكنه خجل من نفسه . وأمسك بشمعة من الشمعدان وأشعلها من الشعلة الصغيرة الموقدة بجانب المسيح ، وسار مباشرة إلى الركن الذي صدر منه الأنين . وارتعشت الشمعة في يده لكنه تماسك .

ومال بالشمعة ، فاذا عجوز كانت منكشحة في المقعد تهب واقفة ، وتعرض معها في نفس الوقت أربع عجائز أخريات أضادت الشمعة وجوههن الشاحبة الجافة . وتراجع الأب ياناروس صائحاً ..

— من أنتين ؟ ماذا تردين هنا ؟ أتركن هذه المقاعد !
وتدحرجت العجائز من المقاعد نحو قبر الكنيسة يتعلقن جميعاً
بأطرافه وقد اختلطن في كومة واحدة غير واضحة المعالم . وانحنى القسيس
يدنى الضوء من وجوههن . يا للمرارة التي رآها مرتسمة في عيونهن ،
التي جفت من كثرة البكاء ، وعلى أفواههن الممتلئة بالسم ! وقال الأب
ياناروس لنفسه وهو يرتعد :

« ها هي وجوه اليونان . هؤلاء أمهات ... »

وجأة خيل إليه أن العجائز الخمس في ثياب الحداد هن الأمهات
الخمس لأقاليم اليونان في أساطير الإغريق : الروميلية والمقدونية والإيبيرية
وسيدة الجزر ...

وسأل في ضيق :

— عم تبجثن هنا في كاستلوس ؟ عم تبجثن ؟ من أنتين ؟
وانطلقن على الفور يتكلمن جميعاً في صوت واحد ويندبن ويخبطن
صدورهن .

— أنا لا أفهم شيئاً . كفي ضوضاء ! لتكلم واحدة فقط .
ونهضت أكبرهن سنأ على ركبتيها ، ومدت يديها نحو الأخريات وقد
تحول وجهها إلى قطعة من الحجر الصلب . قالت :

— لا تتكلمن . أنا أكبركن سنأ سأتكلم .
واستدارت نحو القسيس :

— نحن أمهات . أولادنا في الحرب . بعضهم في السهل وبعضهم على
الجبيل . كل واحدة منا قتل لها ولد على الأقل . أنا الأم كروستالينيا من
شاليكا . ماذا حدث لك يا أب ياناروس حتى نسيتنا ؟ يبدو أنك كنت
غائباً عن نفسك ، كنت تجدف بالله ؟

— اعرفى حدود كلامك . أنا لم أكن أجدف بالله . لم أكن أجدف
لكنى كنت أدعو . هذه طريقتى فى دعاء الله . ولست مطالباً بأن أقدم
الحساب لأحد .

وذهب يمد الشمعة إلى الشمعدان ، ثم رجع إلى العجايز . ورق
صوته وهو يقول :

— أنا أنحنى أمام آلامكن يا أمهات اليونان . أسألكن العذرة ،
فقد تأخرت روحى فى العودة إلى جمجمتى فلم أتعرف عليكين . لكن
هاهى تعود الآن من سماء اللهب حيث كنت أحداث الخالق . مرحباً
بك يا ماريجو من براستوفا . وأنت يا كريستينا من مانجانو . وأنت
يا مدام ديسبينا من كروستلو . وأنت يا زافيرو العجوز من كريسويجي
مرحباً بكن فى بيت الله المصلوب . ماذا تردين ؟ ماذا تطالبن ؟ أنا
أنصت لكن .

وتكلمت كروستالينا العجوز وهى تئن وتتوجع :

— لقد طردونا من بيوتنا يا أب ياناروس . طردونا من قرانا .
أصحاب البيريه الأسود وأصحاب البيريه الأحمر ، هم يقتلون رجالنا ، ونحن
نتشرد من كهف لكهف جائعات يقرصنا البرد .. إلى من نلجأ ؟ على
أى أقدام نرمى ؟ كيف سينتهى ذلك كله ؟ أرسلتنا القرى إليك
يا أبانا لنسألك . أنت يا من تحدث الله ، أنت فمه وأذناه وعيناه فى جبالنا .
لا بد أنك تعرف .

وصاحت الأخريات كأنهن جوقة تسند هذه الكلمات :

— ساعدنا يا أبانا ! نحن جميعاً نعتمد عليك .

وكان الأب ياناروس روح ويحيى فى الكنيسة . وتوقف أمام
المحراب ينظر إلى المسيح ولا يراه ، وروحه غائبة فى بحر بعيد من الظلمات

وبخاة بدت له الكنيسة ضيقة جداً كما يستطيع أن يمد ذراعيه فيقاب
جدرانها . لكنه قال لنفسه : « إن الله ألقى على كاهلك كل الأحمال ،
فتماسك جيداً يا أب ياناروس يا مسكين . »

ثم قال لهن :

— كل واحدة منكن لها في بيتها ميت واحد . أما أنا فموتاي
آلاف ملفوفون في الأعلام الحمراء والسوداء ، والحقيقة أنهم لم يموتوا في
بيتي ، ولكني أحملهم داخل قلبي حتى لأعجز عن السير وأتعثر . وكما
انحنيت على جثة من هذه الجثث ، رأيت فيها وجهي تماماً ، لأن الموتى
جميعاً أبنائي .

وتصايحت العجايز من جديد :

— ساعدنا يا أبانا . ماذا يجب أن نفعل ؟ كيف سينتهي ذلك كله ؟
هل تعرف طريقاً يا أب ياناروس لإنقاذنا ؟ لقد أتينا من أجل هذا .
فإذا كنت تملكيت وحياتاً من الله فتكلم حتى نعود إلى هؤلاء الذين أرسلونا .
نحن متعجلون .

وزام الأب ياناروس قائلاً :

— وأنا أيضاً متعجل .

وفي تلك اللحظة شعر بأن الوقت يمر ويجب ألا يضيع سدى . كان
قد اتخذ قراره ، وأصبح متعجلاً . ونظر إلى العجايز اللاتي عدن يتعلقن
بقبر المسيح ويطلقن الصراخ المستيري ، وقال :

— انهضن ! اتركن هذا القبر وانهضن ! ألم يكفكن البكاء ؟

الله تعب من بكاء الناس . فدموع البشر تكفي لتحرك طاحونة ماء ،
ألا تكفي إذن لتحريك الله ؟ جففن عيونكن وارجعن إلى كهوفكن
اجمعن كل الناس رجالاً ونساء وقلن لهن : « هاكم ما يأمرنا به الأب

ياناروس من كاستلوس . هناك ثلاثة طرق يمكن أن تؤدي إلى الخلاص :
طريق الله ، وطريق السلطات ، وطريق الشعب . أما طريق الله فمغلق .
فالله فيما يبدو لا يدخل نفسه في شئوننا ، لأنه أعطانا عقلاً وأعطانا الحرية
ونفض يديه مما نعمل بعد ذلك . هل يعاقبنا الله لأنه لا يحبنا أم لأنه يحبنا ؟
لا أعرف . لست سوى إنسان آثم لا أستطيع الدخول في أسرار الله .
لكن شيئاً واحداً أنا متأكد منه ، هو أن هذا الطريق مغلق . طريق
مسدود . »

وصمت . فقد طقطقت الشعلة الصغيرة الموقدة بجانب المسيح . الزيت
لم يعد كافياً . واستدار الأب ياناروس نحوها ، فرأى وجه المسيح قد
أصبح مظلماً ، وشعر القسيس بالضييق ، لكنه لم يتحرك ليحضر الزيت
ويعيد إلى الشعلة ضوءها .

وأمسكت العجوز الأولى بالقسيس من طرف رداءه الكهنوتي تسأله :
— والطريق الثاني يا أبانا ، ما هو ؟ اشرح لنا بوضوح . نحن
أمهات جاهلات نريد أن نفهم .

— الطريق الثاني هو طريق السلطات ورؤساء الشعب والزعماء .
اللعنة عليهم جميعاً ! أنا لا أميز بينهم : فلست أحمر ولا أسود . أنا الأب
ياناروس الذي يكلم الله ، والذي لم يركع يوماً ليلعق أقدام البشر الكريمة .
ولو فتحووا قلبي لوجدوا اليونان ممتدة في دمي كما تمتد في خرائط الجغرافيا .
اليونان كلها . قولوا لهم هذا ، هل تسمعون ؟
وردت جوقة المجائز :

— نحن نسمعك يا أب ياناروس ، نحن نسمعك . تكلم أيها المبجل
ولا تغضب . ماذا إذن عن الطريق الثاني ؟

— الطريق الثاني ، مغلق أيضاً . فليس هناك من الرؤساء الحمر
أو السود واحداً يحمل في قلبه اليونان كلها . جميعهم قسموها . قطعوها

إلى نصفين كأنها ليست شيئاً حياً . وكل نصف من النصفين أصيب
بالسعار وأصبح يريد أن يبتلع النصف الآخر . الملوك ورجال السياسة
والأساقفة والأوثان وقادة الجبال وقادة السهول ، أصبحوا جميعاً
مسهورين .. أصبحوا ذئاباً مفترسة تنظر إلى الناس كأنها لحوم تؤكل .
وتوقف عن الكلام مرة أخرى وهو يلهث كما لو كان قد تسلق جبلاً .
وتهد ثم قال في همس :

— كم كان خيراً لى وأسهل أن أكون أعمى العينين أنا أيضاً !
إذن لالتحقت بالجيش سواء فى اليمين أو اليسار ، ولأخذت مكانى بجانب
آلاف العمى الآخرين المقتنعين تماماً بأن الله معهم والشيطان ضدهم !
وإذن لكنت أجد قتل أبناء وطنى وأقول : « الحمد لله يارب ، ها هو
بلشقى يذهب ! » أو أقول : « الحمد لله يارب ، ها هو فاشقى يذهب ! »
لكن واأسفاه ! أنا هنا وحدى تماماً . وقلبى ينشق لكل جثة أجدها
فى طريقى ، لأنى أرى فيها قطعة من اليونان تتجلى تحت الأرض .
وسكت مرة أخرى غارقاً فى التفكير وانتفخت عروق رقبتى . فقد
كانت اليونان ترقد أمام عينيه يغطيها الدم .
لكن المعجوز الأولى شدته من كنه :

— والطريق الثالث يا أبانا ؟ الطريق الثالث ؟

— أى طريق ثالث ؟ لا يوجد طريق ثالث . لم يفتح بعد . وعلينا
نحن أن نفتح شيئاً فشيئاً وأن نعانى من أجل ذلك . من نحن ؟ الشعب .
فهذا الطريق يبدأ مع الشعب ويتقدم مع الشعب وينتهى مع الشعب .
فى بعض الأحيان تمزق روحى ومضة فأقول لى نفسى : من يدري ؟ ربما
كان الله نفسه هو الذى دفع بنا إلى هذا الحد ليرغمنا على أن نفتح
— راضين أو كارهين — هذا الطريق الثالث الذى هو طريق الخلاص .
لا أزعم أنى أستطيع أن أقرر ذلك . لكن إذا سألتكم قلبى . يقول لكم

هذه إرادة الله . الله يقول لنا : لتصبحوا بشرآ . كفى تعلقاً بأطراف
ثوبي كالأطفال الصغار . انهضوا وتعلموا كيف تمشون وحدكم تماماً . «
ولم تفهم العجائز جيداً كلمات القسيس ، لكنهن وجدن فيها بعض
الراحة . وتهيان للرحيل ، فشدت كل واحدة منهن تلفيتها السوداء
بإحكام ، وغطت جبهتها وذقنها وفمها وأذنها ..
لكن الأم كروستالينا عادت تتردد . فكلمات القسيس بعثت الدفء
في قلبها ، لكنها لم تكشف لروحها كل شيء . ونظرت إلى القسيس في
قلق ثم قالت :

— وبعد ذلك إذن ؟

— بعد ذلك ؟ القمر ارتفع في السماء ، فارجمن إلى بيتكن .
اجمعن أبناء بلدتك وقلبن لهم إن الأب ياناروس من كاستلوس يأمر
بهذا : « ابدأوا السير فوراً لتحضروا إلى هنا في كاستلوس غداً قبل
الظهر . »

لقد أودعني الله كلمة غامضة ، فهل فهمتها أم لم أفهمها ؟ سوف نرى .
لكن على كل حال ليس أمامنا طريق آخر . اقبلن بركتي .
ورفع يديه يبارك الرؤوس الخمسة تحت التلفيعات السوداء ، ثم أزاح
مزلاج الباب ، وقال وهو يرسم علامة الصليب في الهواء فوق رؤوس
العجائز :

— اذهبن تصحبكن بركة الله والوطن !

وظل واقفاً على عتبة الكنيسة ينظر إليهن يبتعدن الواحدة تلو
الأخرى ، يمشين لصق الجدران . كان القمر يرتفع في السماء وراء الجبل .
وفي الهواء يفوح عطر نبات الصعتر وتفوح رائحة نتنة . واختفت العجائز
بين الخرائب وهو يتابعهن بنظره . وهمس قائلاً :

— اليونان التمسعة في تلفيعة سوداء !

كان القمر يرتفع في السماء ، وأطلال القرية تلمع هادئة في ضوءه ، كأنها بيوت لا تزال تظل تحت سقوفها أزواجاً متعانقة . لكن بنات آوى انتشرت بين الأنقاض وأخذت تعمل فكها . ومشى رجلان عجوزان ، اختلط عقلاهما من فرط الجوع والخوف ، يتعثران في ركام الخرائب ويفغيان أغنية قديمة من أيام شبابهما عن الحب والموت . ومن وقت لآخر كان الاثنان يتوقفان ويتعانقان ثم ينفجران بالضحك . ودخل القمر في رقة وسكون غرفة الأب ياناروس خلال النافذة ذات الحديد . واكتست لوحة الدينونة الأخيرة بلون الفضة ، واشتعلت هالة الذهب وجر الفحم تحت قدمي القديس قسطنطين . أما القديس نفسه فلم يظهر .

وجلس الأب ياناروس في ركن الأريكة وأسند رأسه على الحائط . وقال هامساً :

— أشكرك يا إلهي لأنك اليوم أيضاً ملأت كأسى بالمرارة . أنا

لا أعرف لماذا تكون قاسيا مع هؤلاء الذين يحبونك . لكنى أعرف أنك تفعل ما فيه خيرنا ، حتى لو لم نفهم ذلك . فكيف تبلغ بنا الجراءة والقحة أن نزعم أننا نفهم أعمالك يا إلهي ؟ اغفر لنا . فقلبنا لا يحتاج إلى شيء . لديه الإيمان ، ويفيض منه اليقين . لكن إبليس هو الذى يركبنا ولا يهدأ عن التساؤل ...

الليل هبط على العالم ، بعد نهار مملوء جدا وثقيل جدا . فالشكر لك يا رب ! أنا متعب . ومع ذلك أمامى عمل كثير هذه الليلة . عمل عسير أيضا . أنت تركتني حرا أسلك وفق إرادتى . إذن سأسلك وفق إرادتى ! سأصعد إلى الجبل .

وأغمض عينيه لعله يستريح قليلا فيستعيد قواه قبل أن يبدأ صعود الجبل . لكن عبثا انتظر ، فملاك النوم تأخر فى الحضور . كان عقله يغلى ، فكيف له أن ينام ؟ ! وتحت جفنيه المغمضين مرت عليه آلام البشر مختلطة بآلام الرب . وفجأة حلت روحه بعيدا . كان ذلك يوم جمعة . مقدس أيضا . يوم شمس ساطعة كهذا اليوم . وكان يحمل الكيس على كتفه ويبحث عن مستقر لروحه . وظهر له الجبل المقدس وأديرته العالية كالقلاع ، وترتيلة قداس باكر الحلوة ، والرهبان من كل نوع ، هؤلاء الذين يأكلون وأولئك الذين لا يأكلون ، والزاهدون والمنافقون . وكانت قمة آتوس مغطاة بالثلج تعلو الجبل المقدس وتلمس السماء ويزورها الله .

كم يسترجع كل شيء ! لم ينس شيئا . هاهو يرى أمامه مرة أخرى فى وضوح كامل ، المائدة يصطف عليها الآباء بعد قداس باكر يأكلون معا قطعة خبز جاف . وكانت القاعة كبيرة ومستطيلة ، جدرانها منقوشة بالصور التى تأكلت مع الرطوبة وتعاقب القرون . وفى الجوف نفوح رائحة زئخة مع رائحة حساء الكرنب . ودخلت من النافذة المفتوحة عصفورة

حلت فوق رؤوس الرهبان المنحنية على صدورهم ، وعرفتهم واحدا واحدا . كانوا هم أنفسهم كالعام الماضي ، مع شيء قليل من الشحوب أو تقدم السن : ماناسيس ويواقيم وجبريل وميلشيسديك وبنيدكتوس . كلهم موجودون لم يتخلف أحد . وامتألت المصفورة بالفرح ، وغردت حول رأس كبيرهم وحاولت أن تنزع من لحيته البيضاء شعرة تضيفها إلى عشاها . وفجأة اندفعت نحو النافذة المفتوحة واختفت في النور .

لم يرفع واحد من الرهبان عينيه لينظر إليها . كان عددهم حوالي الأربعين يلتفون حول المائدة محذبي الظهور مقطبي الجباه ، يعضفون دون شهية حبات زيتون وفول نابت ، بينما الأب الذي يشرف على الغذاء يروح ويجيء صامتا يوزع عليهم خبز الشعير . كان ذلك يوم الجمعة المقدس والرهبان يتهدون ويعدون الساعات . متى تأتي إذن يا إلهي هذه القيامة حق يمكن أن نخرج بعد هذا الوقت الطويل ؟ فالنظام لا يسمح باللحم داخل جدران الدير .

وصعد راهب صغير على المنبر يقرأ مشهد صلب المسيح . كان حدثا هزيبا ملبد الشعر بحلقه من الصراخ بصوت ناشز ، لم يصبح بعد صوت رجل راشد ولم يعد صوت ولد :

« كانوا يصعدون ويصعدون نحو الجلجثة ، والمسيح في الأمام وركبته تلتويان تحت ثقل الصليب . فالصليب كان ثقيلًا . خطايا العالم معلقة به . وظلوا يصعدون ، والعذراء خلفهم تدق على صدرها وتندب :

« أين تذهب يا زينة أيامي ، يا جوهرتي المدفونة في التراب ... »

« وآلاف مؤلفة من النساء الأخريات ينتجن خلف الأم . كل

أمهات العالم ! وآلاف مؤلفة من العيون تبكي ، والأفواه تشهق ، والأيدي ترتفع نحو السماء تدعو الملائكة للنزول .

« وفجأة ، كان سكون عظيم . ومن أحشاء الأرض خرج صوت :

لا تبك يا سيدتنا ، تشجعي لتمطي الشجاعة للعالم ! »

كان القاريء الصغير يعلن بصوته المتحشرج مسيرة الآلام الرهيبة ، بينما الله يطلع النهار . وتلاأت القبة المصنوعة من الرصاص في أعلى الكنيسة فوق منتصف الفناء كأنها مصنوعة من الفضة . وكان عصفور أليف يقفز على حافة العين ويشقشق الألحان الأولى من نشيد تعلمه من الرهبان . وحول الدير كانت طيور الحجلات تصرخ في مجاري السيول . وكان الأب ياناروس في طرف المائدة يجيل نظره في المجتمعين مقطب الجبين . عيناه تقفان كل لحظة على هذا الراهب أو ذاك في ذعر وإشفاق . كانوا شيوخاً مسنين ، لم يبق فيهم سوى القليل من العقل ، والقليل من القلب ، والقليل من الإيمان . لكنهم كانوا بطنين شرهين . هكذا تنهى العزلة المقدسة في الأديرة . كانت بشرتهم مخضرة متحللة بفعل الرطوبة التي أكلت أقدامهم وأيديهم ولم تترك لكل منهم سوى سبع فتحات في وجهه . العينين والفم والمنخرين والأذنين . تكاد تقول إذا رأيتهم أن لوحة العشاء المقدس — العشاء الأخير الذي جمع المسيح وحوارييه — هبطت من الجدار بعد أن قاست عوادي الزمن ، وأن الحواريين جلسوا في القاعة متلاصقين صامتين ينتظرون شيئاً ما ... ماذا ينتظرون ؟ من ينتظرون ؟ لماذا ينتظرون نحو الباب ؟ أين المسيح ؟

وارتفع من الوادي عطر رطب انتشر خلال النافذة . واستيقظت المصافير . وصاح الديك في سقيفة الدجاج ، وجاء من بعيد تغريد طائر الكوكو رخواً ندياً . ومرت على صدغى القسيس نسمة منعشة ، فأغمض عينيه . ومن أعلى كان صوت الغلام يزداد ارتفاعاً :

« والخدم الملاعين رفعوا مطارقهم . طلبوا منهم ثلاثة مسامير ،

لكنهم صنعوا خمسة . عليهم لعنة الله ا ثم بدأوا يدقون المسيح بالمسامير .
عند الدقة الأولى ، اهتزت قبة الفلك . وعند الدقة الثانية ، نزلت
الملائكة من السماء يغسلون جروحه . يحملون ماء الزهور في أباريق من
الذهب ، وقطع الكفن من الجوخ النقي ، والطور . وعند الدقة الثالثة
فقدت العذراء الوعي ومعها العالم أيضا ، وغرقت الأرض في الظلام...»

وظل الأب ياناروس مغمضا عينيه . كان يحس المسامير تنغرز في
يديه هو وفي قدميه . ثم استفاق وضغط برأسه على الجدار حيث نقشت
لوحة العشاء المقدس وتأكلت مع الزمن . وفي اللوحة ظهرت صورة كلب
أبيض به بقع زرقاء يتجه ليلعق قطعة عظم تحت أقدام الحواريين . على
هذا الكلب بالذات استند الأب ياناروس . واختفت المائدة والرهبان
والدير وجبل آتوس وكل شيء . وظل الأب ياناروس متملقا بأسفل
الصليب . كان الدم يسيل والمسيح يتسم له وهو يحملق فيه .

وصرخ ودارت به الأرض . ولم يعد يعرف أين هو . وانتفض
واقفا يمد يده نحو المنبر صائحا دون أن يدرك ما يقول الراهب الصغير :

— لا تترك المسيح على الصليب ! ابدأ القيامة ا

وسمع الأب ياناروس ضجيجا في الخارج . ترددت أصوات تناديه .
كان بعض الناس يروحون ويجيئون في فناء الكنيسة ، ثم بدأت دقات
الأيدي تهز باب الغرفة . وفتح عينيه واختفى جبل آتوس ، وسمهم هذه
اللحظة في وضوح يصيحون باسمه . وقفز على قدميه وذهب يفتح الباب .
رأى حشدا متجمعا أمام غرفته . واستطاع أن يميز في ضوء القمر وجوها
تلع بتعبيرات قاسية . ومد يده بمنعهم من الدخول . وصاح أحدهم .
وخيل إليه أن هذا الصوت المرسع هو صوت مندراس العجوز :

— هوه يا أب ياناروس ! . . ماذا يحدث حتى الآن فلا تدق

الجرس ؟ هيا افتح الكنيسة .

وأجاب القسيس :

— كفوا عن الصياح واصمتوا ! لن يكون هناك قداس اليوم ولا

قيامه غدا . ارجعوا إلى بيوتكم يا قتلة إخوتكم . سيبقى المسيح على
القبر ما دمتم تستمرون في ذبح بعضكم .

وارتفعت من كل جانب أصوات هستيرية متعجبة :

— ماذا يقول ؟ يا لاسماء ! هل سمع أحد كلاماً كهذا في المسيحية ؟

ألا تخشى الله ؟

— اليونان مصلوبة بجريرتكم يا أبناء يهوذا الإسخريوطى . وطالما

بقيت مصلوبة ، فسوف يبقى المسيح على الصليب . يا قتلة ! طالما تمسكتكم

بالاستمرار في الجريمة ، فسوف أرفض أن أقيمه . لا في شاليكا ولا في

براستوفا ولا في كاستلوس . لن تكون قيامة على طول الأرض التي أرهاها !

— لن تقيم المسيح إذن من قبره ؟ ستتركه هكذا طول العام على

قبر الكنيسة ؟ فلتقع خطيئة ذلك على رأسك !

— لتقع على رأسي . سألقاها على رأسي ! عودوا إذن إلى بيوتكم .

وشق الشيخ مندراس الجمع حتى وقف أمام الأب ياناروس وعصاه

مرفوعة ، وصاح وقد أحاطت الرغبة بفيه :

— هل تعتقد أنك تستطيع أن تصلب المسيح ثم لا تقيمه ؟

— أستطيع أن أفعل ذلك : وقد طلبت الإذن به وتلقيته .

فأيديكم تقطر دما . اذهبوا واغسلوها أولاً . القيامة تحتاج إلى أيدي

طاهرة وقلوب طاهرة . وقد قال لي الله أنه لا يريد أن يقوم في كاستلوس .

— يا يهوذا ! سوف يخلق لك الأسقف لحيتك !

وابتسم الأب ياناروس قائلاً :

— ما أجمل هذا التهديد ! إذن سأذهب إلى الجنة بدون لحية !

وبدأت عجوز تصخب وتصيح :

— حذار يا عدو المسيح ! نحن الأمهات كلنا سنقيمه معاً !

وصاح الأب ياناروس :

— ارجعوا إلى بيوتكم . هيا ، اختفوا .

وحاول أن يغلق الباب لكن عصا مندراس أصابته بشدة فسال الدم

من جهته . وأراد كريا كوس أن يقذفه بقطعة حجر ، لكنه شعر بالخوف فتركها من يده .

وخرجت من الأفواه مقطوعة متنوعة من الشتائم . والنساء اللاتي

أتين في ثياب الحداد ، أزحن الشالات خلف أكتافهن ، وأخذن يضربن

الصدر ويبيكين المسيح . وجفف الأب ياناروس الدم الذي سال من

وجهه حتى لحيته ، وصاح :

— أيها اليونانيون ، يا قتلة إخوتكم ، هل تريدون أن تحتفلوا بعيد

القيامة ؟ تريدون أن يقوم المسيح في قلوب مثل قلوبكم ؟ اللعنة عليكم !

وصفق الباب بعنف وشدة .

وارتفعت الصيحات من كل جانب :

— يا لحية التيس ! يا عدو المسيح ! يا يهوذا !

واستعاد كريا كوس شجاعته فالتقط بيديه الاثنتين قطعة الحجر التي

تركها ، ثم ألقاها على الباب .

وصاح الشيخ مندراس يخاطب الجميع :

— هيا يا أصحاب ! هيا نبحث عن القومندان ونكشف له هذا

الغراب !

كانت مصاييح البيوت قد انطفأت واحداً بعد آخر . وفي عنابر
النوم بالمعسكر أخذ الجنود يتهايمسون بصوت منخفض والبنادق في متناول
أيديهم . ودورات الحراسة المنتثرة على جوانب الجبل ترهف الأذان
لتلتقط أى صوت ، فلا تسمع سوى رفة مكتومة من طائر ليلى أو عواء
مسرور من ابن آوى ، أو نباح كلب يصرخ في القمر الحزين وراء الجبل .
كان القومندان يشعر بتوتر عصبي ، فجلس أرضاً على عتبة المعسكر ،
يدخن سيجارة بعد أخرى دون أن يجد الرغبة في النوم . وكيف ينام
إذا كان مسئولاً عن قرية في خطر ؟ والجنود يفرون الواحد تلو الآخر ،
والمعسكر تنقصه المؤن والذخيرة ؟ لقد نسوه تماماً في هذه الصحراء .
يجب أن يحمى الخطوط ويمنع البرابرة من المرور . لكن البرابرة كانوا
يمرون . بل كانوا داخل القرية يتصلون بالجبل بواسطة الإشارات ،
ومن يدري ، قد يصل الأمر إلى أن يعبروا الخطوط ليتجمعوا أثناء
الليل . اللعنة عليهم !

وألقى بالسيجارة وسحقها بكعب حذائه الثقيل .

— القلاع تؤخذ من الداخل لا من الخارج . والعدو موجود في
الداخل . فلا بد من تطهير ذلك كله . القسيس أولاً . إنه رجل لا يؤكل
بسهولة ، هذا الغراب القدر ، لكنى سأناله .

ونفض ليشى قليلاً ويستنشق هواء الليل المنعش . كان الأنصار
يشملون النيران على قمم الجبل . ولوح القومندان بقبضته نحو الجبل :

— يا خونة ! يا ماجورين ! لا بد أن أقضى عليكم في النهاية !

وفي هذه اللحظة شعر في قلبه بألم حاد ، وعادت إلى روحه ذكرى .
في الأيام الأولى لوصوله إلى كاستلوس رأى حلاًماً . رأى أنه كان نائماً في
أنقاض معبد القديس يوحنا الرسول على جانب الجبل ، وجفأة سمع في نومه

بكاء ، ففتح عينيه وشاهد أمامه امرأة جميلة جداً وشاحبة جداً وعيناها
واسعتان يسيل منهما الدمع . ومد إليها يده قائلاً :
— من أنت يا سيدتى ؟

وكان يظن أنها السيدة العذراء . لكن المرأة اليائسة أجابت :

— ألا تعرفنى ؟ ألا تعرفنى يا قومندان ؟

وكرر السؤال وقد بدأ يرتعد :

— من أنت يا سيدتى ؟

فأجابت بصوت منخفض حزين :

— أنا اليونان . كل أبنائى يطردونى فلاأجد مكاناً أضع فيه رأسى .

وقد جئت إلى جانبك يا ابنى الجأ إليك .

فصرخ وانتفض والدموع تملأ عينيه :

— يا أمى ، لا تبكى . أنا لن أتركك أبداً . فاطمنى . سوف أسعى

إلى الموت من أجلك .

ومنذ ذلك اليوم أصبح القومندان رجلاً آخر . قبل ذلك الوقت ،

شارك فى الحرب العظمى وفى جبال ألبانيا وعلى رمال ليبيا ، كجندى بين

آلاف الجنود اليونانيين . وترقى شيئاً فشيئاً من جندى صغير حتى وصل

بمجهوده وقدرته إلى رتبة القومندان . لكنه ظل قومنداناً مثل كثيرين

غيره . ولم يشعر قط بأنه ، هو ديمتروس ليفاس ، الرومبلى ، مسئول عن

اليونان كلها .

لكن منذ رأى هذا الحلم لم ينم . لم يعد يشعر باليونان أمامه ، بل

فى داخله ، تصيح طالبة النجدة . وكان يقول فى نفسه : إذا هلكت

اليونان سيكون هذا خطئى ، وإذا أنقذت سيكون هذا فضلى . وهكذا

اندفع فى الحرب مجنون . يوماً واحداً فقط ، نساها . يوماً واحداً ،

عليه اللعنة ثلاث مرات ! كان هذا في المساء . غاد من المعركة فلم يجد زوجته في البيت . الماهرة رحلت لتلتحق بالأنصار على الجبل .

وبصق ، وعاد يمشى . كان الوقت قد تخطى منتصف الليل ، فعاد إلى المعسكر والعرق يسيل من جبهته وتحت إبطيه . وهمس لنفسه :

— اغفرى لى يا امى أنا نسيتك ذلك اليوم . لسنا سوى بشر .

بؤساء . نحب زوجاتنا . باللسقوط !

وجلس القرفصاء على الأرض يضغط برأسه على جدار المعسكر ، ويدفع روحه دفعاً إلى قرية جبلية صغيرة تسكنها أمه هناك في روميليا .

ثم عاد بروحه إلى كاستلوس ، عند الأب ياناروس وعند جنوده . لكنه لم يدعها تتوقف لحظة عند المرأة الحائنة — الله وحده يعلم أين

تزحف في هذه اللحظة ومع من تنام !

ورغم ذلك كله ، كانت روحه تعود دائماً إلى هذه المرأة . وهمس :

— اللعنة عليها ! اللعنة ! الأسد لا يخشى سوى القملة . لكننى

لن أتركها تأكلنى أبداً !

وأشعل سيجارة جديدة وبدأ يدخن .

وعلى طرف القرية قريباً من المعسكر ، انفتح أحد الأبواب فتحة صغيرة

وأطلت عجوز برأسها . كانت تلف شعرها بشريط أحمر . ونظرت في كل الجهات . الأضواء انطفأت والطريق مهجور . وتخطت العجوز عتبة

البيت في جراءة . كانت تلف حول رقبتها شالا مرقعاً ، وتمشى حافية القدمين لصق الجدران ، تستدير من لحظة لأخرى تنظر إذا كان يتبعها

أحد . وتقدمت في هدوء حتى وصلت إلى المعسكر . وعند ما رأت القومندان مستنداً إلى الحائط غارقاً في أفكاره ، توقفت وجسدها كاه

ترتعد . ونزل عليها شعاع من القمر . عجوز تملأ التجاعيد وجهها .

لها عينان مشتملتان ، ويدان تهرأتا من غسل الملابس . القرية كلها تسخر منها . ولهذا لا تخرج المجنونة البائسة من بيتها إلا في الفجر أو أثناء الليل . كانوا يسمونها كيرا بوليكسيني . حتى وقت قريب كانت تعمل خادمة عند مندراس المالك الكبير . عمرها الآن يزيد على الستين عاماً ، لكنها تتمسك بأن تلف الشريط الأحمر حول شعرها . هذا هو الجنون الذي أصاب رأسها . كانت تصاب بالإغماء أيضاً وتسقط على الأرض من وقت لآخر وتطلق الصراخ الحاد . لم تكن صغيرة السن عندما هامت حياً في أحد الأيام بيقال القرية كير تاناسيس ، التي ذى الثلاثين عاماً . في مساء كل يوم سبت كانت تضع الشريط الأحمر في شعرها وتمشي متباطئة أمام دكان البقال ، وتتهند وتقول له كلما وجدته وحده :

— مق تزوجني يا صغيري تاناسيس ؟ مق تزوجني يا عزيزي ؟

لم أعد أستطيع أن أنتظر .

وكان يحاول طبعاً أن يتخلص منها فيقول لها :

— أنا أريد مهراً كبيراً يا عصفورتى . أنت تدركين أننا سننجب

أطفالاً والأطفال يكلفون غالباً ! ثم أنا مصر على أن تعيشي كملككة .

— وما مقدار المهر يا تاناسيس ؟

— أريد اثني عشر سريراً صغيراً وست مباخر من الفضة وخمسين

سروالا .

— حسناً ، يا أغلى شيء عندي . سأذهب إلى سيدي وأقول له هذا .

وتعود إلى بيت مخدومها وترتمي على قدمي الأب مندراس قائلة :

« سيدي ، ارحمني . اعطني اثني عشر سريراً صغيراً وست مباخر من

الفضة وخمسين سروالا ، لكي أتزوج كير تاناسيس . وإلا فسوف

يرفضني كما يقول . » . ويضحك الأب مندراس ويقول لها : « هذا السافل

أنيابه طويلة ! لكن أنا لا أستطيع أيتها المرأة الطيبة بوليكسيني . فمن
أين أحصل على خمسين سروالا ؟ دعك منه . »

وتعود المسكينة مرة أخرى إلى البقال :

— السيد قال لي إنه لا يستطيع أن يقدم هذا كله . يبدو أن
هذا كثير !

— لقد اخترت وقتاً غير مناسب لمطالبته . فماذا تفعل إذن
يا بوليكسيني ؟

وتقول له وهي تهز عجزتها :

— اخطفني .

وفي مساء أحد الأيام قال لها وقد فاض به :

— معلوم ! سأحضر لأخطفك غداً في منتصف الليل . فاستعدى

إذن ...

وعادت تجرى . وانتظرت حتى نام الجميع ، فاغتسلت وغبرت
ملابسها الداخلية وغطت رأسها ، وذهبت تقف كالتمثال على عتبة الباب
تنتظر خاطفها . ودقت الساعة منتصف الليل . ومر منتصف الليل
وطلع الفجر . ولم يظهر تاناسيس . وسقطت المسكينة مريضة من الحزن .

وبمرور السنين تضاعفت حالات الإغناء التي تصيبها ، وازداد اختلاط
عقلها . لكن قلبها لم يستطع أن يبقى خالياً . وأحبت ستليانوس النسيج ،
لأن له أذنين كبيرتين وصوتاً ضخماً . وفي مساء أحد الأيام اصطادته
وحده في الكنيسة بعد الصلاة ، وكان الجميع قد انصرفوا ، فقالت له :

— ستليانوس ... هل تريد أن تزوجني ؟

وكان يعرف حزنها ويشفق عليها ، فأجابها قائلاً :

— وكيف أستطيع ذلك يا بوليكسيني المسكينة ؟ كيف أستطيع

وأنا متزوج ؟ لكن أخى سوفوكليس ، الضابط ، يحبك ... وأنا أعرف ذلك من مصدر مؤكد ... فانتظري فقط حتى يرجع إلى القرية ويتزوجك ...

ووصلت القصة إلى الأب مندراس ، فأسرع الشيخ الحبيث يبحث عن ستليانوس ليتفاهم معه . وعند ما عادت بوليبيكسيفي المسكينة تسأل ستليانوس عن أخبار حبيبها ، قال لها انه تلقى منه رسالة .
— وماذا كتب لك عنى يا ستليانوس ؟

— قال إنه يأمل أن يرجع في عيد الميلاد ، وانه لا يطلب منك سوى شيء واحد : أن تكونى طي ما يرام فى أعمال البيت ، وأن تنظفى جيداً عشة الفراخ وتفسلى الملابس وأنت راضية ، وتنتبهى إلى أوانى المائدة فلا تكسريها . ثم أهم شيء ألا تطالبي بأجرك . فهو متمسك جداً بهذه المسألة . ويجب ألا تنسى أنك زوجة ضابط . وإذن لا بد أن تقفى تماماً فى الصف .

وانتظرت عيد الميلاد ، وانقضى عيد الميلاد . ثم انقضت أعياد ميلاد أخرى . ومرت السنوات وأصبحت كيرا بوليبيكسيفي بيضاء كلها ، واختفى ثدياها وسقطت أسنانها ونبت لها شارب . واندلعت الحرب الأهلية . ووصل القومندان إلى القرية . فقال لها ستليانوس : « هذا هو سوفوكليس ، فاذهبي إليه وتفاهمى معه . »

والآن ، عند ما ينام الناس جميعاً ، تنكش المسكينة كل ليلة فى الشال المرقع وتخرج من البيت متلصصة ، تزرق لصق الجدران حتى تصل إلى المعسكر . وعند ما يكون القومندان وحده ، تتلمسه بخفة وترتعد . وفى أحد الأيام أراد القومندان أن يضربها ، فعقدت ذراعها وقالت له فى سعادة غامرة : « اضربنى يا حبيبي . اضربنى حتى أحس بيدك على جسمى . »

وفي هذا المساء لم يكن مزاجه يسمح بسماع التهنيدات ، فصرخ فيها :
— أنا لست في وقت مناسب ، فلا ترينى وجهك .

وأجابت على الفور بصوت مستسلم :

— حسنا ، حسنا ، سأنصرف يا سوفوكليس ،

وانصرفت والشال يلتف حول رقبتها تمشى لصق الجدران .

وانفجر القومندان :

— لو استمر الحال بهذا الشكل فسوف أتحول إلى حمار . الأنصار

ومدرس القرية ، والأب ياناروس ، ثم الآن هذه المجنونة ... لا بد أن
ينتهى ذلك كله !

ونادى ابن بلده الجاويش الروميلي وقال له :

— لتتكلم بهراحة ياميتروس ، ماذا نفعل لنخرج من هذا الموقف ؟

ما رأيك في هذا القسيس الشيطان ؟

وقطب الجاويش جبينه وانكش رأسه بين كتفيه :

— ماذا أقول أيها القومندان ؟ الشيء الغريب أنى لا أشعر بالخوف

منه إذا لم أكن أراه ، بل أستطيع أن أنتزع لحيته شعرة شعرة دون تردد .

لكن بمجرد أن يظهر ، أعوذ بالله من الشيطان ! أشعر أنى فقدت

الساقين . ما معنى ذلك ؟ ربما لأنه يقول الحق بشكل ما . لكن وإيمانى

لو كان ما يقول حقاً ، فقد ضعننا !

— وماذا يقول ياميتروس ؟ لا تهول الأمر .

— يقول : المسيح موجود على يمينى لا يراه أحد غيرى ، ولهذا

لا أخشى أحداً . فلو كان هذا صحيحاً أيها القومندان ... ؟

وفقد القومندان صبره :

— أعتقد ياميتروس يا مسكين أنك بدأت تصاب أنت أيضا . وأنا

على حق تماماً حين أقول أنه آن الأوان لنخرج من هذه الورطة إذا أردنا
ألا تختلط عقولنا . بل أنا استدعيتك لهذا السبب . انصت لى لحظة .
أنا لا أحب قط هذا القسيس وطريقته فى التصرف . هل رأيت ياميتروس
كيف يضع رأسه برأسى ؟ ثم إنه طوال الوقت يتهامس مع الناس . دعك
من أنه يتردد أيضاً على المدرس البلشفي . وسوف ترى أنه يطبخ لنا شيئاً
مع هذا الخائن ابنه الكابتن على الجبل . ما رأيك فى ذلك ؟ هيه ! أنا
أكلك ، فأين ذهب عقلك ؟

وهز الجاويش رأسه وقال :

— ماذا كنت تريد أن أقول أيها القومندان ؟ فى الحقيقة هناك
شئ حاولت عبثاً ألا أفكر فيه لكنى لم أستطع أن أنتزعه من روى .
شئ ظل يلح على طوال الأسبوع المقدس . ومن حسن الحظ أنى وجدتك
هذا المساء فى إحدى حالاتك المناسبة ، وهذا يجعلنى أفكر فى أن أسألك
عنه . فهل تسمح يا سيدى القومندان ؟

— تكلم ...

— هل صحيح أنه حقيقى هذا الحزام ، حزام العذراء ، أيها القائد ؟
وهز القومندان كتفيه :

— وما أهمية ذلك بالنسبة لك ياميتروس ؟ أنت تبحث عن أشياء
لا يمكن الوصول إليها . وسواء كان حقيقياً أم لا ، فقد لعب دوره .
أنت سمعت كيف كان الراهب يصيح وهو يمر أمام المعسكر : « اقتلوا .
اقتلوا ! لتكسبوا بركة العذراء ! اقتلوا أصحاب البيريه الأحمر لتكسبوا
خلاصكم ! » هذا ما كان يصيح به . وهو هكذا شئ جميل جداً . فالتناس
يتصورون أنهم يسمعون من فم الراهب صوت الله . وهذا يثيرهم للقتل .
هذا الحزام يؤدي إذن من العمل أكثر مما يؤدي مدفع ...

وقاطعه الجاويش قائلا :

— لكن يا سيدي القومندان ، الأب ياناروس يقول أيضا انه صوت الله ، ومع ذلك فهو يعظ بشيء مختلف تماما . فواحد يقول : اقتلوا ! اقتلوا ! والآخر يقول : لا تقتلوا ! لا تقتلوا ! فأى الصوتين إذن صوت الله الحقيقي ؟ أم هل الله له أفواه متعددة ؟

وابتسم القومندان في ضيق :

— أنت تتكلم كالمغفل يا ميتروس . ألا ترى ما يحدث في بقية العالم ؟ أم لملك تعتقد أننا وحدنا فقط الذين نعاني من المتمردين ؟ ماذا يفعلون في أى مكان آخر ؟ عند ما ترتفع رأس : طاخ ! تصرع على الفور . ونحن نفعل نفس الشيء . هذا هو الحزام الحقيقي .

— لكن حق مق أيها القومندان ؟ أنا لا أعرف ماذا يفعل الروس أو الصينيون أو الزنوج . لكننا نحن قليلو العدد جداً ، وإن نتمكن من أن نمسك ...

وقاطعه القومندان بطريقة جافة قائلا :

— كفى تخليطاً ! بالمصيبة إذا كنا سنبدأ الآن في التفكير . الجندي معناها أن تقتل دون أن توجه أسئلة . انصرف !

كان القمر يظهر وراء قمة الجبل . ونسخ نوره النجوم الصغيرة ، فلم
تعد تتلألأ في هدوء الليل المشرب باللبن سوى بعض النجوم الكبيرة .
وفي الفضاء فاحت رائحة الكبريت وحضور الله . وأسرع الأب ياناروس
يمشى في إصرار على طول جانب الجبل . ومن وقت لآخر كان يتردد نعيق
محزن من بومة تطير متشاقلة بين الصخور . ويدير الأب ياناروس رأسه
ويبصق ثلاث مرات للتعويذ على الطائر الذي يحمل الشؤم . كان قد شمر رداءه
الكهنوتي المرقع وثبته في حزامه الجلدي . وفي ضوء القمر لمعت ساقاه
العاريتان حتى الركبتين ، ملتويتين مليئتين بالنتوءات كأنهما فرعا شجرة
زيتون عجوز . وكانت طاقيته تنزل فوق حاجبين لا يزال لونهما أسود ،
ومن تحتها تبرق عينان مشتملتان في قاع محجرين غاثرين . وأخذ يجيل
النظر أمامه وخلفه وحوله دون توقف . فهو — الأب ياناروس —
يعرف جيدا هذه الجبال الصحراوية . ليس فيها سوى صخور وحصى !
لاشجرة خضراء ولا قطيع حيوان ولا قرية ولا إنسان . على مرمى الأفق

لا ترى سوى تعريشات شوكية ملبدة من نبات الخناج والصعتر ، خاطرت
في هذا الوقت من أبريل فأبرزت بين أشواكها بعض الزهور القليلة
الهزيلة . وفي أعلى ، تسبح الغربان في الجو . وفوقها تعلو السحب . وأعلى
من ذلك النسور . وفي أعلى الأعلى ، فوق النسور ، الله .

وهمس الأب ياناروس وهو يهز رأسه القى دبغتها الشمس والمطر :

— حصى وصحراء وجوع ، هذه أنت أيتها اليونان المسكينة ! حصى

وصحراء وجوع ودم !

وتنهى وعاد يجيل نظره في السفوح من جبل لآخر ، كأنما يربت
برقة وحب وإعزاز على ظهر اليونان ، وكأنما اليونان تنتفض في سعادة
وتستعيد حياتها تحت لمسات عيني هذا المحب . وضغط الأب ياناروس
بذقنه على طرف عكازته . وتصاعدت في داخله ذكريات كثيرة ، انتفخ
لها قلبه فاهتز وتطلع إلى الفرار من صدره العتيق . وخاطبه المكافح
المجوز كأنه عصفور مدلل يحفظه في قفص ليسمع تغريده : « أين
ستذهب ؟ أين ستذهب أيها العصفور الصغير الذي لا يعقل ؟ إنك
هنا على ما يرام ، فاسكن مكانك . »

اسكن الذكريات تصاعدت ، واستمر القلب يدق قضبان هذا
القفص يحاول الفرار . منذ وقت غير طويل ، امتلأت هذه الجبال بالجنود
يلبسون الإزار الوطني^(١) . كم من الهجمات قاموا بها ! كم من الصياح
وكم من الفرح وكم من الهياج ! روح الإنسان ضللت الموت وأذاته .
والعدراء البتول حملت السلاح هي أيضا . استبدلت ملابسها السوداء

(١) كازنزاكي يشير هنا إلى الحرب التي خاضها الشعب اليوناني ضد العدوان
البلغاري الألباني بعد الحرب العالمية الأولى . والمؤلف يقارن بين هذه الحرب الوطنية
الناجحة ، والحرب الأهلية المدمرة .
(المترجم)

بمطف يونانى من الصوف الكث وجوارب بنفسجية من النوع الذى تلبسه الفلاحات ، وغطت شعرها الأشيب بطاقيّة صوفية عالية كأنها خوذة حرب ، وسارت على رأس جيوش يونانية تستنفرها بالصياح نحو الشمال ، نحو فالونا والشهداء الأربعين . وكانت تجرى وتصيح فى أحلام الجنود ليلا ، وفى الشمس والسحاب نهارا ، وتذرع الجبال وتنقل المدافع على ظهرها وتوزع الخبز والدخيرة على المحاربين وتروى غلتهم بالماء البارد من جرتها التى لا تفرغ . وفى إحدى الأمسيات رآها الأب ياناروس بنفسه تحمل على صدرها جنديا جريحا . لم تكن المعركة قد توقفت حين عبرت الخطوط الأولى تحت وابل من القنابل وذهبت تحمله وتبتسم له فى رقة . وفى يوم آخر - يوم الجمعة - شاهد القديس جرجس أشجع الشجمان يمدو بحصانه الأبيض وشعره يطير مع الريح ، وعلى ردف الجواد جلست شابة تسقيه من إبريق ذهبي ، شعرها يضرب إلى السواد ، وعيناها واسعتان ، هى اليونان ، وكان قد انتهى لتوه من قتل المسخ ، الفارس الأشقر ، ورمحه لا يزال يقطر دما أسود . ثم اختطف الأميرة الخالدة ووضعها خلفه على ردف جواده الجسور ليحملها إلى الشمال أيضا ، إلى فالونا والشهداء الأربعين . وكانت كل اليونان ، مظهر منها وماخفي ، تتآخى فى جبال إيبر ، وتختلط الأرواح بالأجساد ، تطارد الغازي الغادر من جبل لآخر وتخلص أرض الوطن المقدسة .

وانشق قلب الأب ياناروس . فقد بدت له اليونان فجأة مثل قديسة تستشهد راقدة أمامه فى ضوء القمر خرساء تمزقها الجروح .

وصاح :

— أيتها اليونان الشقية ! لست سوى مجد وجوع . لست سوى

روح وقدماك فى رأسك . لكن يجب ألا تموتى يا أمنا . فلن نتركك .

وهز رأسه وأمسك بالعصا وغرزها بشدة في الأرض كأنما يقسم
يميناً . وجال بنظره مرة أخرى خلال الجبال الجرداء وقطع الحجارة
والأخاديد التي ارتوت بالدم الغزير . واستولى عليه خوف قدسى .
وهمس :

— ها هنا ولد الرب . رب اليونان . ربنا نحن الذي كان يلبس
الإزار الوطني والزحاف التركي المندش . هنا على هذه الجبال الموحشة .
صنع خالقنا من هذه الأحجار المخضبة بالدم . لكل شعب ربه . وهذا هو
ربنا الذي نعبد . قطعة من أحجارنا ودم من دماننا . معذب تغطيه
الجروح . عنيد مثلنا وخالد .

وانحنى يلتقط قطعة من حجر تميل إلى اللون الأسود ، كانت لا تزال
ملاطخة بدم لم يجف ، وقبلها ووضعها في حفرة بين صخرتين ، كي
لا يدوسها أحد ، كأنها قربان مقدس . وأحاط به المجهول فجأة يحس
بمحضوره ثقيلاً كالصخرة ، ويفوح عبيره كنبات الصعتر . امتلأت قمم
الجبال المهجورة بالله ، وصهل قلب الأب ياناروس كما يسهل الجواد . لم
يكن وحيداً مقطوعاً في هذا العالم ، لكن الله كان يصاحبه . وسرت في
قلبه وفي يده قوة كونية أمدهه بطفرة جديدة .

وبدأت الأحجار تتدحرج مرة أخرى تحت حذائه ذى الحديد .
وأخذ يتشمم الجو بمنخريه وهو يتسلق الجبل . في السنوات السابقة ، كانت
القرية تفوح يوم سبت النور برائحة الخبز الطازج ، وعتبات المنازل تلمع
لأن ربات البيوت لم يكن يتوقفن لحظة عن الدخول والخروج في
اضطراب شديد يحملن السلال المليئة بالبيض الأحمر وفتائر العيد . كم
كانت سعادتنا في ذلك الوقت ! كان الفلاحون يزههون ويلبسون
أحسن ما عندهم . طوال العام يكون منظرهم كالذئاب أو الحيوانات

المفترسة . لكنهم في ذلك اليوم يتجملون ويقوم فهم المسيح حقا فيصبحون بشرا . كان الأب ياناروس ينجز القيامة بأقصى سرعة في كاستلوس . ثم يطير فوق الجبل دون أن يضيع لحظة يحمل البطرشيل تحت ذراعه ويشمر رداءه الأسود ، ويصل إلى شاليكا في الفجر ، فيقيم فيها المسيح ويرحل مرة أخرى وهو يجرى أيضا في الطريق إلى براستوفا . وأخيراً يصل إليها عند بزوغ الشمس لاهثاً يتصبب عرقاً . وتسطم الأضواء في الكنيسة الصغيرة هناك ، والشهداء يضحكون في الصور المنقوشة على الجدران ، والمسيح ينتظر الأب ياناروس ، وينحني الأب ياناروس يقبله ويرفعه من القبر . يأخذه بين ذراعيه بخفة شديدة وبرقة لا حد لها كأنه ابنه الميت ، ويقرأ عليه التعاويذ المقدسة التي تعود به من مملكة الموت . ثم يفتح الإنجيل الفضي الثقيل ويصعد على المنصة القائمة في فناء الكنيسة ويبدأ الترتيل بصوت جهورى :

« في أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرا والظلام

باق . »

وتخرج من الصدور في نفس اللحظة صرخة : « المسيح قام ! »

ومرة واحدة تشتعل كل الشموع وتفيض الأضواء بشدة ، وتلمع الشوارب والأسنان والأعين والشمور ، ويتعانق كل الناس . ويتصبب الأب ياناروس عرقاً ويشعر بالإرهاق والسعادة . ويطوى البطرشيل ويشمر رداءه الكهنوتي ويعود إلى كاستلوس مع الشمس .

وتنهّد وقال لنفسه :

— ما أبعد هذه السنين ! أين القسيس الذي يطير بأجنحة بيضاء ليقوم المسيح حينما يقف ؟ وأين المسيحيون الذين يتعانقون في ضوء

الشموع ا ما أبعد هذا كله ا أصبح الناس لا يفكرون إلا في أن يذبح بعضهم بعضا .

وبدا يشعر بتثاقل ساقيه . وأصابه التعب . كان قد وصل إلى منتصف جانب الجبل أمام معبد مهجور للقديس يوحنا الرسول . وتأمل أنقاضه وفمه يفيض سماً . منذ أيام قليلة جرت هاهنا معارك . تنازع الحمر والسود هذه الكنيسة ، فمذفها الجانبان بالقنابل ، كل جانب بدوره . وانهار أكثر من سقف وجدار ، وأصبحت الأيقونات البيزنطية تبدو معلقة في الهواء . ودخل الأب ياناروس يخطو بين ركام الأنقاض وعوارض الخشب التي التصق بها الجبس . ووقف في وسطها وانحنى كأنما يقبل العدم . كانت صور المسيح والعذراء في زاوية الهيكل قد تقشرت وسقطت على المائدة المقدسة فاجتمعت منها كومة من الألوان والجبس . الجزء الوحيد من الجدران الذي بقي سليماً لم يمس هو الذي نقشت عليه صورة الرسول أصفر اللون بارز العظام لحيته مشعثة يكسوه جلد خروف . ومع ذلك استطاعت قبلة أن تبقر بطن الرسول ذي الشكل البدائي ، وأن تكشف أحشائه : الجير والتراب والحجارة . فإذا هبت عليه نسمة بسيطة أو سقط فوقه مطر ، سينهار كله فلا تبقى سوى أطراف قدميه في أسفل الجدار على قطعة مرسومة من نهر الأردن .

كان هناك قطعتان من الخشب لحمل الشموع لا يزال الدخان يتصاعد منهما . أما المحراب فقد تحول إلى فخم ، ومعه الكرامة العتيقة المنحوتة بدقة رائعة من الخشب المذهب . وحملق الأب ياناروس في الرسول الذي بقرت بطنه ، وفاض قلبه بالسخط ، فقال :

— لأنصرف قبل أن أقول كيفرا ا فلست أحتمل . أنت أيها

الرب قادر على كل شيء ، ثم تقبل ما يحدث ؟ أما أنا فلا أقبل ا

وشعر بأن كلمات التجديف أصبحت على طرف لسانه ، فاستدار بسرعة ومضى متعجلاً يدوس فوق ركام الأنقاض . وتجول في البناء حتى وقف أمام الجدار الشمالي . ورأى بقعاً كبيرة من الدم . واقترب منها . هذا دم واضح ، فيه بعض الشعر النسائي ، تلتصق به هنا وهناك قطع ملطوخة من مخ إنسان . وامتلأت عينا الأب ياناروس بالدموع . وثارَت نفسه ، فمسح دموعه بيديه الكبيرتين وكتف بكاءه . لكنه لم يستطع أن ينزع عينيه عن الجدار . فقد كان هو نفسه الذي سمع منهن الاعتراف وقدم لهن المناولة الأخيرة أول أمس في هذه الكنيسة المهجورة . وفي لحظة عابرة من لحظات الجبن ، صور له الضعف أن ينصرف . لكنه خجل من نفسه ، فبقي ليحضر الإعدام .

كان عددهن سبعا : ثلاث عجائز وأربع شابات . أبلغ عنهن راهب من رهبان جبل آتوس . يبدو أنهم كن يتعاونن مع الأنصار ، ففاجأهن في إحد الليالي يتسلقن الجبل ومازرنهن مليئة بالخبز والجبن والجوارب الكبيرة والملابس الصوفية التي اشتغلن بها بالإبرة خفية أثناء ليالي الشتاء ليقدمنها للمتمردين . ووضعوهن في صف واحد لصق الحائط ، وكان الجاويش ميتروس هو الذي يأمر فرقة التنفيذ . وهو روميلي طيب ، هادئ غير خبيث . أبيض القلب ، لا يفكر إلا في زوجته الصغيرة وطفله الرضيع هناك في إحدى القرى بالقرب من كاربنيسى . لكن في ذلك اليوم ، التوت شفتاه واحتقنت عيناه بالدم . أعطوه سبع نساء لإعدامهن ، ففقد صوابه . يقال إنه شعر بوخزات التائب في قلبه ، فاستوحش ولجأ إلى الصراخ والعنف ليغطي صوت قلبه فلا يسمعه . وعندما وجه الكلمات إلى النساء السبع الواقفات في صف واحد لصق الحائط ، أصيب الأب ياناروس بالدعر . ذلك أن الصوت الذي سمعه

لم يعد صوت الجاويش بل صوت وحش قديم استيقظ وأخذ يهز شهر
رأسه ويزجر في صدر الروميلي الطيب :

— يا بلاشفة ، يا مومسات ، سأسلخ جلودكن ! هيا ، بسرعة !
هل عندكن شيء يقال ؟
وأجابت العجائز :

— لا شيء . . . لا شيء . . . لا شيء . . .

ورفعت الرابعة رأسها . كريسولا ذات الثمانية عشر عاما ، مدرسة
قرية براستوفا . وانتشر شعرها على كتفين عاريتين مزقتهما ضربات السوط .
وقالت :

— أنا عندي كلمة !

— تكلمى يا عاهرة !

— تحيا اليونان !

وفي هذه اللحظة بدأ السبعة ينشدن معا بصوت واحد : « من بين
العظام المقدسة . . . »

لكن لم يستطعن أن يكلمن النشيد الوطنى ، فقد عوى الجاويش :
— اطلقوا النار !

وتلطنح الجدار بالدم وقطع المنح .

استرجع القسيس هذا المشهد ، فرسم علامة الصليب ثم قبل قطرات
الدم المتجمدة وقال هامساً :

— لا أريد أن أعرف من يكون على حق . أنا لا أعرف شيئاً .

فأنا عجوز ، فقدت صوابى ، ومع ذلك فقلبي الذى انخلع يصيح : من
يدرى ؟ من يدرى ؟ لعل اليوم يأتى ليشيّدوا مرة أخرى كنيسة جديدة
على أنقاض كنيسة القديس يوحنا الرسول يندرونها للرسولات السبع ؟



وظل يفكر لحظة ، ثم انحنى والتقط قطعة فخم وعاد إلى الداخل :
— سأكتب أسماءهن على الجدار .

وطى الجدار الأبيض الذى بقى بجانب يوحنا الرسول بدأ يكتب
بمحروف كبيرة واسعة وعالية جداً :

بلاجيا * فروسو * آريقى * كريسولا *

كاترينا * مارتا * ديسبينو

— ماذا تنقش على الجدار يا أبى ؟ كلمات تذكارية ؟

وقفز القسيس إلى الأرض فجأة بعيداً عن الرسومات السبع . كانت
تقف خلفه امرأة تشبه الفارسة ، حاجبها مرسومان ، لكنها تتخذ شكلاً
أقرب إلى الرجال ، ترتدى ثياب راهبة وتضع على رأسها بيريه من الخمل
الأسود تفلت منه جزلة من الشعر الأصفر المجد . وكان القمر يعكس في
عينها أضواء زرقاء وخضراء وصفراء ، كتلك التى تظهر في عيون
النمرات . وعرفها الأب ياناروس ، فقطب حاجبيه :

— ماذا تفعلين هنا يا سيدتى زوجة القومندان ؟ أين تذهبين ؟

— إلى الجبل . ألا تتابع الأخبار يا أبى ؟ أنا أحمل خطابات ورسائل

إلى الرفاق .

واكتسب صوتها نغمة ساخرة وهى تقول :

— ألا تباركنى يا أبى ؟

ورفع القسيس ذراعه وخفضه تعبيراً عن الغضب :

— لنكونوا جميعاً مباركين ولتكونوا ملعونين طالما كنتم في الجبن

أو في اليسار . لماذا هجرت بيت زوجك أيتها المرأة الفاجرة ؟ أى شيطان
ركبك ؟

وانفجرت المرأة بالضحك :

— أنت تسميه شيطاناً . لكن أنا أسميه « الحرية » .

— الحرية بلا فضيلة ولا عفة تأتي من الشيطان ! وإلا فهل تتمثل

الحرية في هجرة الزوج وحرق القرى والقتل ؟ أنا لا أفهمها بهذا المعنى .

— أنت تزداد شيخوخة يا أب ياناروس . العالم يتقدم ، وقد تخطاك .

فلن تستطيع أن تفهم . على كل حال ليس عندي وقت لأناقشك . فواجبنا

نحن أن نعمل . الوداع أيها المبعجل .

وعادت المرأة تضحك ، وابتعدت في الطريق الضيق تقفز برشاقة

من صخرة لأخرى . وبعد لحظة ، وقفت وخلعت البيريه لتجفف جبهتها ،

فتهدل شعرها على كتفيها .

وصاحت مرة أخرى :

— اخلص منهم يا أب ياناروس . هذا الدور أصبح لنا !

ونظر إليها الأب ياناروس تصعد خفيفة بين الصخور حتى اختفت

عن ناظريه . وفقد كل إحساس بالزمان أو المكان . وقال لنفسه هامساً :

« يا للقوة ، يا لفرحة القلب ، يا للشباب ! كيف يمكن أن أطلب

من امرأة لها مثل هذا الجسد أن تتمسك بالفضيلة ؟ فلنتركها أولاً تنفث

لهيها وتبتلع العالم حتى يعتلىء فمها بالرماد ! ثم أخيراً ، ومن خلال بقايا

الحريق ، تأتي الفضيلة والعفة . »

وتذكر يوم وصلت هذه المرأة إلى كاستلوس في العام الماضي .

كم كانت انفعالاتها شديدة وهي تقبل زوجها أمام أهل القرية الذين

خرجوا للترحيب بها . ثم كيف رفعها القومندان بين ذراعيه وقد رقت

عيناه فجأة وامتلاتا بالدموع ! ومر شهران ، ثم ثلاثة . وفي إحدى

الليالي عاد القومندان من المعركة فوجد البيت خالياً . رحلت زوجته إلى

الجبيل لتلتحق بالأنصار . يبدو أن عينيها شاهدتا أشياء كثيرة ودماء

كثيرة ومذابح وأعمالا عنيفة ... فلم تعد تحتمل ، ورحلت . وتركت على
المائدة ورقة صغيرة فيها :

« لم أعد أستطيع أن أعيش معك . أنا راحلة . »

وفي أسفلها كلمات أخرى :

« لا تنتقم من الأبرياء العزل كمعادتك . لتبقى إنساناً ا »

وقرأ القومندان الرسالة مرة ومرات دون أن ينبس بكلمة . فقط

كان يعض على شفثيه ويرتعد . وكان الوقت ليلاً . أراد أن يذهب إلى

البوابة لينظر في الخارج ، لكنه تمثر وسقط بطوله على العتبة . لم يشعر

بأى ألم . لكنه لم ينهض . جلس ببساطة وأسند ظهره على الحائط وأشعل

سيجارة .

كان ذلك في يناير والبرد يخترق الجسد ، والفناء مغطى بالثلج .

لكن القومندان كان يشتمل . لم يكن يفكر في شيء . ظل ينظر إلى

السماء بعينين غائبتين . وفي الصباح الباكر ، وجده الجاويش ميتروس

نائماً على البوابة وقد تدلت من شاربه قطع كبيرة من الثلج . وفتح عينيه

ونهض دون كلمة . ونحى اليد التي مدها إليه ميتروس ، واتجه نحو

الكنيسة . ودخل وأغلق الباب بالمزلاج ثم أشعل شمعة . كان الجاويش

قد اقتنى أثره ، خشية أن يعجز عن الاحتمال . وتابعه من ثقب الباب .

غرز الشمعة أمام تمثال العذراء ، وظل ينظر إليها طويلاً حتى غامت

عيناه . وإذ ذاك نفخ فيها بشدة ليطفئها وصاح :

« لم يعد لي امرأة أيتها العذراء البتول ! كانت ضوءاً صغيراً يشتعل ،

والآن انطفأت . »

ومنذ ذلك اليوم لم يرخ فكليه عن أسنانه . وامتلأ وجهه بالظلام

وروحه بالحقد الأسود وعيناه بالدم . وأصبح الموت أمينته الوحيدة .

في كل التحام يصعد إلى الصف الأول ويحارب على قدميه مكشوفاً ، لكنه في كل مرة يفلت حياً ويائساً .

واختفت زوجة القومندان تماماً عن نظر الأب ياناروس ، فرجع يديه نحو السماء يهمس :

— ليدسط الله يده على الأخيار والأشرار ، على الأبرار والخطاة .

لسنا سوى بشر ضعفاء مساكين . فيجب أن يكون رحماً معنا . فنحن لا نفهم ما يحدث لنا . ألا يتخذ إبليس كثيراً صورة الله ليضلنا ؟ لكن هيوننا صنعت من التراب والدموع ، صنعت من الطين . فكيف تستطيع أن تميز الأشياء ؟ امسح ، يا إلهي ، امسح !

وشمر بالراحة ، كأنما استطاع بكلماته هذه أن يضع قطعة اسفنج بين يدي الله ، وأن يجعل الله يمسح بها خطايا البشر .

والتفت للمرة الأخيرة نحو الأسماء السبعة التي خطها على الجدار ، ورسم علامة الصليب ، واستأنف طريقه نحو القمة .

وكلما اقترب من مقصده رأى النيران التي يشعلها الأنصار أمام مغاراتهم تزداد حجماً ، وسمع أصواتهم وقهقهاتهم بوضوح أكثر . كان القمر قد بدأ ينجدر . وأصبحت الصيحات الصادرة من معسكر المتمردين أكثر وحشية . واستطاع الأب ياناروس في هذه اللحظة أن يميز ظلالاً يبدو أنها ترقص أمام النيران . ودق قلبه العجوز بشدة ، وعاد يتساءل :

هل كان يجب أم لا ؟ هل اتخذ القرار السليم ؟ إن الله تركه حراً .

وقد اختار . . . في تلك اللحظة السابقة ، كان على يقين انه اختار الطريق السليم . أما الآن وهو يقترب من غايته ، فقد غاصت ركبته وترددت في أعماقه أصوات جديدة : حذار يا أب ياناروس ، فسوف تقدم نفسك لقمة سائغة . كيف تستطيع أن تثق في أناس لا يؤمنون بالله ؟

وتردد صوت أحجار تتدحرج . واستدار الأب ياناروس . كان راعي غنم ينظر إليه . وجهه متوحش وساقاه ملتويتان والشمس لوحت جسده كله . عيناه عينا وحش مذعور يشبهان بليتين متحركتين . وكان يتدثر بجلد ماعز ويضع على رأسه قلنسوة مستديرة أصبحت سوداء من القذارة ، ذات دندشة مهلهلة مبطنة بالصوف الأزرق . وعرفه الأب ياناروس ، فقال وهو يقطب حاجبيه :

— أهلا ديموس . ماذا تفعل هنا ؟ أين تذهب ؟

وتفحصه ديموس بعين القروي الخبيث ولم يجب ...

— هل تستطيع أن تقول لي ، لماذا بحق الشيطان تركت القرية

وهربت إلى الجبل ؟

واستقر رأى الراعى على أن يفتح فمه :

— أى قرية ؟ لم تعد موجودة . نتيجة الطائرات والبيريه الأسود

وغيرها أصبحت فعلاً مثل صحراء العرب . هنا وهناك يتسكع في الخرائب

أناس يحاولون أن يمشروا على بيوتهم . أى بيوت ؟ يدقون الأوتاد

ويعدون الخيوط ثم يقولون : هنا كان بيتي . لكن آخرين يصخبون :

لا ، بل أبعد من ذلك . وهناك فوقها يتمرغون على التراب . والقليلون

الذين يبقون على قيد الحياة يذبحون بعضهم بعضاً . العالم كله يذهب إلى

الشيطان . انتهى كل شيء . ضاعت اليونان .

وقاطعه القسيس رافعاً عصاه :

— كفى ! ليس من اختصاصك أنت أن تحكم على ذلك . اليونان

ضاعت ؟ وماذا تعرف في ذلك ؟ ما أشقاك !

وهرش الراعى رأسه وصمت . وارتسم تعبير الازدراء على وجهه

المدبب الذى يشبه وجه ابن آوى ، لكنه كان يتابع بطرف عينه الأب
باناروس وعصاه .

وقال القسيس بصوت أكثر رقة :

— حسنا ، ارجع إلى عمالك ياديموس . لا تحشر نفسك فى اليسار
ولا فى اليمين ، ولا تجعل نفسك عبداً لأحد لقد أعطاك الله روحاً
حرة . اذهب وابحث عن العنزات التى ترعاها .

— أى عنزات ؟ هل أنت مجنون يا أبى ؟ الدنيا تنهار هنا وأنت
لا تدرك ذلك ! أنت تكلمنى هنا عن الماعز ؟ نصفها أخذه الحمر لأنهم
كانوا جوعى ، والنصف الآخر أخذه السود لأنهم أيضاً كانوا جوعى .
ولم تبق لى سوى العصا التى أهش بها ، ولهذا أخذت أنا أيضاً طريق
الجبيل .

أيام معدودة فقط كانت كافية لتغير حياة ديموس كلها . بعد أن فقد
القطيع ، أصبحت روحه حرة . شعر بأنه خفيف ، فأصبح فدائياً .

— أنت تذهب إلى المتمردىن ؟ أى شيطان يركبك ياديموس ؟
هل تريد إذن أن تبدأ فى القتل ؟

— يبدو ذلك .

— ولماذا ، من فضلك ؟

— لأن القائد على الجبيل سيأمرنى بذلك .

— وأنا أيضاً قائد وأقول لك : لا تقتل !

— ذلك إذن حق يتمكن الآخرون من قتلى ! تريد أن أمد رقبتى

لأستحق إكليل الشهيد ؟ هذه الكثرى موزعة اليوم بالعدل : إما أن

تقتل وإما أن يقتلوك . ومهما يكن رأيك ، فأم القاتل تكون أحسن

حالا من أم القتييل ...

— لكن لماذا اخترت الأنصار ؟ إنهم أيضا يتعرضون للقتل .
— ذهبت مع الفقراء والمهجرين ، فأنا أيضا فقير ومظلوم .
— لكن من الذي ملأ رأسك بهذه الحرافات يا ديموس ؟ أنت
قبل ذلك لم تكن سوى تيس . كنت تآمىء ولا تستطيع أن تتكلم .
— بدأت أتكلم يا أبى . هل تعتقد أن الإنسان يظل يآمىء
إلى الأبد ؟

واقرب من القسيس ، وقد ألقى الدثار الجلدى على كتفه بطريقة
عسكرية ووقف يتحداه بنظراته ساخراً . لكن بقيت في حلقه كلمة قاطعة
كالفولاذ . هل يقولها أم لا ؟
كان لا يزال يفتقد الجرأة ، لكنه لم يملك نفسه ، فقال وصوته يآمىء
تماماً كصوت التيس :

— لو كنت أنا أنت ، لاشتركت في الرقصة بإرادتى ، وإلا فسوف
يجعلونك ترقص بالقوة كالذب الذى يرقص في السوق .
ثم قفز جانباً ليتجنب عصا القسيس ، واختفى بين ركام الجبل .
وظل الأب ياناروس واقفاً فاغراً فاه ، يقول وهو ناثريلعن نفسه :
— هالك ما وصلت إليه يا أب ياناروس يامسكين . حق رعاة الماعز
يمطونك الدروس !

واستأنف السير ، لكن الفرحنة اختفت من قلبه ، وبداله الطريق
إلى أعلى بغير نهاية .
كان قد كافح كثيراً طوال النهار ثم طوال الليل ! لكنه مجرد بشر ،
لهذا شعر بالإرهاق .
وفجأة أرهف أذنه ، فقد خيل إليه أنه سمع صوت ابنه ، وشعر
بالخوف ، وقال لنفسه وهو يرتعد :

« بعد لحظة سأراه ، بعد لحظة سيقف أمامي عريضاً كشيء الشعر
ضخم الأطراف ممتلئ الفم بالضحك والسباب . يا إلهي ، كيف استطاع
مثل هذا الشيطان أن يخرج من صلبى ؟ ماذا أتى يفعل فى الدنيا ؟ ولماذا
خلقته يا إلهي ؟ لأى رسالة خفية ؟ حين أفكر فى أن ألعنه ، أخاف .
و حين أفكر فى أن أباركه ، أخاف أيضاً . ما هو هذا الوحش إذن ؟
البيت الذى ولد فيه لم يتسع له ففتح الباب فى إحدى الليالى وخرج يجرى
فى عرض العالم . وانغمس فى الخطيئة ، وعاشر النساء والأفكار ، وأنكر
وجود الله ، وأنكر الوطن وأنكر حق اسم أبيه ، وأصبح الكابتن
دراكوس الذى استقر على قمة النسور بالحديد والنار . والآن — وهل
هذا ممكن يا إلهي ؟ — أسلم إليه القرية بنفسى بأرواح سكانها وحياتهم
وشرفهم . »

وتهد . ومرة أخرى شعر بقلبه يذب صدره يحاول أن يفلت منه .
بدا له أن من أصعب الأشياء وأثقلها أن تكون إنساناً . الله فى علاه
يدفعك دفعاً إلى الحرية ، كالنسر العجوز الذى يدفع فراخه عن العش ولم
تبلغ سن النضج : « طيرى إذا استطعت ، وإلا سقطت وسحقت عظامك ! »
ويصيح فرخ النسر : « يا أبى ، انتظر قليلاً ، فجناحى لم يستكمل القوة
بعد . لماذا لا تنتظر ؟ » ويجيب النسر العجوز وهو يدفع فرخه دفعاً
سريعاً إلى الفضاء : « كفى تعلقاً بى ، فأنت حر ! » .

— نعم . أنا أشكو إليك يارب . لماذا زودتنى بسلاح ذى حدين ؟
لماذا أعطيتنى الحرية إذا كان لا بد أن نفتديها بالخطيئة ؟ وبأى سمادة
أو ارتياح أستطيع أن أتبع أوامرك : افعل هذا ولا تفعل ذلك ! لقد
كنت أعرف من قبل ماذا تريد فأعيش وأسلك وأريد عن يقين !
أما الآن فالأشياء كلها تحولت إلى عماء ، وأصبح واجبى المحتوم
— أنا الدودة الصغيرة — أن أضع فيها النظام .

— هذا هو الأب ياناروس ! مرحباً بالرجل الشجاع !

وتقدم الأب ياناروس بخطوات مترددة ، يتحسس لحيطه ويجيل النظر حوله . رأى عدداً لا حصر له من الفتيان يقفزون حول النيران ويغنون ، مثقلين بالبنادق وأشرطة الرصاص ، يضعون أيديهم على أكتاف فتيات مدججات هن أيضاً بال سلاح يعقدن حول رقابهن مناديل حمراء .

كانت قمة الجبل تشتعل ناراً وتفيض بالضوء والفرح ، والوجوه كأنما تعبر عن قيام المنقذ . ولم يستطع الأب ياناروس أن يمسك نفسه عن الاستمرار في تأملهم : « يا للنفوس ! يا للأجساد ! يا للشباب ! ارحمني يا إلهي ، فأنا لا أستطيع أن أفهم ذلك . هل حقاً بلغ بي الكبر عتياً ؟ هل قلبي المريض عاجز لا ينفتح ؟ »

وعاد يجيل النظر هنا وهناك . وجوه الفتيان تكاد تكون غير حليقة وغير مغتسلة . شعورهم ملبدة ولحامهم مرسلة . منظرهم يبعث الخوف

والرعدة ! عينات من كل نوع : عمال وفلاحون ومدرسون وطلبة ورعاة . رجال ونساء . فتيات كثيرات . ترى هل تركن الديار وأطلقن الشعور ووضعن البيريه الأحمر على الرؤوس وشاركن الرجال الجوع والقمل والموت ، حبا في الخطر أم رغبة في الحرية ؟
وهن يشتغلن بالطبخ وغسل الملابس وينقلن الجرحى ويقمن بالإسعافات ، ويشتركن في عمليات الهجوم ، والبنادق دائماً في أيديهن . ويهبطن خفية إلى القرى المحتلة لينقلن التبليغات إلى الرفاق الذين يعملون سراً ، ويتبادلن الرسائل معهم ، ويخاطرن في سبيل ذلك بالحياة دون اكتراث . والرجال يرون الفتيات الصغيرات يحتملن الجوع والبرد ويقاتلن ويمتن بهذه الدرجة من الشجاعة فينافسونهن البطولة ويحاولون أن يتفوقوا عليهن .

ولم يملك الأب ياناروس نفسه من الشعور بنوع من الفخر وهو يرى الجميع يرقصون حول النار برؤوس عالية . « آه ! ألايت الشباب يستطيع أن يمود ! وليتني أستطيع أن أخلع حذائي وأقفز في اللهب من جديد بساعدين ممدودين ، فأدخل في رهط الملائكة ! »

ولم يستطع أن يمسك نفسه ، فصاح يرد عليهم ويمد لهم يديه :
— تحياتي أيها الأصدقاء !

واستمر يقترب منهم . وصدمت أنفه رائحة شديدة : رائحة حملان مشوية ورائحة العرق والجنس . وفجأة تقدم منه شاب أشقر ممين ذو شارب كث يضع في قدميه نعلا مدندشا . أمسك به من ذراعه الأيمن وجذبه إلى حلقة الرقص ، بينما أمسك بذراعه الأيسر شابان آخران .

— مرحبا أيها الرجل الشجاع ! ها هو الأب ياناروس أتى يرقص

معنا ! تقدم يا رجل ، وشمر رداءك !

وانكفأ الأب ياناروس على عصاه يقاوم على قدر ما يستطيع . وصاح :

— ولماذا ترقصون يا أصدقائي؟ دعوني ا حسنا ، موافق ، سأرقص ، لكن قولوا لي أولاً لماذا . هل تحتفلون بنجر سعيد ؟ هل أخيراً سكت المدفع ، فم الشيطان ؟ هل أخيراً تصالح الأخوة وفتحوا عيونهم ؟ تكلموا أيها الأصدقاء ولا تعذبوني .
وأخذ الفتية يضحكون . وصاح أليكوس الأعرج الذي فر من الجيش يقول في حماس :

— إخواننا في الصين اكتسحوا السهل وقلبوا المدن وحرروا ملايين العبيد . وصلوا إلى النهر الأصفر . العاصفير أبلغتنا بهذا الخبر منذ لحظة .
— يقول من أيها الأصدقاء ؟ لا أستطيع أن أسمع جيداً ، فأذناي تمتلئان بالطنين بعد أن تسلفت هذا الارتفاع الشاهق . يقول من ؟
— يقول الصينيين أيها الأب . الصينيون حلفاؤنا وإخواننا . تعال اقرب . ارفع رداءك وتعال ارقص معنا .

— الصينيون هم الآن إخواننا ؟ وماذا يهمننا هذا الذي يجري في الطرف الأقصى من العالم ؟ أجدد بنا أن نروي حديقتنا هنا ا
وتدخل مدرس قرية شاليكا الذي انضم هو أيضاً إلى الجبل :
— إنهم إخواننا . العالم لم تعد له أطراف . أصبحنا جميعاً بيتاً واحداً له حديقة واحدة . كل المقهورين إخواننا ، ولنا جميعاً أب واحد .
— أي أب ؟
— لينين .

— وماذا عن المسيح ؟

وانفجر المدرس ضاحكا :

— اقلب هذه الصفحة أيها المبجل . فقد ظهر بعد أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا إنجيل خامس : الإنجيل المقدس على لسان لينين .

تستطيع أن ترى فيه أنه لم يعد يوجد يونانيون ولا بلغاريون ولا صينيون ،
فقط أخوة . كل المضطهدين والمقهورين والجاهلين والظالمين إلى العدل
إخوة ، سواء كانوا ذوي بشرة صفراء أو سوداء أو بيضاء . افتح قلبك
يا أب ياناروس . إن فيه للجميع مكاناً ، فلا تبخل بالحب على أحد .

وامتدت إلى كتف الأب ياناروس يد رجل قصير ملبس الشعر له
لحية حمراء ، يلف حول رأسه عصابة سوداء ويعلق على صدره ناب خنزير
برى ، تمويذة حظ ، جذبه إلى الحلقة وصاح :

— إلى رقصة الزبكيكو أيها الأب . اضرب بقدمك أيها المبعجل .
اضرب الأرض التي ستبتلعنا جميعاً . عيد القيامة أوشك . المسيح قام .
الشعب قام من الأموات !

والتفت الرجل إلى رفاقه قائلاً :

— هيا أيها الفتية ، كلنا معاً . النشيد .

وانفجر الجمع المحتشد حول النيران بوجوه خشنة منتصرة ، يرتل في
صوت واحد ترتيلة القيامة الجديدة :

« هزم الشعب القبور . قام من الأموات . »

وقال المدرس :

— ها أنت ترى أيها المبعجل أننا لم نحدث تغييراً كبيراً . فالمسيح
أصبح « الشعب » . وهذا في الحقيقة نفس الشيء . ففي هذه الأيام
نطلق على الله اسم الشعب .

وقاطعه الأب غاضباً :

— الشعب ليس الله يا مصيبتنا إذا كان الأمر كذلك .

وأجاب المدرس :

— يا مصيبتنا إذا كان الأمر غير ذلك بالنسبة لهذا الذي تتكلم عنه .

هذا الذي يرى الأطفال يموتون جوعاً ثم لا يحرك إصبعاً صغيراً .

وصاح شاب متحمس يلوّح للقسيس بيده كما لو كان هو المجرم :

— طالما وجد أطفال جوعى ، كيف تتكلم عن الله ؟

وسكت الأب ياناروس . كان يستطيع أن يقول الكثير دفاعاً عن

الله ، لكنه آثر أن يصمت . فمن ذا يملك القدرة على معارضة الزلازل

والنيران والشباب ؟ ونظر إلى الأولاد يشتملون ناراً ، والفتيات يضربن

الأرض بأقدامهن كالجياد ، وحاول بأقصى ما يستطيع أن يفهم ما يراه .

وفكر في نفسه قائلاً :

— ساحنى يا رب ! هل هذا دين جديد ؟ لكن كيف يستطيع

قلب الإنسان أن يكبر هكذا فجأة ؟ فى الماضى لم يكن القلب يحتوى سوى

الأسرة والأب والأم والأخ والأخوات . كان صغيراً جداً مغلقاً مشدوداً

بخيوط متينة . كان يستطيع فى أحسن الأحوال أن يتسع لجانبينا وإبيريا ،

ثم على الأكثر مقدونيا وروميليا وموريا والجزر ، أقاليم اليونان ، وفى

بعض الأحيان يتسع أيضاً لمدينة استنبول . لكن أكثر من ذلك لا شئ .

ثم ها هو اليوم يتسع للعالم كله . ما هذا الغزو الجديد يا إلهى ؟ هل

يجب أن أرقص احتفالاً بالصينيين والهنود والزنج ؟ هذا ما لا أحتمل .

قلبي لا يستطيع أن يذهب أبعد من اليونانيين . هل سبب هذا أن

الشيخوخة أدركتني أنا الأب ياناروس الذى كنت أتحدى الشيخوخة

وأخر دائماً بأنى ابن العشرين عاماً ؟

ومن الجانب الآخر نظر إليه الضابط لوكاس ذو المظهر الحشن :

ترى بماذا يحلم هذا القسيس وهو يتكى على عصاه ؟

واقترب منه وقال له بصوت جهورى ساخر :

— لو كنت مكانك يا أبى ، لحاولت أن أتجنب الالف الكثير فى خط

النار . فالرصاص ينتهي دائماً بأن يصيب ، سواء كان رصاصاً أحمر أو أسود . قرر ، وتعال معنا . ستجد آلاف الفتية أمامك يحمونك . أما أن تستمر في الوقوف وحدك كما تفعل الآن ، فهذا يؤدي بك إلى الهلاك .

وأجاب الأب ياناروس :

— اعلم يا ابني أنه أينما كان مركزي ، فإن أحداً لن يقف أمامي أبداً ليحميني سوى الله . هكذا طبيعتي .

— سوف ترى يا أب ياناروس ، أن الله سيتخلى عنك ساعة الخطر .

فقال القسيس وهو يدق الحصى بطرف عصاه :

— أما أنا فلن أتخلى عنه ! ومهما حدث ، سوف أقبض على طرف

نوبه لا أتركه .

وهز لوكاس كتفيه قائلاً وهو يضحك :

— سيتمزق الثوب ولا تبقى في يدك سوى خرقه ممزقة . أما صديقك

الجميل — الله — فيكون قد أفلتت هارباً . على كل حال ، أنا أضيع

وقت . فأنا أعرفك يا أب ياناروس . لو عصروا جسمك بكلابة ، لما

غيرت رأيك .

وانفجر المدرس ضاحكاً يقول :

— لعابك يسيل عبثاً يا لوكاس . إن روح الأب ياناروس

— وأرجو عدم المؤاخنة — تشبه كلبية كان المرحوم أبي يقتنيها

لحماية الماشية .

وقالت شابة صغيرة في استنكار :

— كلبية ؟

وقال آخر :

— يجب أن نخجل أهبها المدرس . هذا العجوز رجل مقدس حتى لو لم يكن من رجالنا .

— لا تفقدوا أعصابكم أيها الرفاق . سأشرح لكم وستفهمون .
أبي كان راعياً وكنت أنا في ذلك الوقت لا أزال صغيراً . لكن ما أرويه لكم أحدث في نفسي أثراً رهيباً لدرجة أنه حفر داخل رأسي . كان عندنا كلبـة بيضاء تحمي الخراف القليلة التي نملكها . وكانت وحشاً مفترساً حقاً . لكن في إحدى الليالي دخل الحظيرة ذئب ، وجامع الكلبـة . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكلبـة تتركه كل ليلة يدخل دون أن تنبـح . وبدأ أبي يلاحظ أن الخراف تختفي واحداً بعد آخر ، مع أن الكلبـة دائماً في الحظيرة ولا تنبـح . كان يقول : « لا أستطيع أن أفهم السر في ذلك ! » . وفي إحدى الليالي حمل بنـدية واختبأ في كهـن . فماذا رأى ؟ قرب منتصف الليل رأى الذئب يقفز إلى الحظيرة . والـكلبـة لا تنبـس بصوت ، بل ترفع رأسها وتهز ذيلها . واستعد الذئب للهجوم على الخراف عندما أطلق أبي النار عليه واندفع نحوه وفي يده فأس . ويبدو أن الذئب جرح ، لأنه فر وهو يعوى عواء شديداً . وإذ ذاك أمسك أبي بعصاه غليظة وضرب الكلبـة ضرباً مبرحاً . كان يريد أول الأمر أن يقتلها ، لكن أخذته الشفقة ففتح باب الحظيرة وألقاها في الخارج . وكان الفجر قد طلع . وانطلقت الكلبـة وعواؤها يملأ المكان ، حتى وصلت إلى قمة الجبل الذي يفصل بين القرية والغابة . هناك توقفت . أين تذهب ؟ أمامها الذئب ، ووراءها أبي بعصاه الغليظة . فحيثما تتجه سيكون هلاكها محققاً . ظلت ثلاثة أيام بلياليها تعوى بين الذئب والخراف . ومرت السنوات ودخلت أنا في دور الشيخوخة ، لكنني لم أستطع أن أذكر عواؤها يوماً دون أن أرتعد .

في اليوم الرابع سكتت الكلبـة ، وصعد أبي إلى القمة فوجدها قد نفقت .

وقالت الشابة الصغيرة :

— ثم ماذا أيها المدرس ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

وأجاب المدرس في كلمات جادة :

— هذه الكتابة أيها الرفاق ، هي روح الأب ياناروس . الروح التي تعوى أيضاً بين الحجر والسود . وسوف تنفق مثلها أيضاً . يا للروح المسكينة !

لم ينطق الأب ياناروس بكلمة ، لكنه شعر كأن مسكيناً أعمد في قلبه . وأحس بالضعف في تلك اللحظة . وقال لنفسه : « سأنفق إذن ؟ ربما كان المدرس على صواب . ربما سأنفق وأنا أعوى بين الذئب والحراف » . وارتعد جسمه كله ، وانتابته وساوس سوداء ، فقال :

— يا أصدقائي ، دعوني أجلس ، فأنا متعب .

وتهالك على قطعة كبيرة من الحجر . . .

خلال هذه الفترة توقف الأنصار عن الرقص ، وجلسوا حول الأب ياناروس . وأخرج كثيرون من صدورهم رسائل وزعتها عليهم منذ فترة « سيدة القومندان » ، أو كما أصبحوا يقولون عنها وهم يغمزون بعيونهم « سيدة الكابتن » . كان بعضهم يتهجون الكلمات ، وآخرون ينادون المدرس لينقذهم .

وكان كوسماس ، البائع المتجول ، أول من طلب من المدرس أن يقرأ له . كان في وقت ما يملك محل تجارة أقمشة صغير في بريفيزا ، بالاشتراك مع أحد الأرمن . لكن الأرمني استهلك رأس مال المحل ، وتحول كوسماس إلى بائع متجول . وعندما كان مالكا ، لم يكن يتوقف عن الهجوم على الشيوعيين : « يجب أن يقتلوا بالرصاص هؤلاء الأقدار الذين يبيعون المسيح والوطن ولا يفكرون إلا في نهب محلي ! » . لكنه بعد أن أصبح

فقيراً وقف هو أيضاً إلى جانب الحمر وأصبح يحلم بالقضاء على عالم الأرمن وعلى عدم المساواة . كان يقول : « الثرى الشيوعى رجل مغفل ، تماماً كالفقير إذا لم يكن شيوعياً . » قال المدرس وهو يستدعيه ليقرأ له رسالته :

— هيه أيها الأستاذ ، لو كنت أنت الذى اتخذته شريكاً لما خسرت تجارتى .

— نعم . لكنك ما كنت ستصبح معنا على الجبل يا كوسماس . كنت ستبقى تحت . مع السود .

— أيها الأستاذ اللعين ! أنت على حق . فلتذهب التجارة إلى الشيطان إذن ! ومع ذلك ، فأنا لا أستطيع أن أبتلع ما حدث . على كل حال ، دعنا من هذا ، ولتقرأ لى رسالتى .

وأمسك المدرس بالرسالة وبدأ يقرأ :

« أخى كوسماس . كلنا بخير ، والحمد لله ، لولا أننا جميعاً مرضى ، ولا نعرف إذا كان هذا من الجوع أو من الحمى . لم يأت أحد بعد لمضايقتنا ، ليعمى الله عين الشيطان ! لم يأت أحد من الحمر ولا من السود . لكن كلما دق الباب نشعر بأن قلوبنا أصبحت كأحجار القبور . العنزة باردالو ولدت ثلاثة صغار ، كلها ذكور . فالسباء لا تحبنا . بالأمس مر فى القرية عجوز قصير معه فأرة بيضاء فى قفص تعرف البخت . لكننا لم نذهب إليه . ومع ذلك رأت أمى حلماً : كأنما سقط مطر غزير طلعت بعده الشمس . وذهبنا إلى القسيس ليفسره لنا ، فقال باركه الله ، إن هذا واضح وضوح النهار . حلم سعيد ، واضح كالنهار . كوسماس سيظهر قريباً ، لأنه هو الشمس . »

وصاح كوسماس وهو ينفجر ضاحكاً :

— أنا الشمس ؟ يا أمي المسكينة ! الشيء الذي تشعر به في نفسها ،
تراه حتى في حلمها .

ومضى المدرس يجلس القرفصاء إلى جانب رجل ضخم الجثة ذي منظر
شديد ووجه شديد السمرة ، كان يقلب بين يديه ورقة ويسب في بأس ،
لأنه لا يستطيع أن يفهم ماذا تقول هذه الانعكشات اللعينة . لكن
المدرس فك له شفرتها :

« كيف أصبحت على الجبل أيها المغفل ، بينما أنفاسي تقطع وأنا أقوم
وحدى بعمل البيت والحقل والماعز والأولاد ؟ من هو القدر اللعين
الذي أوقعك هذه الواقعة ؟ تكتب لي أنك تحارب من أجل الحرية ؟
لكنك لم تسأل نفسك إذا كانت الحرية ستعطينا ما نأكل . ربما نخيل
إليك أنها ستأني لتساعدني في حرث الأرض وتنظيف المنزل والأولاد ؟
لم يكن هذا ما وعدتني به يا كذاب عندما طلبت يدي . أنا بنت قسيس
ومتعلمة كما نعرف ، واست فتاة لا قيمة لها . وأنا لم أخلق للأعمال الثقيلة ،
فارجع سريعا يا بائس ، إذا أردت ألا أرحل بقلب محطم . وأنت تعرف
أنه لا ينقصني من يطلبني ، ولكن ... »

فصاح الرجل الأسمر :

— هذا يكفي ، فليأخذها الشيطان !

وسحب الرسالة ومزقها قطعاً صغيرة . ونهض المدرس وهو يقول
ضاحكا :

— لا تهتم يا صديقي ديمتريس ! فها هنا أيضاً تقوم بعمل ثقيل .
اللعنة على الزوجات ! .

ومضى إلى الرفاق الذين يحيطون بالأب ياناروس .

في هذا الوقت وصل رجلان يتصبيان عرقاً وعليهما سمات الفرع ،
كان كل منهما يضع على كتفيه عباءة من النوع الذي يضعه الرعاة ،
ويعسك مثلهم عصا طويلة ، لكن أيديهما كانت مخضبة بالدم . وأشاروا
إلى لوكاس وقالوا هما يضحكان :

— أنت الرئيس !

فمدّ لوكاس يده قائلاً :

— أين الصندوق ؟

وسحب الرجل الأول من تحت عباءته صندوقاً مستطيلاً من الفضة .

وناوله إياه وهو يقول متضحكاً :

— من المؤكد أنه سيساعدك مساعدة كبيرة يا كابتن لوكاس .

فقال لوكاس :

— أنت تهذر أيها الجندي ، لكنك ستري أن هذا الحزام المقدس

سيقاتل معنا هو أيضاً .

ووضع إصبعين في فمه وأطلق صفارة :

— يارفيق أليكوس !

ثم استدار نحو الرجلين وسأل :

— وأين الملابس ؟

وأخرج الراعي المتنكر الآخر ربطة ملابس قائلاً :

— ها هي . تركنا له فقط السروال الداخلي .

وبسط على الأرض ثوباً من ثياب الرهبان وطاقيه وحزاماً وحذاء

ضخماً ثقيلاً وجورباً أزرق اللون وصليباً من الفضة . وقال :

— أخذنا أيضاً الحمار الصغير والسلتين . وجدنا في قاعهما ثمرة تين

أو ثلاثاً من التين فأكلناهما .

وعاد لوكاس ينادى مرة أخرى :

— أليكوس !

وأفسح الرفاق مكانا حين ظهر أليكوس الطباخ الذي فرّ من كاستلوس ، يمشى بوجه مشرق وقدم عرجاء . وصاح وهو يقف أمام لوكاس :

— أفندم !

قال الضابط وهو يضحك :

— يا أب الكسندر ، هذا رداؤك اللائكي . ضع نفسك في داخله بسرعة . أمامك مهمة ثقيلة معقدة .

وسأل أليكوس وعيناه تتحركان بسرعة :

— راهب ؟

— البس بسرعة ولا توجه أسئلة .

وخلع أليكوس السويتير والبنطلون وارتدى ثوب الراهب ووضع الطاقة على رأسه وعلق الصليب في رقبته . ثم رفع يده ليبارك الرفاق والبنات الذين التفوا حوله وأجسامهم تتلوى من الضحك .

وأمسك لوكاس بالأثر الفضي وأخذ يقذفه ويتلقفه . وقال :

— يا أب الكسندر ، احذر تماما . أنا أضع في يدك قبلة ، لكن من الفضة . سوف تمر على كل القرى في هذا الخط ، وتلقى هذه الخطبة :

« هيا أيها المسيحيون ! هذا هو حزام سيدتنا يأتي إليكم . ها هو يصل ليعيد الحياة إلى قريبتكم ويجدد أرواحكم ويطرد منها الشياطين السوداء . شياطين الفقر والحرب والظلم . كذلك أودعتني سيدتنا سراً أنقله لكم ! تعالوا اسجدوا لها ، تعالوا اسموها ، تعالوا جميعا مهما كان عددكم ! »

هذا ما سوف تقوله . وعندما يجتمع الناس ، تهمس في آذانهم
كأنك تقول سرا :

« سيدتنا حملتني رسالة لكم . إذا أردتم أن تستحقوا رضائها ،
فاقتلوا كل الفاشيست ، الشياطين السوداء ، هم أصحاب البيريهات
السوداء ا » .

هذا ما سوف تقوله . مفهوم ؟

— مفهوم ! ستكون قصة هزلية جميلة ا

— اسمع ا حذار ا لا تضحك . أنا اخترتك لأنك شديد الحُبث .

لكننا نحتاج إلى ما هو أكثر من خبثك . يجب أن تصل إلى نفس درجة
الحُبث التي يتمتع بها الراهب . لأن الناس إذا شموا أى شيء ، سيصلبونك
أيها الأب المسكين الكسندر ، تماماً كما صلب بديلك .

وشعر الأب ياناروس بالاختناق . كان ينظر بكل عينيه وينصت بكل

أذنيه إلى هذا العالم الجديد . عالم بدون تقديس وبدون إله . عالم من
الشباب والجرأة والكفر ... المسيح يجعلهم يضحكون ، مع انهم يموتون
من أجل العدالة والحرية ... هؤلاء الأنصار الذين يحاربون الظلم — اغفر

لى يارب هذا السؤال — لماذا لا يكونون مسيحيين جدد دون أن
يدرکوا ؟ هم لا يزالون يجهلون ذلك ، ولهذا يحدفون بالله . لكنهم

سيعرفون في يوم ما ، هذا غير ممكن ... ليت الراهب الجريح الأخ
نيكوديم كان على حق ا ليت المسيح وقف على رأس هؤلاء الشجعان

ولوّح في يده بالسوط بدلا من الصليب ليطرد من معبد الله — يطرد من

الدنيا — الفريسيين والتجار ومضطهدي البشر ا

وأجال الأب ياناروس نظره في الرفاق الذين يحيطون به ويضحكون

ويشتمون ، ويلهعون بنادقهم ، وتهدقائل :

— آه ! لو كان يستطيع أن يهبط على الأرض هذا المسيح ، إذن كنت أحرق كبدي برغم شيخوخة السبعين عاما ، وأرفع رايته وأندفع في الهجوم لأكنس معه الفريسيين والتجار ومضطهدي البشر !

وأخذت روح الأب ياناروس تضرب في مياه عميقة . فأغمض عينيه . كان يسمع حوله ضجيج الأصوات والضحكات ، ويسمع طقطقة النيران — لكن أين يوجد الآن ؟

وتخطى القمر منتصف السماء ، وبدأ ينحدر نحو طرفها . ولمح الضابط لوكاس الأب ياناروس ، فدفعه في قدمه . كان قد نسيه فقال له :
— اعذرنا أيها الأب ، فقد نسيناك . كنت مشغولا جداً ، لأنه كان يجب أن أعثر على طريقة لاستخدام حزام العذراء .

وصفق بيديه ونادى :

— كوكوليوس !

وتقدم شاب قوى الجسم ملبد الشعر له عينان نفاذتان كعيني النمس :

— أفندم !

— أين الكابتن ؟

وتضحك الفتى :

— يقوم بالمراقبة في أعلى ، مع السيدة الكابتن .

وانفجر الرفاق ضاحكين ، لكن لوكاس ثارت ثائرته فزجر صائحا :

— سكوت !

والتفت نحو كوكوليوس قائلا :

— إذهب وابلغه أن أباه هنا يطلبه ، ويحمل رسالة .

— يحمل ماذا ؟

— رسالة من كاستلوس . انصرف .

١٤

كان الكابتن دراكوس يربض على صخرة المراقبة على مرعى حجر من الرفاق ، ويحرك في قبضة يده حصاة . بقعة سوداء ملتوية فوق صخرة ، رقبة ممدودة ، وقامة قصيرة . كان يبدو في ضوء القمر شبيهاً بدب كثيف الشعر متحفز للهجوم .

رأسه الضخمة ذات الشعر المشعث واللحية المنفوشة وعلامات الجدرى ، تحكى آثار البحار المختلفة التي جاس خلالها ، والموانى التي رسا فيها ، والأجناس البيضاء والصفراء والسوداء التي تردد عليها .

وارتفعت روحه كالشمس الحمراء الفارقة إلى سهول لا تنتهى من الأرض الحصبية ، تنظر إلى العالم في أسفل نظرة السبع الجائع . لم يكن يستطيع أول الأمر أن يميز شيئاً . فالأرض لم تستيقظ بعد ، وضباب الصباح يغطى جسدها العارى . لكن الشمس بدأت ترفع الغطاء الخفيف فيهتز برقة شديدة . والبخار أصبح شفافاً ، ثم هبط على الأعشاب طلا نديا . وإذ ذلك ظهر السهل غارقاً في النور ، يجري فيه نهر أصفر مثقل

بالطين واسع كالبحر ، يغطيه حشد من السفن الشراعية السوداء والبرتقالية اللون ، ذات أشعة مربعة ومؤخر مرتفع .

وفي قلب السهل كان رجال ذوو أجسام صغيرة يصبحون وبقفزون كالقردة . و فجأة انطلقت الأبواق والطبول . وبدأت الأرض تموج وتضطرب . كانت ملايين الأقدام الصفراء تدقها . وارتفع نشيد مغمم بالسرور والشدة والانتصار ، ينادى بالحرية ، رددته ملايين الأفواه . كانت أمواج متدافعة من الرؤوس المستديرة المتعجلة تريج بالنشيد . رؤوس خرجت من الكثبان الرملية والبطاح الخضراء والجبال البعيدة ، وصنعت من طين النهر الأصفر ، واتخذت عيوناً منحرفة وشوارب مدلاة وشعوراً طويلة مضمفورة . وأضاءت شمس الصباح فانعكس بريقها على الحياة والبنادق والخوذات وأزرار الملابس العسكرية وصور التنين في الرايات . وانطلقت في السماء اللطيفة طيور متوحشة من الصلب صنعتها أيدي البشر . جاءت هذه الحشود من السور العظيم بعد أن حطمت السدود الموروثة وانفلتت نحو الجنوب ، تضرم النيران في آلاف القرى فتدمرها ، وتكنس السادة القدامى للمهاريين ، من قعور مجالس الحرم حيث نساؤهم وغلمانهم .

كان على المتخمين أن يتنازلوا عن موائدهم للجوعى . وامتلات الجدران بإعلانات حمراء مخيفة تغطيها صور تنين أسود وحروف غريبة تشبه المطارق والمناجل والرؤوس المقطوعة .

والمارة يقتربون من الاعلانات فيقرأون : « يا عمال العالم أجمع ،

كلوا واشربوا ، فقد جاء دوركم ا »

وترسل القرى البعيدة رسلها . حفاة يضعون على رؤوسهم قبعات من

القش . ينبطحون أرضاً ، يصرخون ويتوسلون ويدقون من أفواههم

سيلا من الكهات السريعة المتنافرة ، لا يتبين الآخرون منها سوى بعض
الألفاظ التي ترجع إلى أقدم العصور : الجوع ، السوط ، الموت ،
وأمام هذه الجيوش يسير شبح الحرية يقطر الدم والدموع ، ويجر
خلفه الشرذمة الخالدة : المجاعة والنهب والنار والمذبحة .
« من هؤلاء القادمون الجدد ؟ رأيتهم الكريمة تلوث ريح
السهال ! »

هكذا يتساءل السادة وقد أطلوا من النوافذ المذهبة بقبعات من
المخمل . فيأتيهم الجواب آلافاً من السنة النار تنهال من السماء .
وتأمل الشمس هذه الجيوش الصفراء ، وتحاول أن تحصيها ، فتجد
أنها أكثر من أن تحصى . وتبتسم في سرور وفرح ، وتمضي لحال سبيلها .
ترك الشمس خلفها السهل والنهر الواسع ، وتقف فوق الغابة الخائفة
ذات الأدغال الرطبة الممتلئة بالعقارب والزهور السامة . هناك أصبح
الجو كله مجرد منظر متحرك من أجنحة خضراء ووردية وزرقاء ،
وصخب هائل من البيغاوات . وبين الروائح الحريفة المنبعثة من شجر
الكافور ونبات القرفة ، كانت الوحوش تمود إلى بيوتها يبطون ممتلئة
وأفواه مخضبة بالدم .

ولم تستطع الشمس أن تنفذ خلال الغابة ، فاستشاطت غضبا ، ومضت
إلى بعيد .

أما المناطق المكشوفة من الغابة العذراء ، فكانت تضرب رجال
صغار الحجم ذوى أجساد نحيلة وعيون متحركة مشتتة . أهل فيتنام
والملايو وجاوه . كانوا في حالة استعداد . . بعضهم يحملون بنادق وقنابل
يدوية ، وبعضهم يحملون سيوفاً ملتوية كالمناجل . وآخرون أيضاً يلوحون
برايات ذات شعب ، مزينة بصور الأسود الضاحكة أو الفيلة البيضاء أو

الأفاعى الحضراء . كانوا منذ أجيال عديدة يحنون ظهورهم صامتين ،
لكنهم اليوم لم يعودوا يملكون صبراً . أرسلت الشمس أشعتها تربت برقة
على بطونهم الجائعة وأجسادهم المعذبة ، وتبتسم .

في إحدى الأمسيات ، كانوا يرقدون على الشاطئ بعد انتهاء العمل ،
وجوههم منبطحة أرضاً ، سيكون بصوت خافت حتى لا يسمعه سادتهم
البيض ، عندما هبط في الميناء إله جديد ، إله أجنبي ، بدأ يزحف على
حصا الشاطئ كالعقرب الضخم المتكور ، أو العجلة تمتد أسلاكها كآلاف
الأيدي المتلهفة تمسك بالمناجل والمطارق . ومر الإله الجديد متثاقلاً على
ظهورهم الممزقة ، وألقى بنفسه في القرى ، ووقف في الميادين وأخذ
يصيح . بماذا كان يصيح ؟ الجميع هبوا مستيقظين مرة واحدة يفركون
عيونهم ليتأملوه بسرور يختلط بالانفعال الشديد . لم يكونوا يفهمون
ما يقول ، لكنهم كانوا يشعرون بقلوبهم تقفز وتصرخ . لم يتصوروا أن
في أعماق صدورهم وحشاً قوياً راقداً . كانوا يظنونونه دائماً فأرعدوا
وهكذا استيقظ قلب الإنسان جائعاً يهدر .

قفزوا واقفين يفركون عيونهم وينظرون حولهم ، فرأوا لأول مرة
الجبال والبحر والغابات والثمار المعلقة في الأشجار والثيران التي تصعد من
موارد المياه والطيور التي تطير في السماء وكل الأشياء التي تخصهم . هذا
وطنهم . صنع من عظام آبائهم وعرقهم ودموعهم وأنفاسهم . ركعوا
يقبلون الأرض كأنما يقبلون أجدادهم ويضمونهم إلى صدورهم ، وظلوا
العيون بأيديهم ونظروا ، فرأوا سادتهم البيض جالسين تحت مظلات
الشرفات يحتسون المشروبات المشلجة ويدخنون الأنواع العطرة من
السيجار . وكانت عيونهم نصف مغمضة وشفاههم ممتعضة ينظرون إلى أبناء
الملايو ذوى الأجسام الرشيقة ، وأهالي جاوه وفيتنام بأجسامهم العارية .

ثارت السماء في رؤوس أبناء الملايو وجاوه وفيتنام . وفي لحظة واحدة ، أدركوا بوضوح كامل معنى الكلمات التي صاح بها الإله الجديد . وترددت صيحة واحدة في الغابات والبحار من أطرافها إلى أقاصيها : « اخرجوا ، اخرجوا ! آسيا للآسيويين ! أوروبا للأوروبيين ! أمريكا للأمريكيين ! اخرجوا ! اخرجوا ! » ...

وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء . ونظرت إلى أبنائها الملونين ، وابتسمت وهي تنصت إلى صيحات الاستنكار التي يطلقونها ، وهمست لهم : « كونوا مباركين ! » ثم تابعت طريقها .

مرت الآن على جبال من الثلج لها قمم بارزة ، وعلى أنهار مقدسة وقرى من الطين تضم أعداداً لا حصر لها من البشر ، ابتلع الجوع أجسادهم ، وفي هيونهم الناعمة الواسعة آلهة موتى واستسلام . ووقف على طرف النهر رجل يشبه الهيكل العظيم ، لكنه نشيط الجسم وزاهد في نفس الوقت . كان يلف مغزلاً . يلف ويلف عجلة المصير العريقة . وحوله احتشدت ملايين الأنفس تستمع إليه . وهو يتكلم ويبتسم ويصمت . عارى الجسد كاللدودة . أسنانه ساقطة . أطرافه مثل أطراف القديس يوحنا المعمدان . لكنه كان يغطي جسمه بروحه كأنها حلة مدرعة ، ويكافح ضد استبداد كبير ، واقفاً على طرف النهر لا يريم .

وتوقفت الشمس فوقه . وأغرق النور رأسه الصلعاء وصدره المقفع وبطنه الأخص ونخذه الهزيلتين وساقيه اللذين يشبهان عودين من القصب . وقالت الشمس لنفسها في أعلى السماء : هكذا رغم كل شيء تكون روح الإنسان ، الإنسان الحقيقي ! يا للشعلة الملتهبة ! يا للحزن ويا للفرح ! هذا شيء متفجر قادر على أن يزعزع قشرة الأرض الغليظة . بعض الناس يسمونه الانتقام ، وآخرون يسمونه الحرية ، أو العدالة ، أو الله . أما أنا

فأسميه روح الإنسان . وطالما استمرت تتفجر من الأرض سأظل واثقة
أن نوري لن يضيع هباء . أنا أنتظرها منذ آلاف السنين . وأخيراً أنت .
وأنا فرحة لأن لي عيوناً أراها بها وأذاناً أسمعها وأيد طويلة أربت بها
على الدنيا ، فإذا سقطت روح الإنسان يوماً ، فكيف يكون شقائي وحزني
وضياع نوري .

وهناك في أعلى ، وصلت إلى منتصف السماء فتوقفت .

وهي الآن فوق صحراء من الرمال ، تنفت فيها قشرة الأرض لهباً ،
المياه جفت والآبار غطاها الرمل . والنور يهدر كالشلال على الجبال
الحمراء والبنفسجية . وفي الصحراء لا يوجد شيء آخر من بعيد أو بعيد ،
تظهر نخلة أو جمل أو أفعى ذات بريق . وأحياناً تمزق الجو صرخة
وحشية . وفي أحيان أخرى تهب ريح حارقة فتثير الرمال ، وتتموج
الكثبان كالبحار وتسرى في ظهر الأرض رعدة . وجفأة تبدو في هذه
العزلة اللانهائية خيام ، ونساء سمراوات ، لهن أصابع طويلة ماهرة
مخضبة بالحناء ، يعجن الدقيق ويقدحن زندين من حجر الصوان فتخرج
النار ويرتفع الدخان ليعلمن من بعيد وجود الإنسان . وتحل الحياة محل
الموات . ويجلس القرفصاء رجال يضعون على رؤوسهم عمائم بيضاء .
ينصتون . فقد وصل من السواحل البعيدة تاجر ، أتى من بلاد الكفار .
يبيع لآلىء من الزجاج ومرايا وملح وأقمشة مزركشة . جلس القرفصاء
هو أيضاً تحت ظل خيمة ، يحكى ما يحدث هناك في العالم المسكون . يتكلم
عن آلات رائعة وبنادق جديدة ونساء بيضاوات وصبية ذوى شعراً شقر .
يتكلم عن الفقراء والأغنياء وعن الجوعى الذين يهبون جفأة فيحطمون
أبواب الأغنياء ويهجمون على الموائد المنصوبة ويقفزون على السراير
الليننة الوثيرة ويمتطون جياداً من الفولاذ ويطيرون بها في الفضاء ،
ويصنعون آلاف المعجزات .

ويشتعل حماس البدو حين يسمعون هذه الأشياء وتغيب عيونهم
لتستقر ناحية الغرب .

ويدرك التاجر أن اللحظة أتت ، فيخرج من جيبه كتاباً صغيراً .
يقول لهم : هذا كتاب جديد . نزل في مكة جديدة في الشمال . نزل على
نبي جديد له اسم جديد . يدعو العرب المؤمنين به أن يتحدوا ليفتحوا
العالم مرة أخرى . ألم يكفكم ما عثتم فيه من صحراء ومهانة وجوع ؟
انهضوا إذن ، فقد دقت الساعة . انثروا في الريح رايات الإسلام الخضراء .
الله واحد ومحمد رسوله . كل ما في الأمر أن الأسماء تغيرت قليلاً
هذه الأيام .

وتضحك الشمس بملء وجهها الطيب المستدير ، وتقول لنفسها :
« كل شيء على ما يرام . البذرة سقطت حتى في الصحراء ، وسرعان
ما سنشهد ازدهارها . هذا التاجر دبور حقيقي : يطير ويطن من زهرة
لأخرى ، ومن خيمة لأخرى ، ومن قلب لقلب . وأجنحته تحمل حبوب
لقاح ذات لون أحمر . ليكون ! فقد تعبت من منظر الأرض القديم .
أنا أجوب نفس الطريق كالعربة يجرها بغل . وما أكثر السنوات التي
مرت وأنا أرى نفس السادة يسوطون نفس الظهور . لتدر العجلة إذن !
لتصعد إلى النور وجوه جديدة ، ولتستأنف عربة الدنيا مسارها !
تقدم إذن أيها التاجر ، أيها الدبور المرسل ، وتشجع ! لقد رأيت في
حياتي آلاف الدبابير مثلك . وهم جميعاً يروجون نفس البضاعة ، لكن
بأسماء مختلفة . فهم من كبار مخترعي القصص . لكن لا بأس . فالبشر
دائماً أطفال ، يعبدون القصص ، ويؤمنون بها . وقدرة الروح تتمثل
في هذا الإيمان الذي يستطيع أن يجعل القصة حقيقة ، لقرن من الزمان
أو لقرنين أو ثلاثة أو أربعة . ثم بعد ذلك تزول الغشاوة عن الأبصار ،

ويدركون أنها لم تكن سوى قصة ، فيطلقون صيحات الاستنكار ويتخلصون منها . وإذ ذاك تظهر قصة جديدة يرويها قصاصون جدد . ويكسب العالم طفرة جديدة . لسكن الوقت يسرقني . . الوداع إذن أيها التاجر . صفقة طيبة ! أسألك المَعذرة ، فلا بد أن أمضى إلى حال سبيلي ... » .

وهز الكابتن درا كوس رأسه . ونظر إلى قمة الجبل حوله جرداء موحشة ، ترتفع فوقها منذ شهور راية الحرية . في هذه الصخور تلتقي الأرض كلها والبحار . ما أطول الشهور التي مضت منذ اختلط مصير الرجال بمصير الجبل ، فأصبحوا شيئاً واحداً ، وأصبح الكابتن درا كوس مثل مسخ القنطورس في الأساطير ، نصفه إنسان ونصفه جبل . أضفى عليه الجبل بعض ما فيه من وحشية وقسوة ، وأخذ منه مقابل ذلك بعض روحه ، حتى بدا الجبل ذا روح إنسانية حقيقية . فهو ينتفخ وينظر إلى السهل بطريقة تكاد تتصور معها أنه يتحدى رجال البيرية الأسود ويشعر بأنه ليس جبلاً عادياً بل قلعة للحرية . الأيدي البشرية تدمى فوقه منذ شهور ، تشق ضلوعه لتنتج أوكاراً للمدافع وتنصب المتاريس وتفتح الطرق الضيقة . وقنابل المدافع أصابته بالجروح وأحرقت صخوره وحوات أدغاله إلى رماد . فمه ارتوى من الدم البشري وأكل مخ الإنسان وتناثرت في جنباته عظام الناس . وهكذا أصبح كالعقرية المنتصب ، يحتضن قضية الأنصار ، ويزجر أثناء القتال ويتخذ صورة التهديد . وبين الحين والآخر يضيء قمته لينقل الإشارات إلى جبال أخرى بعيدة .

وهمس الرجل لنفسه :

— كل هذا حسن جداً ، لكنني أكاد أموت كمدأ .

وقذف بغضب شديد قطعة الحجر التي كان يتلقفها في يده ، وأرهف

أذنيه يتسمع إلى صوتها يضيع داخل نفسه وطل جنب الجبل . وزجر
قائلا :

— ماذا يصيبني من جديد ؟ أى شيطان يلبسني ؟ وإلى أين يريد
أن يذهب بي ؟ هذا الشيطان سيطر دائماً على حياتي . هل يتكلم عن
الحرية ؟ لكن عن أى حرية ؟ الشيطان الذى يلبسنا هو وحده الحر ،
لا نحن . لسنا سوى الدابة التى يركبها ، وفوق ظهورنا يفتح ساقيه .
لكن إلى أين يذهب ؟

واسترجع صورة حياته ، وتذكر شبابه . كان يأكل ويجمع ويسكر
ليتخلص من هذا الشيطان . لكن شيئاً لم يكن يؤثر فيه . كان الشيطان
يستيقظ فى داخله ويصيح فيه : « العار عليك ! لست سوى وحش ! »
ولكى لا يسمعه هجر البلاد وركب سفينة بضائع عمل فيها رئيساً للبحارة ،
وضاع وسط البحار الشاسعة . ما أعجب الحياة التى عاشها على ظهر السفينة !
وانحنى الكابتن درا كوس على نفسه ، وانفتحت هذا المساء القبور المغلقة
فى أعماق ذاته ، وصعدت إلى النور حياة التشرذم القديمة التى عاشها ، وعاد
يتذوق أفراح شبابه ومغامراته ومراراته ومنكراته .

ليس هناك إذن شيء يموت فى داخلنا ؟ لاشيء إذن يمكن أن يموت
ما دمنا على قيد الحياة ؟ ومرة أخرى أخذت تدق فى صدغيه هذه البحار
التى جابها ، والمراكب والزملاء والموانى الغربية . الاسكندرية . السويس .
بور سودان . سيلان . ماليزيا . هونج كونج . والبحار الصفراء الممتلئة
بالوحد ، والنساء الصفراوات الملونات بالوحد ، لازالت تصعد فى خياشيمه
الرائحة المنبعثة من آباطهن : البول والتوابل والمسك .

كان يهبط الموانى وقد حلق ذقنه بطريقة فاخرة ، وشاربه منتصب
كالخطاف ، وطل أذنه سيجارة . وسرعان ما يقوم بجولة فى بعض الأحياء

الخاصة ليختار النساء . وبكل بساطة وبسرعة شديدة ، يحدث الاتصال .
يغمز بعينه للمرأة التي يرغبها ، أو يقرص ذراعها ، أو ينظر إليها ويخرج
من فمه خواراً خافتاً كخوار العجل .

الحب بالنسبة له مثل لعبة النطة التي كان يلعبها وهو صغير . كان
خمس أو ستة من الصبية المتشردين أصحابه يحنون ظهورهم ، ويبصق هو
في كفيه ويستعد للقفز ، ثم : هوب ! يقفز فوقهم واحداً بعد آخر في
سرعة البرق ، ليقف ثابتاً على أطراف قدميه في إحساس بالانتصار .

تري من أى شيء صنع جسد الإنسان حتى يستطيع أن يعطى ويأخذ
هذا القدر الكبير من السعادة ؟ والشفاه ؟ حين تقرب الشفتان من
قطعة لحم ، ترتجف الروح !

كان دراكوس يجد لذة كبيرة في تناول جسم المرأة . حتى روحه
كانت تصبح في تلك اللحظات جسدية شهوانية لتحصل على أكبر متعة من
التقاء الجسدين . وكان يعود إلى سفينته في الفجر ، يحمل معه سباطة
موز أو أناناس أو مجموعة من المناديل الحريرية المعطرة بالمسك والكافور .
وفي بعض الأحيان كان الموت يركب السفينة ويحاول أن يتلعه .
لكن سرعان ما يطردونه من مؤخرتها ، فيعود إلى البحر الهدوء ،
ويحضر البحارة إلى ظهر السفينة الزجاجات واللحم المشوى يأكلون
ويسكرون ، ويبدأ كل واحد منهم يحكي القصص عن بلاده ، ثم يستخرجون
من جيوبهم صوراً قديمة اصفر لونها ويتبادلونها . ودراكوس لم تكن
له امرأة ولا أطفال يظهر صورهم . لكنه كان يحتفظ دائماً بصورة قديمة
لأبيه الأب ياناروس يلبس البطرشيل وعلى صدره الصليب وفي يديه إنجيل
مفتوح . كان يظهر أصحابه على هذه الصورة وهو ينفجر ضاحكاً ، فيأخذون

في الضحك أيضا قائلين : « في صحتك أيها الفتي اللعين ، وفي صحة أبيك
الغراب أيضا ! »

ثم يبدأون الغناء الساخر معاً ، يقلدون كلمات قداس الأموات :
« تعال نودع الوداع الأخير » .

هكذا كانت حياته . ممتلئة بأحداث التهريب والذكر والبطولة .
في إحدى المرات قام بتمرد وحرص البحارة ضد القبطان – وكان رجلاً
سكيراً – واستطاع أن يطرده إلى قاع المركب ويقف على الدفة بدلاً منه .
فقد ظهر في الأفق نذير عاصفة رهيبية ، وأصبحت السفينة في خطر ،
لكن القبطان ظل يسكر في غرفته وعلى ركبتيه امرأتان من نساء آسيا .
وفي مرة أخرى خرج عليهم في أعلى البحر قراصنة يابانيون ، لكن
الكابتن درا كوس استولى منهم على ثلاثة قوارب ربطها في مؤخرة السفينة
وذهب يبيعها في هونج كونج .

ونجاة انتهى التهريب والنساء والسفن . ذات يوم جميل ، هجر كل
شيء . كان ينزل في ميناء هندي ، ووصلتهم برقية : « الحرب في ألبانيا » .
أهل مكرونيا عبروا الحدود غدراً في إحدى الليالي ، وداسوا أرض
اليونان ، وبدأوا يستعدون للنزول في جانينا . وعند ما عرف ذلك ،
ارتفع من أعماق قلبه صوت غليظ . لم يكن صوته ، بل صوت أبيه
وجده ، صوت عتيق جداً يتكلم عن الحرية والموت .

وئارت ثورة الكابتن وهو يسمع هذا الصوت فقال : « هل أنا
الذي تسمح لنفسك أن تملي عليه واجبه ؟ لست في حاجة إليك . سوف
ترى ! » واستقل الطائرة عائداً إلى وطنه وانضم إلى الجيش وحارب
وأحرز النياشين والأوسمة . وجاءت السنوات السوداء . وتلوثت
اليونان . امتلأت بأحذية البلغاريين والألبانيين . والنجا الكابتن إلى

الجبل ، وجعل من قوى الاحتلال سخرية . كان معه خمسون من الرجال حفاة في أسبال ممزقة ، ظلوا كذلك إلى يوم هبت الريح تكنس الغزاة وتميد أرض اليونان لليونانيين .

كان قد بقي عدة شهور لم يغتسل ولم يخلق ولم يغير ملابسه . وأصبح أسود اللون من البارود واللحية والقذارة . وبهذا الشكل نفسه ترك سالونيك يبحث عن نصيبه من المتعة بعد أن أصبح الوطن حراً . وذهب أولاً إلى الحمام التركي لينظف جسمه ، ثم إلى الحلاق ، ثم غير ملابسه . بعد ذلك دخل إحدى حانات الميناء مع بعض زملائه من رجال المقاومة . ظلوا ثلاثة أيام بلياليها يشربون ويغنون للجارية . وفي اليوم الرابع جلس إلى مائدتهم قرب الفجر رجل يهودى كان متوسط العمر ذا أنف معقوف وشفة غليظة وفم يكشف عن الفقر . وقدموا له الخمر أدواراً متعددة فانفكت عقده وبدأ يتكلم .

— حسنا يا جنود المقاومة الشعبية ، سأحكي لكم قصة . فانصتوا جيداً أيها الأخوة . ما أسعد من يستطيع أن يفهمنى ! مستصبح له عينان بعد أن كان بغير عينين ، وسيصبح له قلب بعد أن لم يكن له قلب . أقسم لكم بالإله الذى أومن به ، سوف يهب خارجاً من هذه الحانة وينظر حوله قائلاً : « ما هذه المعجزة ؟ أنا أرى العالم قد تغير ! » .

وقال دراكوس وهو يملأ للرجل كأسه من جديد :

— تكلم إذن أيها اليهودى ولا تقتلنا لهفة ! هيا ، اشرب وافرغ

ما فى مخك .

وأفرغ اليهودى كأسه وانطلق :

— فى أحد الأيام كان هناك فى الشمال البعيد منطقة من الجليد تسير

فيها سنوات دون أن تصل إلى نهايتها . كانوا يسمونها روسيا . لا بد أنكم

سمعت عنها . في ذلك البلد كان هناك إذ ذاك ألف وعشرة آلاف من الرجال يعملون لكي يطعموا رجلاً واحداً . والألف وعشرة آلاف يموتون جوعاً . كانوا يطلقون عليهم اسم الموجيك . والرجل الواحد الذي يأكل كانوا يسمونه بويار . ويبقى أفراد البويار ليل نهار قعوداً أمام النار يحترسون الخبز الأبيض الشديد الذي يسمى قودكا . يظلمون يحترسون حتى يشعروا بالسرور ، فيستخرجوا بنادقهم ويضعوا الموجيك في صف واحد ويجعلونهم أهدافاً للتسديد يتدربون على إطلاق النار عليها .

وصاح درا كوس وهو يدق المنضدة بقبضته :

— لكن الموجيك ؟ ماذا كان يفعل الموجيك ؟ الألف وعشرة آلاف ؟ كانوا يستطيعون أن يقلبوا البويار بمجرد أن ينفخوا ، وأن يفرقوه بمجرد أن يبصقوا ! أنت تحكي قصصاً خيالية !
كان درا كوس ينفخ ويبصق هو يدق على المنضدة .

وأجاب اليهودي :

— هذا حسن . لكن لا يا صديق ، لم ينفخوا ولم يبصقوا : كانوا يرتعدون . فاعلم أنهم كانوا يتوارثون الخوف أبا عن جد . كان الخوف يبدأ مع مولدهم ولا ينتهي إلا مع موتهم . ولذلك كانوا يطلقون على هذا الخوف اسم الحياة . لكن في يوم من الأيام أتى رجل . رجل ضئيل الحجم يضع على رأسه كاسكيت من النوع الذي يضعه العمال ، ويلبس سويتير عمالي ، وعيناه منجرفتان . بدأ يدق على الأبواب كأنه يتسول . كان يريد أن يدخل الأكوخ ويكلم الموجيك . لكن ماذا يقول لهم ؟ لن يقول لهم شيئاً غير عادي ، بل أشياء يعرفونها من قبل ، لكنهم نسوها : إنهم آدميون ، وإن لهم روحاً ، وإنهم جوعى . وأيضاً إن هناك شيئاً اسمه الحرية . وشيئاً آخر اسمه العدالة ، وشيئاً ثالثاً اسمه ...

وخفض اليهودى صوته عندما رأى صاحب الحانة يمد أذنه لينصت إلى الكلام فى اضطراب ظاهر . لكن الزملاء أدنوا رؤوسهم من اليهودى يسألون :

— اسمه ماذا ؟

وأجاب اليهودى بصوت خافت وهو ينكمش على نفسه فى خوف :
— الثورة .

وسرعان ما شعر بيد ضخمة ، يد صاحب الحانة ، تمسك به .

— أيها اليهودى القدر ، البلشفي ، اخرج ! .

وقبل أن يتمكن الزملاء من التدخل كان المسكين قد أصبح فى

الشارع .

وانتفض درا كوس . صاح فى داخله صوت :

« العالم أصابه الفساد ، وعليك أن تنقذه ! »

« أنا ، السكير ؟ الدب الضخم الغليظ ؟ الكذاب السارق القاتل ؟ »

« أنت ، أنت ! فانهض ! »

وأسرع إلى الخارج وهو يصيح قائلاً لليهودى :

— أنا آت معك .

وأمسك بذراعه ، وضاع معاً فى متاهة الأزقة .

كان الكابتن درا كوس يسترجع ذلك وقد انفرد بنفسه تلك الليلة فى مركز المراقبة على قمة النسور . واستعاد فى ذهنه تلك الحياة التى عاشها أياماً خطيرة وليال ملتبهة فى سالونيك فى حانات غريبة وبيوت مهجورة وسراديب مظلمة . لا بد أن المسيحيين الأوائل كانوا يعيشون هكذا فى السراديب ، فقراء جوعى مضطهدين ، وبالتأكيد كانت لهم نفس العيون التى تشتعل بالحب والكراهية ، وكانوا يتقابلون بنفس الطريقة ليذبوا

المؤامرة لتدمير العالم القديم وفتح الطريق أمام العالم الجديد . كان الرفاق جميعاً يفيضون بالسرور والغضب والإيمان ، من قمة رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم . وكانوا يقسمون :

— سوف ننقذ العالم . سوف ننقذه طوعاً أو كرها .

وانفتح قلب دراكوس ، وامتلاً قلبه بالألم والاستنكار . وأدى اليمين وتلقى من غيره اليمين ، وجمع رفاقاً اختارهم شباباً مقطوعين عن الوجود . ثم التجأ إلى الجبل ، ومن قمة إلى أخرى ، وجد نفسه صباح يوم جميل على صخور إبيريا . النار والدم ! لم تكن الشفقة تعرف طريقاً إلى قلبه . كان يحرق القرى وينفذ الإعدام في الأعيان والفاشيست دون تمييز ، ويقول إن الكراهية هي الطريق الوحيد إلى الحب . وفي يوم أول أمس كان قد قبض على الأب لافرنتيوس ، الكاهن الذي وشى بالنساء السبع اللاتي أعدمن السود بالرصاص في معبد يوحنا الرسول . فلم تأخذه به أدنى شفقة . بل صنع له بنفسه صليباً له صقالتان ، وصلبه أثناء الليل في عرض الطريق الكبير بمسامير ضخمة ، ليرى الفلاحون جيداً كيف يعاقب الخونة .

وعاد يهمس لنفسه :

— هذا كله حسن جداً ، لكنني في النهاية سأموت كمدأ .

ومد جسده مستلقياً ليستعيد أنفاسه . فقد كان يخنق .

منذ فترة شعر في قلبه بطعنة ساكنين : ماذا إذا لم يكن هذا هو الطريق

السليم ؟ لكن لماذا بدأ قلبه يعذبه مرة أخرى ويبحث عن مهرب ؟ ثم

أبن يذهب ؟ أين بحق الشيطان يذهب ؟ مجرد أن يفكر في ذلك

معناه أن يصبح مجنوناً . كان يقول ليشجع نفسه : لا ، لا ، هذا هو

الطريق السليم . فاستمر . استمر . ويجب أن تضرب بمزيد من الشدة !

ثم يضرب كالأعمى ليخفق الصوت الجديد الذى بدأ يرتفع فى داخله .
ويوم أول أمس عندما قبض على القسيس وصلبه بأصابع يديه ، شعر الحمر
والسود معاً بالدعر ، بينما شعر هو بالارتياح عدة ساعات . كان يكرر
لنفسه فى محاولة للإيحاء الذاتى : هذا هو الطريق السليم تماماً . ليس
هناك طريق آخر . فاتبعه حتى النهاية ، ولا تنصت لأحد ، واستمر
ما أشقى هؤلاء الذين ينقصهم الشجاعة فيبقون فى منتصف الطريق . إن
تجد الخلاص إلا فى نهاية الطريق .

ومنذ اليوم الذى بدأ يتردد فيه هذا الصوت الجديد ، اشتدت قسوة
الكابتن درا كوس وازداد ولوغاً فى الدم ، كأنما ليقطع كل الجسور
ويصل طوعاً أو كرهاً إلى نهاية الطريق الذى اختاره . فلم يكن قسياً
هذا الذى صلبه . لا . بل صوته الداخلى يريد أن يسكته . لكن الصوت
لا يمكن صلبه . الجسد يمكن أن يذبح ، والرقبة تقطع ، لكن الصوت
يبقى . وفى هذا المساء ارتفع الصوت من جديد فى صدر الكابتن
درا كوس يمزقه :

— حسن جداً أن نغير العالم ونحقق العدالة والحرية ، لكن كيف
نغير العالم إذا لم نغير البشر ؟ هل نحن — الذين نقول إننا أناس جدد —
نختلف عن غيرنا من الناس ؟ هل ولدنا أحسن منهم ؟ يا لشقاءنا !
هذا كلام مقبول بالنسبة للرفاق الصغار المتواضعين . أما الرؤساء ، فاللعنة
عليهم ، خذ مثلاً لوكاس ، الضابط الذى يعمل معى : هو شهوة وحقد ،
يتجسس على لى يأخذ مكانى . شخص متعفن من رأسه إلى قدمه .
نحن جميعاً متعفنون !

وحاول الكابتن درا كوس يأساً أن يستنشق قليلاً من الهواء النقي .
وأخذ يشد شعر شاربه فى ثورة شديدة وهو يهمس :

— آه ! ليتنى كنت قويا إلى الدرجة الكافية . آه ! ليتنى كنت
قويا بحيث أستطيع أن أرفع رايتى الخاصة !

١٥

سقط على الصخرة ظل جانبي .

وانتفض الكابتن درا كوس . رأى أمامه المرأة المتنكرة في زي

راهبة ، يتهدل شعرها الأشقر على كتفها . وقطب جبينه قائلاً :

— أين كنت ؟ لقد تأخرت . هل رأيت الرئيس ؟ .

— قابلت أباك منذ لحظة وأنا صاعدة ، الأب ياناروس .

— لا يهمك أبي . هل رأيت الرئيس ؟ ماهي الأخبار التي تحملينها ؟

تكلمى !

— قال إنك يجب أن تترك المسؤولية إلى لوكاس ...

ولم تستطع أن تكمل كلامها ، فقد قفز الكابتن درا كوس ليقبض

على رقبتها . لكنه استطاع أن يتمالك نفسه ، والتقط قطعة حصا وقفز

بها في الفضاء . وتحشرج صوته حتى أصبح مثل خوار الثور الذي يبع .

— تقولين إلى من ؟



فأجابت المرأة بهدوء :

— إلى لوكاس .

وخفضت عينيها لتخفي سرورها .

وارتفع صوت أسنان الكابتن وهو يصر عليها . وسأل من نخذه

وإبطيه عرق ملتهب شديد تفوح منه رائحة خنزير بري . وشعرت المرأة

بالخوف ، وأنت بحركة صغيرة لتراجع .

— قفي ! أين تذهبين ؟

واحتبست الكلمات في حلق الرجل ، فكان لها صوت يشبه الحجارة

المجروشة . وظلت الكلمات تجاهد لتتحول إلى صوت بشري :

— ولأى سبب ، من فضلك ؟

— أنت لم تعد منضبطاً . أنت جعلتهم يتصورون فيما يبدو أنك تريد

أن تعمل لحسابك الخاص . لقد بلغهم ذلك . والآن لم يعد لديهم ثقة .

وصمتت ثم أضافت :

— وفضلاً عن ذلك لاحظوا أنك تأخرت في الاستيلاء على

كاستلوس .

وانفجر الرجل يضحك في وحشية . ورجأة توقف مرة واحدة .

أدرك الحقيقة في لحظة سريعة وهو يضحك . واقترب من المرأة في صمت ،

وقبض على كتفها بقسوة بالغة . وقال بصوت لاهت :

— هل هذه مصادفة ...

وصمت مرة أخرى . وغمس عينييه في عينيها الزرقاوين ، وأحرق

وجهها بأنفاسه اللاهثة . حاولت أن تدير وجهها ، لكنه أمسك برقبته

بقوة حتى لا تتحرك . وكرر السؤال :

— هل هذه مصادفة ...

وفجأة شدد قبضته على رقبتها حتى اختنقت . وبدأ يعوى :

— يا قدرة ! أنت صورت لهم الأشياء بطريقةك الخاصة ، لتخدمى
مصالح عشيقك . عشيقك « القزعة » . أنت لا تفكرين إلا فى أن
تصبحى السيدة زوجة الكابتن !

وترك عنقها وأخذ يلوى ذراعها . كانت المرأة تتألم ، لكنها لم تفتح
شفهتها . وظلت تقاوم بلا صوت ، بينما الكابتن يضغط عليها فى هياج
شديد . وعاد يعوى :

— يا قدرة ! إلى أين ستدفعيننى ؟ منذ وصولك لم تتوقفى لحظة
عن نشر الفضايح فى هذا الجبل . ألا يمكن أن تفهمى أيتها الكابنة ، أنه
لا يوجد هنا رجال ونساء ، لكن فقط رفاق ؟ عندما تنتهى الحرب
تستطيعون أن تفعلوا ما تشاؤون بالأنداء والشوارب ، وليس قبل ذلك ...
لكيك أتيت فلوثت كل شيء .

— أنا أحارب من أجل الحرية . فأنا حرة ، أسلك وفق هواى .
— الحرية هى الخضوع للفكرة ، لا الخضوع للهوى .
— هذا كلام سليم ، لكن بالنسبة للرجال . أما أنا فامرأة . وعندما
أرى الرجال لا يبقى فى رأسى سوى شيء واحد : أن آخذ منهم واحداً .
— وماذا تجدين فيه ؟ إنه قصير وساقاه ملتويان ، وفى بشرته
المحمرة كلف .

وكان يقرب منها وهو يتكلم ويحتك بها كالحصان ، حتى بدأ شعر
لحيته يشك خديها وذقنها . ومن ثديها انتشرت رائحة شديدة كرائحة
اللبن المخثر واللوز الفج . وشم الرجل الرائحة ، فانتفض وتراجع عن
المرأة ودفعها بعيداً عنه . وكاد يصفعها على وجهها ، لو لم يمسكه الحجل .
وزجر :

— اغربي عن وجهي يا قدرة . لا تأت لتلوثيني أنا أيضا !
وبدأت تزر رداءها الذي انفتح عند صدرها . لكن الرجل قفز
فوقها وأمسكها من رقبتها وألقاها أرضا .

وقالت وهي تطلق صرخات حادة :

— أركني ، أركني ، أنا أمقتك !

وغمغم الرجل وهو يغرز أسنانه في رقبتها :

— وأنا أيضا ، وأنا أيضا ، وأنا أيضا .

— أركني ، أركني ، أنا أمقتك !

وصارعت في يأس لتفلت منه ، بقدميها وقبضتيها وأظافرها . وكانت
سيقانها تتشابك وتنفصل من لحظة لأخرى ، وشيئا فشيئا تحول
صراعهما إلى تماسك الجسدين . والرائحة القذرة المشبعة بالعرق في جسم
الرجل كانت شديدة طاغية فغلبت المرأة . وصاحت من جديد :

— أركني ، أنا أكرهك ، أنت تخيفني !

وأجاب وهو يبذل جهده ليفتح ملابسها :

— وأنا أيضا ، وأنا أيضا يا قدرة !

أصابته الكراهية بالجنون واستوات عليه رغبة جارفة في أن يجرها
أرضا ويدوسها بحذائه ذي الحديد . وأمسك برداءها وجذبه بعنف حتى
مزقه .

وبرز ثدياها ناصعين مبللين مشدودين . وأمسكها الرجل في يديه
وقفد صوابه . وأطلقت المرأة صرخة ضعيفة وشحب وجهها وغامت
عينها . وهمست :

— لا ، لا !

كان صوتها إذ ذاك خافتا ، فيه رنة توصل ، وثدياها يدوبان لذة وألما .

ثم ألقت ذراعها على الحصى ويداها مفتوحتان ، وتوقفت عن المقاومة ،
وأغمضت عينيها . وكان الرجل يصهل كالحصان :

— يا قدرة ، يا قدرة ، أنا أكرهك !

لم يبق في وجهه شيء إنساني . تحول إلى شكل الغوريلا الأولى التي
تلهث وراء اللحم الأبيض .

ومرت لحظة سمعت المرأة رجالا يغنون ، وكلباً ينبع من بعيد ،
من بعيد جداً ، في آخر الدنيا !

ثم انتفخت عروق صدرها وساقها ، وأخذت تدق جسدها كالسياط .
وبعد ذلك جاء سكون . سكون عميق . كأنما سقط العالم في الهاوية .

والذكر ذو الشعر الكثيف غائب عن نفسه لا يعي ما يفعل أو يقول ،
يلتهم في شراهة بشفتيه اللاميتين هذا الجسد ذا الرائحة النفاذة والملمس
الناعم كالقטיפه ، ويهدل كالحمامة بصوت رقيق خافت لم يعد يشبه صوته :
— حبيبي ... حبيبي ...

كم من الساعات ، أو كم من الثواني مرت ؟ انفصل الرجل عن
المرأة ، وجلسا على قطع الحجارة يتبادلان نظرات الكراهية . وفجأة
أخفت المرأة رأسها بين ركبتيها واستولى عليها شعور بالغثيان . شعرت
بأنها سقطت في حظيرة خنازير ، وخيل إليها أن القذارة الكريهة تغمرها ،
بحيث لا يمكن أن يغسلها أى شيء .

وتناولت منديلها وبدأت تمسح فمها ورقبتها وصدرها في غضب
شديد . وامتلاً المنديل بالدم .

وتابعت الرجل بطرف عينيها . كان إذ ذاك يدور حول نفسه كالذب ،
ويزوم وذراعه يتأرجحان وجبينه مقطب . ودفنت المرأة رأسها مرة
أخرى بين ركبتيها وهي تهمس :

— الوحش ، الوحش القدر ...

كانت ستحاول الانصراف ، لكنها شعرت بجسمها كله يغيب في إرهاق حلو . لتغمض إذن عينيها لحظة واحدة وتنعس !

لكن الرجل وقف أمامها يدق الأرض بقدمه :

— يا قدرة ، لا أريد أن أراك بعد ذلك ، اغربى عن وجهى !

وقولى لعشيقك إنه يستطيع أن يستمر في السعى ليصبح الكابتن !

وقفزت المرأة واقفة تصيح بأعلى صوتها :

— يا وحش ! يا وحش يا قدر !

وتهيات لتصرف ، وأعدت شعرها تحت البيريه ، عندما برز في تلك

اللحظة من بين الصخور فتى صغير . قال وهو يغمز بعينه بطريقة مكشوفة :

— يا كابتن درا كوس ، أبوك الأب ياناروس يطلب رؤيتك .

* * *

كان الأب ياناروس قد ظل واقفاً يستدفيء بجوار النار ، والرعدات

تسرى في جسمه موجات متتابعة . وبدأت روحه تعذبه مرة أخرى .

قال لنفسه : « يا أب ياناروس ، أيها القلب الحائر المتقلب العجوز ،

ماذا تصنع في عرين الأسود ؟ ارجع من حيث أتيت قبل أن يفوت

الأوان . ابنك سيحضر بعد لحظة . »

لكن الكابتن ظهر في نفس اللحظة يسير متثاقلاً . انعكست النيران على

وجهه ، فزادت من بروز فكه الثقيل وسواد لحيته . كان منظره الجانبي

يشبه منظر الكبش ، ويداه الغليظتان تصلان إلى ركبتيه . وتباعد الرفاق

ليفسحوا له الطريق . وحضر الضابط لوكاس ليكون بجانبه . فقدفه بنظرة

كنظرة الثور ، وصعدت دماء الغضب في عينيهِ ، لكنه أشاح بوجهه

وبصق في النار .

وقال وهو يفك زر الياقة التي تخنقه :

— أين الأب ياناروس ؟

وأجاب العجوز :

— ها أنذا .

وابتعد عن النار التي كان يستدفئ بها . والتوت شفتا الابن في

ابتسامة ساخرة ، وغمغم :

— مرحباً بك .

وأجاب الأب ياناروس :

— أنا سعيد بمقابلتك يا كابتن . عندي شيء أقوله لك .

— أنا أسمعك .

والنف الأنصار في حلقة حول الرجلين ، وكتموا أنفاسهم ينصتون .

وقال العجوز :

— من الأفضل أن يكون الكلام خاصاً .

— ليس عندي أسرار على الرفاق . تكلم أمام الجميع . أي ربح طيبة

دفعتك إلينا ؟

— ربح الله . الله هو الذي حملني إلى هذا الوكر . عندي شيء أقوله

لك من عند الله . وبعد ذلك سأصرف .

— أنا أسمعك .

— ألا تشفق على اليونان ؟ هذا القطار الذي تركبه سيذهب

اليونان إلى الضياع . الله خلقنا قليلى المدد . فإذا امتدت الحرب ان يبقى

منا على قيد الحياة أحد . القرى دمرت والمنازل أحرقت والكهوف

امتلأت بالأرامل واليتامى . الشفقة راحت من الوجود . أنت أخذت

كاستلوس ثلاث مرات ، وهم استرجعوها منك ثلاث مرات . وفي كل

مرة لم يكن الحمر ولا السود يتركون فيها سوى الرماد . إلى متى يستمر

ذلك ؟ لقد جئت أبحث عنك هذا المساء على الجبل لأسألك : إلى متى سيستمر ذلك ؟ وأنا أسأل الآخرين نفس السؤال . فأنا كاهن الله وواجبي أن أنتقل بين المسكرين وأصيح : المحبة ! المحبة !

وانفجر الكابتن يضحك في خشونة وقسوة :

— المحبة ، المحبة ! ألم تقل في ذلك ما يكفيك ؟ هل أتيت تبحث

عنى على الجبل لتقول لى ذلك ؟ النار ! النار ! هذا جوابي : فارجم من حيث أتيت .

— قلت لك إن عندي ما يجب أن أحادثك فيه .

— وأنا قلت إنى أسمك . أسمك . لكن خل عنى إله المحبة . هذه

الكلمات الرنانة لا تجدى معنا . تكلم بالتحديد . ، لماذا أتيت ؟

— لأسلم لك كاستلوس .

والتفت الكابتن إلى رفاقه :

— أحضروا عرقى للأب ياناروس . هو فى حاجة أن يشرب قليلا

ليستعيد قواه .

واستدار نحو أبيه ، وأضاف بصوت ضاحك :

— استمر أيها المعجوز . فهذه بداية مبشرة .

وقال المعجوز غاضباً :

— ليس فى هذا ما يثير الضحك . فليس سهلا على نفسى أن أسلمك

القرية ، ولا سهلا عليك أن تسيطر عليها . كاستلوس ليست بين يدي ،

ولم تصبح بعد بين يديك . كاستلوس بين يدي الله . فاحترمها .

وأحضرت فتاة صغيرة كأسين من العرقى . لكن الكابتن قال وهو

ينحى كأسه :

— لست فى حاجة إلى ما يقوى قلبى . اعطها للمعجوز .

وأجاب الأب ياناروس في شعور بالإهانة :

— لست أنا أيضاً في حاجة إليها . ثم حسبك إعلاناً عن عمري ،
فأنا لست عجوزاً .

وصمت الاثنان لحظة ، وعيونهما متلاقية . وصاح في داخل العجوز
صوت يقول : « لا يمكن أن يكون هذا الرجل ابني . إنه لا يبعث في
نفسى أدنى ثقة . لن أسلم له كاستلوس . سأرحل . »
أما الابن فقد أحس من جانبه أن قلبه يسقط وعينه تغطيهما غشاوة .
كم من الأشياء احتملها وهو طفل على يدي هذا الأب ، عندما كان
لا يزال وحشاً صغيراً غير مستأنس ، يريد الأب تحويله إلى رجل ! كم
يخافه وكم يكرهه .

في إحدى الليالي أشعل النار في السرير وفر هارباً من فوق جدار
الفناء . ومنذ تلك الليلة لم يعد . قال وهو يشد قبضته وقد نفذ صبره :
— يجب أن نهي الموضوع ! لا تتصور أنني في حاجة إليك . فقد
أقسمت أن أحرق القرية غداً .

واسترجع الأب ياناروس أمام عينيه منظر النساء في ثياب الحداد
والأطفال الجوعى والبيوت المشتعلة وجيف الموتى تفسد على الجبل
واليونان تحتضر .

ونظر إلى الفتیان يتدافعون حول النار . كان بعضهم راسخى الأقدام
كالأشجار التي لا يهزها شيء ، وآخرون كالوحوش المتربصة . وكان
هناك أيضاً فتیان يشبهون للملائكة . وفكر في نفسه . « ماذا أفعل لكي
أثير قلوب هذه الأشجار والوحوش والملائكة ؟ كيف يستطيعون أن
يفهموا الألم الذي أشعر به ؟ »

وجأة ممع صوت الله يغطي على اضطراب روحه . هو هكذا دائماً .

كلما عجز عن الرؤية بوضوح ، وتناه عقله بين مئآت الأصوات المتنافرة ، يرتفع من قلبه صوت آخر هادئ شديد الوضوح ، هو صوت الله ، يعيد النظام إلى أفكاره . وسمع الأب ياناروس هذا الصوت ، فتماسكت ركبتاه ومد يده يلمس يد الكابتن . كان مضطربا يشعر بأن حياة آلاف البشر تتوقف على هذه اللحظة . قال :

— يا ابني ، يا ابني ، هل تريد أن أركع أمامك ؟ نعم ، أنا أعرف أنك قاسيت كثيراً على يدي عندما كنت صغيراً . لكن كان هذا من أجل صالحك . فلا بد أن تضرب طين الفخار بشدة لتصنع منه الجرة المتماسكة . لقد اضطهدتك كثيراً . والآن أتى دوري . أنا الأب ياناروس الذي لم يقبل قط أن ينحني لأحد إلا لله ، أركع أمامك يا ابني لأتوسل إليك . أنزل القرية غدا مساء ليلة سبت النور . سأسلم لك مفاتيحها . وسنحتفل معاً بالقيامة . وسنتبادل قبلات السلام . لكن لا تقتل أحداً ! هل تسمع ؟ لن تقتل أحداً !

وسكت الكابتن دراكوس ، لكنه كان يضحك في لحيته الكثيفة . واستمر العجوز يتوسل :

— اعتق القرية . احترم حياة سكانهم وشرفهم وممتلكاتهم .

— أنت تطلب الكثير !

— أنا أطلب الكثير ، لأنني أعطى الكثير . لا تقتل أحداً .

فسبنا هؤلاء الذين سقطوا من قبل .

— حتى هذا القومندان الكلب ؟ حتى هذا العجوز القذر

مندراس وأولاده ؟

— لا أحد ، لا أحد . فكاهم من القطيع الذي أرعاه . ويجب أن

أقدم عنهم الحساب في الدينونة الأخيرة .

— أما أنا فيجب أن أقدم الحساب هنا على الأرض ، في الدينونة الأولى . أقدمه للرفاق الذين سيقومون بالنزول إلى أزقة كاستلوس وصخورها . لا تقطب جبينك يا أب ياناروس . فلا جدوى من الغضب . هل تعتقد أنى لا زالت الولد الذى تستطيع أن تضربه بالسوط كالكاب ؟ هل تذكر عندما كنت تعلقنى ورأسى إلى أسفل ثم تضربنى على باطن القدم حتى يسيل دمي ؟ تزعم أن هذا يصنع منى رجلاً ... لكننى فى إحدى الليالى أشعلت النار فى بيتك . وغدا سأشعل النار فى قربتك . لا مساومة . جاء دورى .

وعادت أمام عينى العجوز صورة كاستلوس تشتعل . لكنه شد قلبه ولم يدعه ينفجر .

— أنا أرسلت الأوامر إلى القرى المحيطة يا كابتن دراكوس . وغدا عند الظهر سيجتمع الشعب أمام الكنيسة . وسنسير إلى المعسكر . سنقبض على القومندان . فمعظم الجنود معنا . وإذ ذاك سنرسل لكم إشارة . هذا ما أردت أن أقوله لك من عند الله . لكن كن شفوفاً ، أيها الكابتن ، واقسم لى ألا تضطهد أحداً .

ونظر الكابتن حوله . كان الضابط لوكاس يستعد للإدلاء برأيه ، لكن دراكوس أغلق له فمه مزجراً :

— سأقرر أنا وحدى . أنا الكابتن !

وعض على شاربه وغاب فى تفكير عميق حتى أصبح وجهه كقطعة من حجر . لكن شيئاً فشيئاً ظهرت على شفطيه الغليظتين ابتسامة شيطانية . والتفت أخيراً إلى الأب ياناروس قائلاً :

— حسناً . لن اضطهد أحداً . أقسم على ذلك .

لكن العجوز هز رأسه متسائلاً :

- ترى بأى شيء أجعلك تقسم ما دمت لا تؤمن بالله ؟
- أقسم بالإيديولوجية ، فهى إلهى .
- ليس هناك إيديولوجيات . هناك فقط بشر . الإيديولوجية لا تساوى شيئاً بدون الإنسان الذى يدعو لها .
- إذن اطمئن ، فأنا أساوى كثيراً . أعطيك كاتى . كاتى لا رجوع فيها .

— فليمد الله يده لنا !

وانفجر الكابتن ضاحكا :

— إذا كان له يد !

والتفت إلى رفاقه :

— إلى السلاح يا أولاد . الشعب قام من الأموات !

فأجابوا فى صوت واحد :

— بالحقيقة قام يا كابتن .

واهتز الجبل بصياحهم .

ونظر العجوز إلى السماء يسألها العون ، لكن السماء كانت مشغولة

بمسائل أخرى . كانت تتهيا لتطلع النهار .

« سبع مرات كل يوم ينفخ الله في أعواد الغاب ، فتلين الأعواد .
ما هي هذه الأعواد ؟ البشر . فانفخ يا إلهي . انفخ في درا كوس هذا
واجعله يلين ... »

هكذا قال الأب ياناروس لنفسه وهو يهبط الجبل . وما أن اختفى
عن عيون الأنصار وراء الصخور الأولى حتى توقف ورفع يديه إلى أعلى
صائحاً بأقوى صوت ليسمع أبراج السماء :

— يارب ا يارب ا حتى متى يظل عدو المسيح أمير الدنيا ؟ حتى
متى يظل الإنسان ينكر أقرانه ؟ الأبرار في خطر . ثم ما هو عدوهم في
هذه الدنيا ؟ قليل جداً . فلماذا لا تأخذك الشفقة بهم ؟ أنت الذي
أعطيتهم الحب والفضيلة والخشوع ، لماذا لم تعطهم القوة ؟ كان يجب أن
تسلحهم هم ، لا الآخرين . فالآخرون لديهم الأسنان والأظافر . لديهم
القوة . فهم ذئاب . يارب ، سلح الخراف أيضاً ، كي لا تأكلها الذئاب .

وإذا أردت أن تعود إلى الأرض ، فلتعد أيها المسيح كالأسد الكريم ،
لا كاللحم . يارب ، لا أستطيع أن أفهمك . لماذا تعاقب هكذا بقسوة
أوائك الذين يحبونك ؟

وارتاح الأب ياناروس بعض الشيء عند ما أفضى بذات نفسه إلى
الله . واستأنف طريقه إلى كاستلوس بأقصى ما يستطيع من سرعة .
كان القمر ينحدر إلى المغرب . والفجر يتهيأ للطلوع في السماء . وسرعان
ما ظهرت صورة القرية بين الصخور . قطعة من الحجر ترقد بين قطع
الحجارة . وظهرت أسطح المنازل من الطوب الضارب إلى الخضرة ،
ترتفع فوقها مداخن ذات لون أسود لم يعد يصعد منها دخان . ورأى
مجموعات الخرائب المنتشرة كبقع البرص حول الكنيسة المتهدمة .

كان بيت الله تماماً مثل بيوت البشر . في داخله يرقد المسيح على قبر
الكنيسة ، تكسوه الزهور البرية ، ينتظر إقامته . فقد كان اليوم سبت
النور . وهز الأب ياناروس رأسه قائلاً :

— ساعدني يارب ، إذا أردت أن أساعدك . ساعدني على أن أعيد

الوفاق ، إذا أردت أن ترى في كاستلوس يوم قيامتك !

وبدأ النور ينتشر . ودخل الأب ياناروس القرية يسير لصق الجدران
ويندس بين الأزقة حتى وصل إلى الكنيسة . وهناك تهالك على المقعد
الحشبي وقد أضناه التعب . كان جفناه ثقيلين مثل قطعتين من الرصاص .
ودارت الأشياء أمام عينيه في دوامة خاطفة : قبر المسيح والأيقونات
ورسوم الهيكل المذهبة ، سوداء وحمراء وفي لون الذهب . وشعر بالألم ،
فأغمض عينيه وغاب فجأة في نوم عميق .

أما القرية ، فكانت قد بدأت تستيقظ . انفتح أحد الأبواب نصف
فتحة وبرزت الرؤوس هنا وهناك ، ونباح كلب ، ثم ساد السكون مرة

أخرى . وفي لحظة ، ارتفع صياح طفل رضيع جائع يرقد في فناء صغير .
وسرعان ما بدأت الجراء الوليدة في البيوت المجاورة تردد الصدى
وتسرع من الجوع أيضاً .

وفي الطرف الآخر من القرية كان الجنود قد نظفوا بناذقهم ، كم من
الثواني أو الساعات بقي الأب ياناروس غارقاً في النوم ؟ في الحقيقة لم
يكن ذلك نوماً ، بل كان شيئاً مخيفاً دخل فيه فجأة حتى أصبح يرتعد من
قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

خيل إليه أن خاتم المسيح قد تحطم في يده وأنه لم يعد يمسك سوى
قطعة من الحجر يتصور أنها الله . وأظلمت الشمس ، فأصبحت مثل كيس
صنع من الشعر الأسود . وأصبح القمر في لون الدم ، وبدأت نجوم
السماء تتساقط على الأرض كشجرة التين الشوكي التي تقذف ثمارها
الحضراء هنا وهناك عندما تهب عليها ريح شديدة . وتمزقت ظلمات
السماء ، فظهر سبعة ملائكة يحملون سبعة أبواق .

ونفخ الملاك الأول في البوق ، فسقط على الأرض سيل من النار
المختلطة بالدم . واحترق ثلث النجوم والأرض وكل ما فيها من عشب
أخضر .

ونفخ الملاك الثاني في البوق ، فسقط في البحر جبل من النار ،
وتحول ثلث البحر إلى دم ، ومات ثلث السمك وهلك ثلث السفن .

ونفخ الملاك الثالث في البوق ، فسقط من السماء نور ملتهب ، وجفت
ثلث الأنهار والينابيع .

ونفخ الملاك الرابع في البوق ، فأظلم ثلث الشمس والقمر
والسكاكب .

ونفخ الملاك الخامس في البوق ، فانفتحت عيون الهاوية ، وتصاعد

من هذه العيون دخان وخرجت من الدخان أسراب من الجراد تشبه العقارب ذات الزبانات المليئة بالسُم ، تلدغ كل شيء بقي على قيد الحياة . كان شكلها كالجياذ المعدة للحرب ، ووجوهها مثل وجوه البشر ، وقرونها مثل شعور النساء ، وأسنانها كأَسنان السباع . وكانت أصواتها مثل صهيل الجياذ التي تجرى في الحرب .

واكتشفت جرادة منها الأب ياناروس يختفي وراء قطعة الحجر الكبيرة التي محتضنها فانقضت عليه ، وصرخ العجوز صرخة شديدة وفقد الوعي وهو نائم . وعند ما استعاد وعيه اختفى أمامه كل شيء — الملائكة والجراد — ووجد الأب ياناروس نفسه في خرائب مدينة كبيرة كان الدخان لا يزال يتصاعد من بيوتها ، وفي الجو نفوح رائحة الجيف النتنة ، والكلاب والقطط الجائعة تجرى بين الأطلال . والأب ياناروس يقف في أحد مفارق الطرق ، يبدو وكأنه يسائل نفسه عما إذا كان قد أصيب بالجنون . ومن حين لآخر يمر رجل يترنح كالسكارى ، جسمه جسم رجل حقيقي ، لكن وجهه مسخ مشوه ، ممزق ملطخ بالطين ، يبرز من مكان فمه خرطوم يقطر دماً . وكان الأب ياناروس يقف مقيد الحركة في مفترق الطرق يمد يده كالمسول قائلاً : « أتوسل إليك ياسيدي العزيز . قل لي هل أنا مجنون ؟ » ويجيبه الرجل ماضياً لا يتوقف : « ماذا أقول لك يا سيدي العزيز ؟ هل تستطيع أن تقول لي أنت عما إذا كنت أنا مجنوناً ؟ أنا مثلك لا أعرف شيئاً . » ويهز خرطومه وينفجر ضاحكاً ويمضي إلى حال سبيله . ويظل الأب ياناروس واقفاً في مفترق الطرق لا يريم ، يمد يده وينتظر القادم الآخر ليسأله ، ونفسه تفيض بالقلق .

« هيه يا أب ياناروس ! يا أب ياناروس ! »

وسمع النداء فجأة وهو في أعماق النوم . واستيقظ . ونظر حوله ،

وجرى نحو الباب . وخرج إلى الفناء ، فلم يجد أحداً . وقال لنفسه :
« الله أخذته الشفقة بي ، فناداني لأستيقظ قبل أن أكتشف أسرارهِ . »
وعاد إلى الكنيسة . ووقف أمام أيقونة المسيح يمد قامته على
أطراف قدميه ليقبل الأصابع النجيلة التي تمسك بالكرة الأرضية .
وتوسل إلى المسيح قائلاً :

— يا رب . ارحم البشر . لا تدع رؤياي تتحقق . امنحنا السلام
يا رب . لسنا نسألك أكثر من ذلك . نحن لانطلب طيبات الدنيا ، ولا
الراحة ولا المجد والتكريم ، بل السلام فقط . أما هذه الأشياء كلها ،
فافعل فيها ما تشاء .

وشد حزامه ونظر إلى المسيح قائلاً :

— هناك يا رب أشياء كثيرة يجب أن نفعليها . فاليوم سيقرر مصير
كاستلوس . فلا تتركنا في هذا الوقت العصيب . تعطف على قلب
القومندان ليكون هادئاً . فالأنصار سينزلون اليوم . وتعطف عليهم
أيضاً ، وافتح عيونهم ، ليدركوا أننا إخوتهم . إن قلب الإنسان مثل
شرقة القز . انفخ فيه يا رب لتخرج الفراشات من داخله .
واتجه نحو الباب . ولم يكديصل قرب العتبة ، حتى نظر إلى الأيقونة
مرة أخرى قائلاً :

— لا تلعب بنا . نحن بشر ، ولا نستطيع أن نتحمل ذلك .

وفي الخارج أعشى ضوء الشمس عينيه . وشرد نظره في قبور الفناء .
فاقترب من القبر الذي بناه لنفسه ، ولوَّح له بيديه قائلاً :

— انتظر . فيجب أن أتم أولاً الرسالة التي كلفني الله بها عندما
وضعتني في هذه الدنيا . لا تتعجل .

كانت أعشاب شيطانية تنمو بين ألواح الحجر حول القبر . وتضوع

الجو بعير الربيع . وخرجت الفراشات الأولى من القبور ، تضرب في الهواء الدافئ بأجنحتها التي لم تتدرب بعد . ورأى الأب ياناروس زنبوراً له لون أخضر وذهبي يتخبط على الجدران على ضجيج مسموع . وقال :

— اشفق علينا يا رب . الشمس قد ارتفعت في السماء . أظن أنني نمت كثيراً . وعلى كل حال ، فأهل القرى المجاورة إن يتأخروا أكثر من ذلك . ويجب أن أدق الجرس .

ونهض بصعوبة . وجملة أصابه ألم شديد ، حتى اعتقد أنه سيقع مريضاً . وأخذ فناء الكنيسة يلف ويدور أمام عينيه . وأخيراً توقفت حالة الدوار . فقال لنفسه هامساً ، وهو يتحسس جسمه براحة يده في حنان :

— تشجع أيها البغل العجوز . أنت تسير على شفا الهاوية . فليس هذا وقت التعثر في السير .

وفكر في نفسه : « سيكون هذا يوماً عظيماً ، طالما أنني أمسك زمام المبادرة . »

ووصل إلى حبل الجرس في خطوتين ، وبدأ يقرعه بطريقة متعجلة وفي إصرار . كان يشعر أن هذا الجرس هو فمه الحقيقي ، وأن الكنيسة بكل ما في جدرانها من قديسين وشياطين ، وبفنائها الذي تملؤه القبور ، هي جسمه الحقيقي .

ونظر إلى الصورة في منتصف القبة في أعلى الكنيسة ، ف شعر بروحه — الخفاش المرسوم — تصرخ بين يدي الخالق .

وخرج من الجرس المصنوع من البرونز والفضة صوت جهير يرن في الهواء الدافئ المعطر ، ويشعر الجميع — فيما عدا مسلمي الأتراك — أن

هذا اليوم هو سبت النور . ومن الأرض صعد إله ، على رأسه إكليل من العشب الأخضر الرقيق ، تذبعت منه رائحة عيد القيامة .

وكان الأب ياناروس يضع يده فوق عينيه من حين لآخر ، ينظر بعيداً عسى أن يلمح على الطريق أهل القرى المجاورة . في بعض اللحظات كان يبدو كأنما انعكس على وجهه نور قيامة المسيح ، ثم لا يلبث فجأة أن يكسو وجهه الظلام . كانت لا تزال ترن في أذنيه ضحكات الأنصار وهو ينصرف من معسكرهم في الفجر عائداً إلى القرية . وخيل إليه أنه يسمع الجبل نفسه يتضحك ويسخر منه .

وارتعد الأب ياناروس . هبت على قلبه ريح باردة . وفكر في نفسه : « هؤلاء الناس ليس لهم إله . فهم لا يخشون أحداً ولا يحترمون شيئاً . ومن المؤكد أنهم سيحشون بقسمهم . »

في تلك اللحظة كان العجوز يرتعد وهو يدرك أنه أدخل الذئاب في حظيرته . وأصابه التعب فجأة ، فترك الجبل وسكت الجرس . وأرهف أذنيه ، فسمع أبواب القرية تتخبط وضجيج الأصوات يقترب . ثم جلس على المقعد الحجري وجفف جبهته . وتردد وقع أقدام . وتوقف شخص ما أمام البوابة .

ورفع العجوز رأسه ، فرأى على عتبة الكنيسة رجلاً قصيراً عريض الجسم له صدغان ممتلئان وشعر طويل قذر . وقال الأب ياناروس :
— هذا أنت يا كريا كوس ؟ ادخل . فأنا في حاجة إليك في هذا الوقت بالذات .

وأجاب الآخر دون أن يتحرك من العتبة :
— أنا تحت أمرك يا أبانا . ثم إن عندي رسالة لك .

— ممن ؟

— من القومندان . فهو يريد منك أن تذهب لمقابلته .

— قل له إني مشغول . قل له إني لا أخدم الله والسلطان في نفس

الوقت . أنا لا أخدم سوى الله .

— سامحني يا أبانا ، فلست أجرؤ أبدأ على أن أقول له ذلك . اشفق

على واذهب إليه بنفسك ...

— سأذهب عندما يعطيني الله الإشارة أن كل شيء قد تم إعداده .

في تلك اللحظة فقط سأذهب لمقابلته . قل له ذلك . واسمع يا صديق المسكين

كريا كوس . إذا كنت تخاف إلى هذه الدرجة ، لا يمكن أن تصبح

قسيساً . فالقسيس لا يخاف البشر .

وتهد كريا كوس وقال :

— بالنسبة لي أنا ، أخاف البشر كما أخاف الله . فماذا أفعل ؟

وشعر الأب ياناروس فجأة بالشفقة نحو هذا الرجل الضئيل ،

الضعيف البسيط . فقال يأمره :

— تعال إلى جانبي . اركع .

وفهم كريا كوس ، فبدأ يرتعد .

وخر على ركبتيه ، وأحى رأسه . ووضع الأب ياناروس على رأسه

يديه الكبيرتين الدافئتين الثقيلتين المبللتين . وأبقاها كذلك عدة لحظات

دون حركة ، ثم رفع عينيه نحو السماء هامساً :

— أيها الإله القوي .. اهبط على هذا الزق الفارغ واملأه بقوتك ..

أنت الذي تعطى القوة للنملة ، وللبعوضة ، وللدودة الصغيرة ، اعطها

أيضاً لهذا الرجل ، هذا المخلوق . أيها الإله القوي ، اعط القوة

لكريا كوس منادى كاستلوس .

ورفع الأب ياناروس يديه قائلاً :

— انهض .

لكن كريا كوس لم يتحرك ، بل قال فى توسل :

— أريد المزيد يا أبانا .. المزيد .

ووضع الأب ياناروس راحتيه على الرأس المنحنية أمامه ، وظل هكذا

فترة طويلة .. ثم سأله فى رقة :

— بماذا تشعر يا كريا كوس ؟

لكن كريا كوس لم يرد .. كان يشعر بحرارة حلوة تهبط من يدي

المجوز ، يشعر بنهر فياض .. أى شىء هذا ؟ نار ، أم بهجة ، أم قوة ؟

لا يدري .. لكنه يشعر فقط بأن جسمه يمتلىء به .

وأمسك بيد الأب ياناروس وقبلها . وأشرق وجهه ، ونهض قائلاً :

— سأذهب إلى هناك .

ونظر إليه الأب ياناروس فى دهشة :

— إلى أين إذن ؟

— أقول للقومندان انك لا تستطيع أن تعمل من أجل الله ومن

أجل السلطان فى نفس الوقت ، لكنك تعمل من أجل الله فقط ، وأنت

ستذهب لتراه حين يأمرك الله .

ورفع المجوز يده فى سعادة قائلاً :

— بارك الله فى حياتك .. هل فهمت الآن إذن ؟

— فهمت يا أبانا .

— ماذا فهمت ؟

— فهمت أننى كنت زقاً فارغاً .. أما الآن فقد امتلأت وأصبحت

أقف على قدمي .

ورأى الأب ياناروس كريا كوس يتجه نحو المعسكر بخطوات ثابتة متعجلة ، وأصابه الغضب فجأة وهو ينظر إليه ... فقال بصوت مرتفع :
— أيها الإنسان البائس ، أنت تستطيع أن ترفع الجبال وتصنع المعجزات ، لكنك بدلا من أن تفعل ذلك ، تمرغ نفسك في القذارة والتحول والشك .. إن الله في داخل نفسك .. أنت تحمله دون أن تدرك ذلك ... ولست تكتشفه إلا ساعة موتك ، لكن بعد فوات الأوان .
أما نحن الذين نعرفه ، فنشمر عن سواعدنا ونرفع أصواتنا عسى أن ننجح بعد هذا في أن نسمع أنفسنا .

وعاد مرة أخرى يدق الجرس بحماس أشد .
وتساءل أهل القرية :

— ماذا أصابه ليقرع الجرس هكذا فجأة ؟ هل أخيراً قرر البغل العنيد أن يقيم المسيح ؟
وانفتحت الأبواب ، وخرج الرجال ، تتبعهم العجائز بالتلفيمات حول رؤوسهن .

— يعلم الله ماذا دار في رأسه من جديد ... هيا نرا !
وكان أندرياس أول من صعد إلى عتبة الكنيسة ، لا يزال يمسك في يده مطرقة الحداد الضخمة ... وأمسك بحبل الجرس قائلاً :
— دعه لي يا أبانا .. فأنت متعب .

وقال الأب ياناروس :

— شكراً يا أندرياس .. فالיום يوم عظيم .. وأمامنا الكثير مما يجب عمله .

— هل ستقيم المسيح إذن يا أبانا ؟

وضرب الأب ياناروس في حنان على كتف أندرياس :

— انبدأ بالإنسان . . وسيجد الله دوره بعد ذلك . . فلا تتمجل .

كان يحب هذا الحداد ، ويدعوه دائماً إلى جانبه في اللحظات العصيبة . وهو رجل ثرثار غليظ الجسم ، لكنه واضح كالماء . . كان يعمل في التمدين في سالونيك . وهناك تعرف إلى أحد اليهود ، استطاع أن يسيطر عليه وأن يقنعه بأنه جائع مقهور . . ثم اختلط إذ ذاك بأعضاء جدد في العمل السرى . كانوا في البدء يعقدون اجتماعاتهم في الكهوف ، ثم أصبحوا يعقدونها في الهواء الطلق . وأخذوا يحملون اليهودى على أكتافهم ، ورأسه محشوة بالشمارات ، ويتجولون به في الشوارع ، يحطمون واجهات المحلات بقطع الحجارة أو المطارق . وقبض عليهم البوليس وألقي بهم في السجن ، ثم أفرج عنهم ، فعادوا من جديد . واستمروا كذلك حتى تعب أندرياس من الأمر ، فاستقر رأيه على أن تحقيق العدالة الاجتماعية يحتاج إلى وقت طويل ، وأن الأغنياء سيظلون متخمين والفقراء يصرخون ، وأن النساء سيبحثن دائماً عن الألوان المزركشة ، والقساوسة سيظلون يبرزون كروشهم الكبيرة في الميادين العامة في صحبة رجال السلطة ، وسوف تبتلع السجون دائماً أشرف الناس . . ويمضى اللصوص في الشوارع ، والعالم لن يتغير . لهذا عاد أندرياس إلى القرية وأنشأ دكان الحدادة ، وقرر أن يصبح مالكا هو أيضاً .

لكن الماضى لا يتركك هكذا بسهولة . ارتبط أندرياس بمدرس القرية ، واستعاد لديه أفكاره المحببة ، وإذ ذاك فقد طمأنينته . ولم يعد العالم يبدو في نظره مقبولا ، وأصبح مرة أخرى يريد تغييره . وفى أحد الأيام قابل الأب ياناروس فقال له :

— أنا لا أعرف الله ، واسكنى أعرف نفسى . لست سوى حداد

مختلط التكوين ، بطيء الفهم غليظ القلب . ومع ذلك فلو كنت أنا
الذي خلقت هذا العالم لخلقته أفضل من ذلك .

وابتسم والقسيس وأجابه قائلاً :

— العالم يا أندراوس يخلق ويتجدد كل يوم ، فلا تيأس . من
يدري ؟ ربما يدعوك الله في صباح يوم جميل لتخلق له العالم الذي تراه
في ذهنك .

وأخذ الاثنان يضحكان وأصبحا من ذلك الوقت صديقين .

أمسك الحداد حبل الجرس بيديه الكبيرتين اللتين يغطيهما الجلد
الميت ، وبدأ يقرع في جنون ، وقال وهو يضحك :

— سوف أوقظ الموتى . . اليوم يوم عظيم . . نحن في حاجة إلى

كل الناس ، حتى الموتى . .

وغمز للقسيس بطرف عينه في خبث ، وقال :

— أنا أشم رائحة شيء ما يا أبانا . . في الليلة الماضية لم أستطع أن

أنام ، فخرجت أتجول في الحقول ، وفجأة رأيت في الطريق الضيق
الصاعد إلى الجبل شيئاً ما لم أستطع أن أميزه : إما ثوباً كهنوتياً ، وإما
جزءاً من فستان أسود .

وقال القسيس :

— إنه ثوب كهنوتي . . وفي هذا الثوب عجوز كان يحمل مصير

قريته .

وسأل الحداد في ارتباك :

— وماذا هل تفاهمت مع الشخص المطلوب ؟ هل وصلت

إلى اتفاق ؟

— وصلت إلى اتفاق .

وترك الحداد الحبل وقال وهو يخفض صوته وعيناه تقدران :

— معنى ذلك إذن أن السكين سيبدأ العمل يا أبانا ؟

— السلام هو الذي سيبدأ العمل يا أندرياس . رد سكينك إلى غمده .

وقال الحداد :

— ليس هذا ما نريد .. ألا تزال تؤمن بذلك يا أبانا ؟ ألم تفهم

بعد ؟ أن ما نحتاج إليه هو السيف .

— الحب سيف ، يا عزيزي أندرياس . لم يكن للمسيح سيف غيره ،

وبواسطته أخضع العالم ! ...

— المسيح كان يستطيع أن يصل إلى ذلك بأي طريقة من الطرق ،

ولو حتى يعود من الغاب أو بريشة من ذيل ديك . أما نحن ... أعني أن

الله يملك وسائل لم تصنع للبشر .

— المسيح في داخلنا يا أندرياس ، ووسائل الله هي أيضاً وسائلنا .

أليس المدرس صديقك ؟ إذهب إليه يوماً وسيشرح لك ذلك . كل ما في

الأمر أنه يطلق على المسيح اسماً آخر . لينين . وبالمناسبة هل رأيت في

الفترة الأخيرة ؟ كيف حاله ؟

— وكيف تريد أن يكون حاله يا أبانا ؟ إنه يكافح الموت ، وروحه

بين أسنانه . لكنه لا يدع نفسه يسقط . وهو يقول : إنى أحمل فكرة

عظيمة ، بحيث لا يمكن أن أموت .. وهذا ما يبقيني حياً !

— وهذا ما يبقيني أنا أيضاً ، وهذا ما يبقى العالم كله فلا يهلك .

فالمدرس يقول الحق . احمل له تحياتي .

ثم خفض صوته ليبلغ أندرياس بتعليقاته ، بينما أنصت هذا فاغر الفم

في سعادة غامرة .

قال الحداد في النهاية :

— حسناً .. لقد تم الاتفاق إذن .. المجد لله ! لقد اتخذت في النهاية الموقف العاقل . لكن إذا كان لابد أن يعمل السكينة ، فاعلم يا أبانا أن السكينة سيعمل . فالعالم يحتاج كثيراً إلى من يشذب أطرافه .

— هذا صحيح يا ابني . فالعالم شجرة ، ولا بد أن يأتي وقت تنمو فيه الفروع غير المثمرة وتقوى وتمتص كل عصارة هذه الشجرة دون فائدة . لكن انترك لله مهمة تشذيبها .

كان الأب ياناروس يعلم جيداً أن البشر هم أيدي الله ، وأن الله كلفهم بقص أطراف هذه الشجرة ، لكنه لم يشأ أن يقول ذلك للحداد حتى لا يزيد إثارة .

كانا يتبادلان الحديث همساً ، بينما خرج أهل القرية من الأزقة ، وبدأ فناء الكنيسة يمتلىء بهم .

أعيان القرية يضمعون على رؤوسهم قلانس من الفرو ، وفي أيديهم مسابح من الكهرمان ، وخلفهم أبناؤهم وخدمهم . أما معظم الناس ، فكانت وجوههم تفيض بالقلق وخذودهم غائرة وعيونهم متلصصة كعيون الثعالب . كثيرون منهم حفاة ، وبعضهم ينتعلون نمالا مثقوبة ، وجميعهم يرتدون أسمالا بالية . وأخذت بعض المجازم من يضعن تلفيعات سوداء يدندن بكلمات النذب الجنائزي . وانبعث من الحشد ضجيج يشبه الأنين الصادر من بعيد ، أو صرير فرع الشجرة الميت حين تكسحه الريح .

كان هناك في الحشد رجالان عجوزان وثلاث نساء ممن أصابهم الخوف باضطرابات عقلية ، أخذوا يجرون هنا وهناك خلف الناس يطلقون الضحكات الكريهة . واشتركت معهم أيضاً بولييكسيني العجوز خادمة مندراس . كانت تعقد شعرها بشریط . لكن مخدومها القاسي لمحها فطردها بتقطيعة من جبينه .

كانت الشمس تقترب من السميت ، وتلتهب كأنها ستمطر ناراً ، واشتدت سخونة الحجارة فانبعث منها الصهيد وفجأة تردد من جانب الجبل صوت شديد كأنه صوت حشد يمشى . والخطوات المتعجلة تدحرج قطع الحجارة ، والكلاب تنببح ، والضجيج يرتفع ، يختلط فيه الصياح بالمويل .

وأسرع الأب ياناروس نحو عتبة الباب ، فرأى في جانب الجبل حشوداً كثيرة من النساء والرجال تهبط من القرى المجاورة وتحمل رايات الكنيسة . ورأى حشوداً أخرى تلحق بها من اتجاهات متقابلة . واتسعت موجة الحشود على مرمى البصر ، ثم بدأت تتدفق حثيثاً في اتجاه كاستلوس . وفي المقدمة سارت الأمهات الخمس في ثياب الحداد . وعندما سمعن دقات الجرس ، بدأن يرددن المراثى .

كانت الأولى ، وهي كروستالينا المعجوز ، قد أرخت الشال على كتفها وأخذت تندب بصوت متهدج . وسرعان ما التقطت الحيط عجوز أخرى تسير في طريق مجاور ، فردت عليها وأخذت تحبب على صدرها . ولم تلبث كل الأمهات واحدة بعد أخرى أن بدأن يبكين أبناءهن ، تنتقل آلام الأمومة من أم لأخرى ، تتناولها هذه من تلك ، فزيد عليها وتنقلها إلى غيرها بحيث لا تتوقف لحظة .

وفي الأفق صعدت سحب سوداء تغزو قبة السماء . واختفت الشمس وأظلمت الدنيا . فأسرع الفلاحون خطاهم وقد أصابهم ما يشبه الذعر .

١٧

وقف الأب ياناروس على عتبة الكنيسة ، وشعر بقلبه يدق وهو يرى شعبه آتيا نحوه ، فقال لنفسه :

« أخيراً جاءت الساعة المباركة . هذا يوم يحدد مصير العالم ! »

وظهر الرجال من خلف الرايات يحملون أدواتهم على أكتافهم : الفئوس والمعاول والمناجل والمذاري والمدرات . ظهورهم مخنية وأفواههم صامتة . كانت الشمس قد وصلت إلى أوجها . ولا بد أن ريحا عاتية هبت في أعلى السماء ، فقد تفرقت السحب وأخذت الجبال تبرق بالنور .

وأثار هذا التجمع الجديد انتباه الغربان ، فخطت على الصخور تشهد مناقيرها . كانت تتخيل في رؤوسها الصغيرة الحبيثة أن هذا الجمع سيتمخض عن عدد من الجيف . ذلك أن ما يسميه الناس كفاحاً مقدساً ، تسميه الغربان وليمة مقدسة . وما يسميه نحن بطلا ، تسميه الغربان قطعة ممزقة من اللحم .

ووصل الموكب إلى كاستلوس ، فتلقاه الأب ياناروس بذراعين مفتوحين :

— مرحباً بكم في بيت الله يا أبنائي . هذا هو الملاذ الأمين ، الملجأ الذي لا تمتد إليه يد . تعالوا اقعديا تحت جناحي الرب المخلص ، ولا تخشوا شيئاً . فهذا اليوم سيشهد نهاية آلام المسيحية .

ولم يتسع فناء الكنيسة لهذا الحشد ، فامتد إلى الشارع . وأخذ الحشد يتماهل . وبدأت بعض النسوة في ثياب الحداد يرددن البكائيات في صوت خفيض . كان يجلس أمام القديس ، مندراس المعجوز وحوله أولاده وثلاثة آخرون من أعيان كاستلوس ، هم الحاج ، وستاماتيس ، والأب تاسوس . ومن خلفهم وقف جمهور الشعب ينتظر فاعراً فاه .

كان الجميع ينظرون إلى الأب ياناروس . والشمس تسقط عمودية على رؤوس الناس ووجوههم ، وتبرز في قسوة عيونهم الجاحظة وخدودهم الغائرة ومرافقهم المليئة بالتجاعيد . ورفع رجل عجوز عقيرته ، وقد انتفخت عيناه بالدموع . صاح :

— ماذا إذن يا أب ياناروس ؟ لماذا جمعتنا ؟ إذا كان لديك ما يقال ، فقله . لقد وصلنا إلى قاع الهاوية . كل ما كان عندنا أكلناه . كل ما كان في عيوننا من الدمع ذرفناه بكاء . ومع ذلك فلا زلنا نتكلم . فالكلمات — عليها اللعنة — لا تستطيع أن تعبر عن ألم الإنسان .

وتهدج صوته . وشعر بالحجل فغطى وجهه براحة يده . ونزعت امرأة عجوز تلفيعتها وأرسلت شعرها الأبيض على كتفيها ورفعت قبضتها لتخبط على صدرها وتبدأ البكاء والنحيب . ولكن متلبيانوس النساج الذي كان يقف إلى جوارها جذبها من ذراعها قائلاً :

— اسنا في حاجة إلى أنينك يا خالة ماريورا . لا تخبطي صدرك .
أجدر بك أن تضعي ثقتك في الله .

وصرخت العجوز فيما يشبه العواء ، وقد أثارها أنهم لم يتركوها
تعب عن ألمها :

— لكني لم أعد أحتمل يا ستليانوس . لم أعد أحتمل . أين الله ؟
هل سيأتي إلى كاستلوس لينظمها ؟ إنما أريده الآن في هذه اللحظة .
فإذا لم يأت الله لنجدتنا يا ستليانوس ، فما جدوى ما تقول إذن ؟
وقاطعها كريا كوس في انفعال . كان قد غاد لتوه من المعسكر ثائراً
مضطرباً . قال :

— الأب ياناروس هو ممثل الله في كاستلوس . اصمقي ، وسوف
يتكلم الأب ياناروس . الله سيتكلم من خلال فمه . قليلاً من الصبر
يا خالة ماريورا .

وفي ناحية أخرى كان عم تاناسيس حلاق الصحة يقف بميبدأ وقد
ثارت أعصابه . كان مريضاً متلعثماً خفيف اللحية . أخذ يلوح بكفيه
الواسعين وعيناه تحمقان في القسيس في شعور بالخوف :

— شيطانان تقاسما اليونان . أنا أعرف ذلك . شيطانان عليهما
اللعة : أحدهما أحمر والآخر أسود . لكن الاثنین ليسا يونانيين .
فليخرسني الله يا أب ياناروس إذا لم تكن قد وضعت في رأسك أن تطرد
أحدهما بأن تفتح الباب الآخر . ولكن ماذا عن ذلك ؟ هل تستطيع
أن تقول لي كيف نظرده بعد ذلك ؟ بأي وسيلة ؟ ومتى نصبح سادة
أنفسنا ؟ هل خلت الأرض من اليونانيين حتى نسلم اليونان ؟
وصاحت أصوات عديدة :

— اسكت ! اسكت ! القسيس سيتكلم .

ورسم الأب ياناروس علامة الصليب ، وتسلق المقعد الحجري المجاور لباب الكنيسة وصاح :

— السلام يا أبنائي ، السلام ! لقد وصلت من مكان بعيد جداً .
ليس من قمة الجبل ، لكن من قمة الله . عندي خبر عظيم أقوله لكم ،
فانصتوا . فلست أنا الذي يتكلم ، لكنه الله نفسه . لقد ركبت على بلاط
الكنيسة ، وصرخت في الله أن يشفق علينا . وبكيت وتوسلت . وفي
إحدى اللحظات أضلني الألم فرفعت صوتي على الله . أنا الدودة الصغيرة ،
هدوته . لكن الله أخذته الشفقة بي ، فسمعت من فوق صوت يقول :
« تعال ! »

— إلى أين يا إلهي ؟

— اتبع خطواتي وسوف أرشدك .

« وسار أمامي ، فتبعته كالكلب . واتخذ طريق الجبل وأنا خلفه ،
حق وصلنا إلى معسكر الأنصار ... لا تصرخ ولا ترفع قبضتك
يا مندراس . أنت يا هذا ، لا تحاول أن تهرب من الباب . الله يخاطبك
فاحترمه . أنا الفم ، وهو الصوت . فانصتوا .

« وصلنا إلى معسكر الأنصار ، فتوقف . وفتح فمه ، فلم يسمعه أحد
غيري . كان يلمني وأنا أعيد كلماته وأقولها للأنصار . »

وصمت الأب ياناروس لحظة وجفف جبهته بطرف كفه . كان
يشتمل .. الآن أدرك لأول مرة وهو يتكلم أنه كان يقول الحقيقة ، وأن
الأمر جرت بهذا الشكل فعلا . كان يشعر باللهب يحيط به ، لكنه
يعرف أنه ليس لهباً بل هو الله .

وقال الأب مندراس وقد نفذ صبره :

— وماذا بعد ذلك ؟ أترك الجمل البليغة ولو مرة واحدة . أنت

ترهقنا . ماذا قررت مع رجال البيريه الأحمر ؟ ما هي الاتفاقات التي وصلت إليها ؟ أنا أخاف منك يا أب ياناروس . أنت من نوع ملتهب جداً ، فلا تشعل لنا القرية حريقاً !

وصاحت الأصوات من كل جانب :

— لا تحرق القرية يا أب ياناروس ! لا تحرق القرية !

كانت العاصفة تجتاح الشعب فتدفع أمواجه كأمواج البحر . ولوح الأب ياناروس بذراعيه فهدأ الحشد . وعاد صوت العجوز يتردد عميقاً :

— مباركة يا ابنائى هذه اللحظة التي يصل فيها الشعب إلى حافة

الهاوية ، ويرى أمامه فجأة أعماق الجرف فيمد يده ليتدلق بثوب الله ! وقد مدت كاستلوس يدها فأمسكت بثوب الله ، وهكذا جاء الخلاص .

وعوى مندراس العجوز :

— كلمات ! دائماً كلمات ! تكلم بالتحديد . ما الذي تأمرت

عليه في أعلى الجبل مع ابنك الخائن ؟ اذهبوا وابحثوا عن القومندان ! لقد ضعننا . انصت لي جيداً يا أب ياناروس ! احذر على نفسك إذا

حاولت أن تسلم مفاتيح كاستلوس ! هل تسمعني ؟ هل تسمعوني يا أهل كاستلوس ويا أهل الكفور ؟ هذا ما أقول لكم . لقد سمعتم أحدنا وسمعتم الآخر ، وعليكم أن تختاروا .

— الأب مندراس على حق . نعم ، على حق !

— الأب ياناروس على حق ! نعم ، على حق !

كان الناس جميعاً يصرخون في صوت واحد . والأب ياناروس يلوح

بذراعيه ثم بساقيه حتى تكاد تراه يرقص فوق المقعد . كان يشعر حوله

بالله يشتعل كوقد النار . فماذا يخاف إذن ؟ وصاح ، وروحه تقفز في داخله بعنفوان شديد :

— يا ابنائى ، لقد تخطينا الخوف وأخضعنا الألم . فلننهض إذن !
هل نحن قطيع من الخراف يستسلم لسكين الجزار ؟ فلننهض كلنا معاً !
هذا ما أمرنى الله أن أبلغكم إياه : قفوا !
والتفت إلى كريا كوس ، وكان قد اقترب منه يتأمله فاغراً فمه وعيناه
تبرقان ، وقال له :

— يا كريا كوس يا ابنى . إذهب إلى الهيكل وأحضر لى الإنجيل من
فوق المائدة المقدسة . إنه أيضاً سيأتى معنا .

وصاح الحداد وهو يلوح بمطرقة فوق رأسه :

— ها قد وقفنا جميعاً ! إلى الأمام أيها الفتية !

لكن الأب مندراس شق طريقه وسط الحشد متجهاً إلى بوابة

الكنيسة وهو يصيح :

— ليأت معى كل المخلصين ! لنذهب ونبلغ القومندان ما سمعناه .

الأب ياناروس دبر لنا مكيده .

ووصل إلى بوابة الفناء يتبعه بقية الأعيان وأولاده وخدمه .

واستدار نحو الشعب الذى كان يموج بالانفعال ولا يدري أى جانب

يتخذ ، وصاح :

— إذا كنتم تؤمنون بالمسيح يا إخوتى ، فإن أحداً من المتمردين

لن يظأ أرض هذه القرية ! أما أنت يا أب ياناروس ، فاحترس لنفسك ،

فسوف نسوى الحساب معاً !

واختفى فى خطوات سريعة ، يتبعه أصحابه ، فى اتجاه المعسكر . ومد

الأب ياناروس ذراعيه كأنما يريد أن يحتضن الحشد . كانت الشمس

تسقط على لحيته وشعره المشعث ، والصهد يتصاعد من جمجمته . وصاح :

— إذا كنتم تؤمنون بالمسيح يا ابنائى فانصتوا لى ! عرفت أن

الأنصار كانوا قد قرروا الاستيلاء على كاستلوس هذا المساء يوم سبت
النور . ولم تكن ستبقى فيها قطعة حجر على قطعة حجر . فلم يعد أمامنا
سوى فرصة واحدة ، هي الصلح . الرفاق سينزلون . لكنهم لن يضطهدوا
أحدًا . فقد أقسموا لي أن يحترموا أرواحنا وشرفنا وممتلكاتنا . كانوا معاً
سنحتفل كإخوة بعيد قيامة المخلص . الثناء على اسم الله يا أبناي ! لقد
طلبت كاستلوس الصلح . الله يدبر ويرسم ما لا يدركه البشر . فربما من
هذه القرية المتواضعة يبدأ خلاص اليونان .

وأدار عينيه في الحشد . كانت طيات رداءه الكهنوتي تلتوى على
جنبه كأنها جناحان . وعاد يصيح :

— في هذه الدقيقة ، وأنا أخطبكم يا أبناي ، يقف الله إلى جوارى
تملأه المسرة . لا يراه أحد ، لكنني أراه . أنا خادمه . اطمثنوا ... فالله
قد فتح لنا طريقاً بين الشيطانين الاثنين ، الأسود والأحمر . بعيداً عن
هذين الشيطانين . وهو يعطينا الإشارة : تعالوا !

وسرت رعدة في الحشد . واستطاعت المجازز الخمس أن تلمحن على
المقعد على يمين القسيس ، نوراً ورداء ناصعاً وعينين تبرقان .
وفي نفس اللحظة ، ترددت صرخة رهيبية ، وظهر كريا كوس على
عتبة الكنيسة شاحباً فاقد الصواب ، يكسو وجهه طابع وحشي . وصرخ
وهو يلهث :

— أيها الإخوة ، المذراء تبكي !

وزجر الناس واندفعوا حول كريا كوس يسحقونه في الجدار ، حتى
سالت الرغبة من فمه . كان الحشد يصرخ :

— ماذا تقول يا كريا كوس ؟ قل لنا . هل رأيتها ؟

— إنها تبكي ! رأيتها ! ذهبت أبحت عن حامل الإنجيل . كنت

أمر أمام الهيكل فرفعت عيني .. رفعت عيني لأحبيها ، فماذا رأيت ؟
دمعتين كبيرتين تسيلان من عيني سيدتنا العذراء . إنها تبكي . تبكي .
اذهبوا وانظروا ولا تخفقوني ا اذهبوا وانظروا ا

كان الأب ياناروس قد قفز عن حلي المقعد لينصت إليه . وشق
بمرفقيه طريقاً ليبر إلى داخل الكنيسة . كان يعرف أن كريا كوس
رجل يخضع للخرافات ، ولكن ربما تكون العذراء قد صنعت معجزة
حقاً . ربما كانت تبكي بالفعل عند ما شعرت أن القرية في خطر ؟

وصاح القسيس :

— افسحوا ، افسحوا . لماذا تضحجون هكذا وتهملقون بعيونكم ؟
إنها أم قبل كل شيء . ولا بد أن تتألم من أجل أبنائها وتبكي . افسحوا ا
وعوى أهل القرى :

— زيد أن زرى ا زيد أن زرى ونلس ا

وأزاحت كروستالينا العجوز الشال الأسود إلى الخلف وصرخت

بصوت هستيري :

— أيتها العذراء البتول ا أنا مثلك أم . أريد أن أشرب دموعك

ليبرد صدري ا

وأطلقت في تلك اللحظة صرخة ضعيفة وفقدت الوعي . ورفعتها
العجائز الأخريات رفيقاتها : لا كيريا ماريجو ، وكريستينا ، ودسبينا ،
وزافيرو . وبدأن العويل هن أيضاً . ووصل الأب ياناروس إلى عتبة
الكنيسة . ومد ذراعيه وضغطهما على جانبي السلم . وقال بأمرهم :

— قفوا . لن يدخل أحد . ستحطمون لي كل شيء ، كراسي

الكنيسة وحاملات الشموع وقبر المسيح . انتظروا هنا ، وسأحضرها إليكم .
لكن الحشد لم يكن يسمع شيئاً .

— المعجزة ! المعجزة ! نريد أن نرى المعجزة !

واهتاج الأب ياناروس ، فصرخ :

— أى معجزة ؟ ليست هذه معجزة . لا تصرخوا هكذا . لو لم

تبتك المذراء وهى ترانا نسقط فى المجاعة ، لكان هذا معجزة . أقول
لكم قفوا ولا تتدافعوا . هيه يا أندرياس ، أوقف الحشد ولا تدع
أحدأ يدخل .

ومرق الأب ياناروس إلى الكنيسة ، وقلبه يدق . لم تكن هذه
أول مرة يرى فيها معجزة ، لكنه لم يتعود على ذلك . وأخذ يرتعد . كان
يفضل ألف مرة أن يرى أسداً ينتصب أمامه ولا يرى معجزة . لأن وراء
المعجزة ، يكون الله . الله يهبط من السماء فى المعجزة . ولهذا لم يستطع
الأب ياناروس أن يحتمل الآلهة الرهيب . تقدم وركبته تصطكان .
كان يقول لنفسه : أنا ذاهب أرى سيدتنا المذراء . ستكون قد هبطت
من الأيقونة ووقفت على أرض الكنيسة أمام الهيكل تبسكى . كيف
أواجهها ، وكيف أمسك بها وأرفع جسدها المقدس لأحمله إلى شعبها ؟

وخلال النافذة كانت بعض الأشعة المتفرقة تسقط فى المحراب ، وقبر
المسيح المذهب يبرق فى رقة ، والزهور البرية القى انتثرت فوقه تفوح
برائحة ضئيفة . وكان الحشد من خلف الأب ياناروس يتدافع فى أمواج
متلاحقة فى الساحة الأمامية للكنيسة ، يحاول أن يزيح أندرياس لينتشر
داخلها . وشعر الأب ياناروس بأنه يستمد الشجاعة من ضجيج الناس .
فأخذ يتقدم على أطراف قدميه وعيناه مثبتتان على الهيكل . وفجأة توقف
وكنتم أنفاسه . فقد رأى فى المحراب ومضة ضوء أزرق أبرقت فمزقت
الظلمة . وغاصت ركبته ، وجفت شفاته ، وأخذ يتهته بصعوبة :

— النجدة يا سيدتنا ، لا تعشى بصرى .

ثم أضاف :

— أراك ، أراك ، وأفقد النور !

ومد يده يتعلق بأحد الكراسي لكنه لم يجد الفرصة . فقد استطاع الحشد الهادر أن يغلب أندرياس وأن ينتشر في الكنيسة . . وتحول قبر المسيح إلى حطام ، وسقط المسيح أرضاً . وحاول كريبا كوس أن ينحني ليلتقطه ، لكن الشمعدان وقع عليه فانبتق الدم من رأسه وسال على شعره القدر . ومع ذلك لم يتألم كريبا كوس ، بل رفع يده نحو الهيكل وهو يصرخ :

— انظروا أيها الإخوة ، انظروا الدموع تسيل !

وتوترت أذرع الجميع ، ورأت كل العيون بكاء العذراء . وإذ ذاك ركع الحشد . وانثنت السيقان فارتفع من بلاط الكنيسة صوت ارتطام الركب الثقيلة . وجفأة تضائل الضوء ، وهدر الرعد ، وغطت السحب السماء . وفي ضوء الكنيسة الضعيف ، كانت وجوه القرويين تلمع كالجماجم الهزيلة ، لا يظهر منها سوى عظم ، وعيون رهيبة غائرة .

ونزل عليهم سكون ثقيل ، تردد فيه واضحاً صوت دقات القلوب . وبعد ذلك عاد الضجيج يرتفع في اختلاط . كان بعض الناس يبكون ، وبعضهم يتمرغون على الأرض ويطلقون الصراخ المستيري ، وآخرون رفعوا رؤوسهم وبدأوا يرتلون في جنون وبطريقة تلقائية :

— يا رب انقذ شعبك ...

وأخذ كريبا كوس يضحك ويبيكي في نفس الوقت كأنما أصابه الجنون ، وقد تلمخ وجهه وعنقه بالدم . ووقف الأب ياناروس ينظر إلى الأيقونة ويحرك جفونه دون أن يتكلم . كان قلبه مقبوضاً وحلقه مختنقاً ، حق لم يعد يستطيع أن يتنفس . وتقدم خطوة أخرى إلى الأمام ،

واقترب نحو السيدة العذراء إلى حيث يمكن أن يلمسها ، وشد جسمه على أطراف قدميه وأصق شفثيه بعينها ليقبلاهما . لكنه تراجع على الفور يائساً : لم يشمر على شفثيه بأى أثر للبلبل . وقال لنفسه : « ليس عندي إيمان ، ليس عندي إيمان . أنا لا أرى . الجميع يرون ، لكنى لا أرى . »

وفكت الأمهات الخمس اللاتي يلبسن ثياب الحداد تلفيماتهم السوداء وأسرعن نحو الأيقونة . وتخابطن أمام الهيكل وهن يطلقن صرخات حادة . كانت كل واحدة تريد أن تصل إلى السيدة العذراء قبل الأخريات . واستطاعت كروستالينا المعجوز بالضربات الكبيرة والمواء أن تمرق أمام الأخريات وأن تمد تلفيمتها لتجفف عيني العذراء . ثم عقدت عقدة على الدموع ، وأخفت التلفيعة في صدرها .

وصاحت المعجوز الثانية وهي تمد منديلها هي أيضاً لتسمع عيني العذراء :

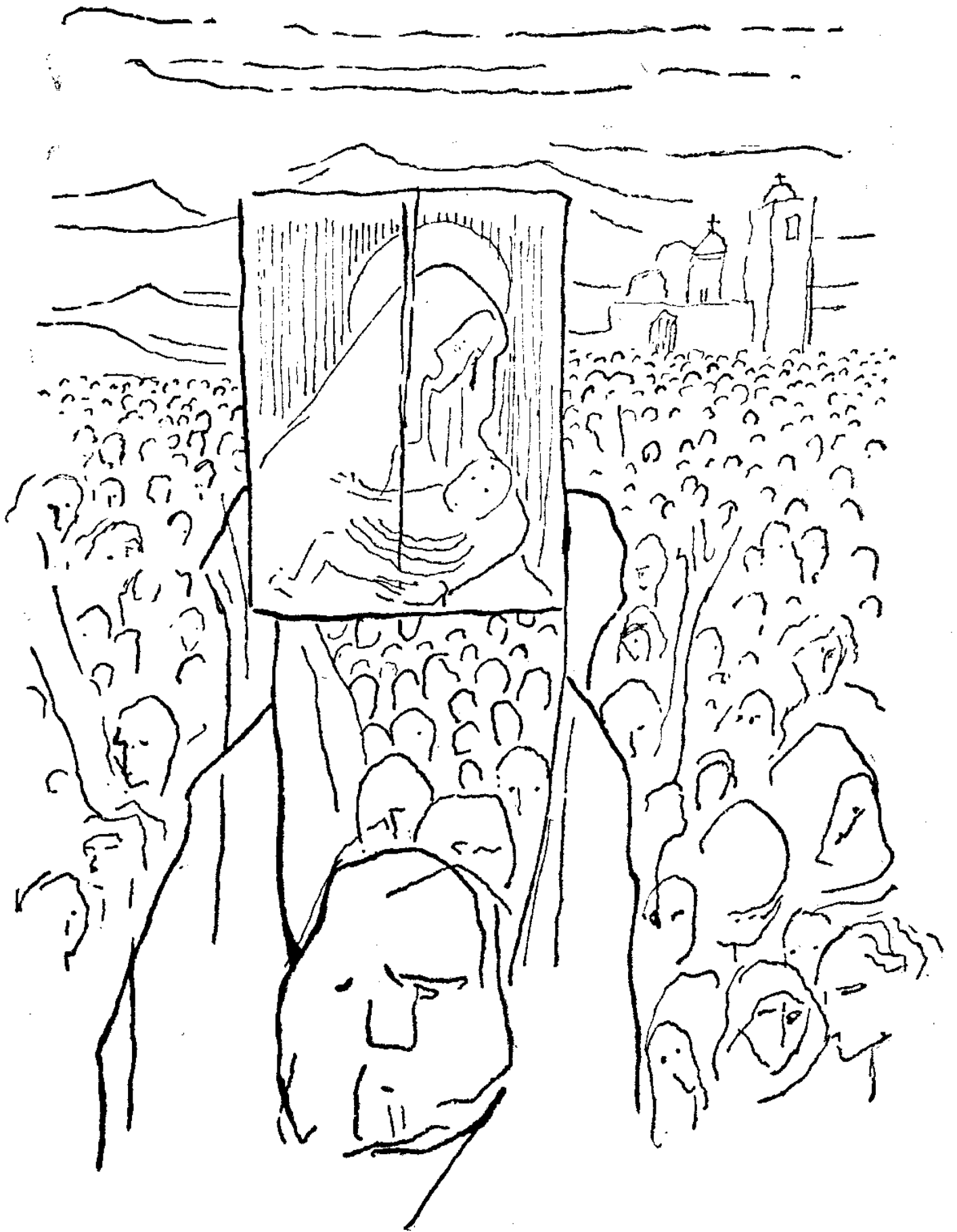
— امتلأت عيناها بدموع جديدة ! أيتها العذراء البتول ! دموعك لا تفرغ ! لا تصرخن أيتها النساء ، ولا تتضاربن ، فهناك ما يكفي للجميع . كانت الحرارة قد أصبحت غير محتملة ، والعرق يتصبب على الأعناق ، والهيكل المصنوع بطريقة رقيقة يهتز أمام اندفاع الحشد ويرتفع صريره . وشعر الأب ياناروس بالخوف من أن يتلفه الحشد ، فقفز فوق مقعد صغير لينزع الأيقونة . وصاح وهو يرفها بين ذراعيه :

— يا أبناءى ، دقت الساعة . فلنتقدم باسم الله ؟

وتعالت الصيحات من كل جانب .

— فلنتقدم العذراء أمامنا . وحيثما تقودنا نقتبها !

وصاح الأب ياناروس وهو يرفع الأيقونة الثقيلة إلى أعلى ما يستطيع :



— افسحوا الطريق ، افسحوا الطريق يا أبناءى . دعونى امر . أنا
أشعر بالعدراء تجرنى وراءها . فهى على عجل .
وسأل بعض الرجال العجائز .

— إلى أين نذهب ؟

ذلك أن صوت البوق تردد فى تلك اللحظة من ناحية المعسكر ، فبدأ
الخوف يوقظهم من نشوتهم المقدسة .

وأجاب الأب ياناروس وهو يترنح تحت ثقل العدراء :

— لست أنا الذى أقودها يا أبناءى ، لكن هى التى تجرنى . أقسم

على ذلك . هى التى تجرنى ا فاتبعونى ا

وخرج إلى عتبة الكنيسة . كانت الشمس قد انحدرت من السمات .

وعادت سحب سوداء أخرى تكسو السماء ، وقطرات كبيرة دافئة من

المطر ترتطم بوجه سيدتنا . وإذ ذاك ازدادت القطرات التى تذرّفها عيننا

العدراء ، وبللت كل شفيتها وذقنها . ولم يمد القسيس يتساءل فى ذلك

الوقت عما إذا كان هذا الببلل من الدموع أو من المطر أو مجرد وهم . .

كان يشعر بقوة كبرى تفيض من الأيقونة وتسيطر على ذراعيه وركبتيه

وكل جسمه . قوة خارقة ا شعلة من الفتوة ا

وهمس وهو يرسم علامة الصليب :

« ليغفر لى الله . أنا أومن تماماً بأنى لو بسطت رداى الكهنوتى

لاستطعت أن أطير ا فماذا يكون هذا المعسكر أو القومندان أو الجنود

والأنصار ؟ ليسوا سوى أشياء تذرّوها الرياح ا »

وعاد يمسك العدراء بذراعيها ليدير وجهها فى اتجاه المعسكر . وخلفه

يتقدم الحشد صاحباً . واهتزت الأيقونة بين ذراعى العجوز . وجرى

خمسة أو ستة من الشبان ليمسكوها بأيديهم . وأسرعوا إلى الأمام . لم

يكونوا حقا يرفعون العذراء لكنها كانت ترفعهم . ولحق بهم فتية آخرون
ليأخذوا دورهم أيضا . كانت القطرات تتصبب من سيدتنا ، وهي تبسم
بوجهها المشقوق وتهتز كالبارجة الحربية على أمواج بحر من البشر
يتخابطون ليرفموها .

وانفتحت أبواب البيوت ، وخرجت النساء منفوشات الشعور .
كن ينظرن إلى وجه العذراء مبللا بالدموع ، فيصرخن ويأخذن في
البكاء هن أيضاً . والأولاد ذوو البطون المنتفخة المخضرة والسيقان
العظمية يتسابقون ليلحقوا بالحشد وهم يقرعون الأرض بالعكاكيز .

كان هذا يوماً لطيفاً من أيام شهر أبريل . ذرفت السماء ماءها ، وانتثرت على الصخور والأدغال والأرض قطرات في لون الذهب ، وبدأت الظلال تزحف في ببطء على أسفل الجبل ، وانقشع السيل المنهمر ، وفاحت رائحة الأرض المشبعة بالماء ، وارتوى النبات .

وكانت سيدتنا تبرق بين أذرع الحشد كأنما استقر كل النور المتلاشي من السماء في تاجها الذهبي وفي خديها الشاحبين النحيفين . وإلى جانبها كان الأب ياناروس مكشوف الرأس يدق الأرض بمخدائه الثقيل وقد شمرد رداءه . وخلفها يهدر الشعب .

وعند مفترق الطرق قبيل المعسكر ، استدار الأب ياناروس رافعاً يده . وتوقف الزحف الحربي .

قال :

— اسمعوا صوتي . لقد أتينا لنتصالح ، لا لنحارب . كفانا ما أريق من دم . فاحفظوا أيديكم نظيفة . رئيسنا ليس قط قومنداننا يحمل سيفاً

كبيرا خلف ظهره ويضع على صدره شريطين أو ثلاثة . رئيسنا العذراء
مريم . إني أرفع يدي لأصيح : أيتها العذراء مريم ، امنحى قلوبنا الرقة
والسلام ! وامنحيهما قلوب معارضينا أيضا ، وامنحيهما قلوب العالم !
باسم ابنك المصلوب !

وقطعت خطابه صرخة متوحشة :

— أيها الخونة البلاشفة ! سوف ترون . . .

وانقض القومندان على الحشد كالمجنون ، عظامه بارزة وشاربه كثيف
وعيناه تملئان بنظرات قاتل . وجاء خلفه الجاويش ورجاله ثم مندراس
تحيط به جماعته . أما الأعيان الثلاثة الآخرون ، وهم الحاج وستاماتيس
والأب تاسوس ، فقد وقفوا لصق جدار المعسكر يتابعون الشهيد من بعيد ،
ويرتعدون وجفونهم تتحرك .

وطرقت القومندان بسوطه وهو يلحق بالحشد في خطوتين اثنتين .
كانت الرغبة تسيل من فمه :

— ماذا تريدون يا كومة الأقدار ؟ إلى أين تذهبون من هنا ؟

ولم يجب أحد . كل ما حدث أن العجايز الخمس نزعن تلفيعاتهن
السوداء وأخذن يلوحن بها في الهواء .
وصاح القومندان مرة أخرى :

— ماذا تريدون ؟ أجيبوا على السؤال الذي يوجه إليكم . أنت أيها

القسيس ، يا صوت الأنصار ، هل أصبحت أخرس ؟

الهدوء الذي يسبق العاصفة . لم تكن تسمع في ذلك الوقت سوى
قرعة الأدوات يحطها الرجال على الأرض : الفئوس والمعاول والمناجل
والمذاري .

وشعر القومندان في ومضة سريعة أن عقله يهتز ، وأن كل ما يراه

أمامه ليس سوى حلم أو كابوس . ماهذا البحر العارم من الجماجم الصفراء
يزحف عليه ويحمله في وجهه بآلاف الثقوب السوداء ؟ وأدار رأسه
فرأى خلفه الجاويش ورجاله متكئين في وضع الاستعداد والبنادق اصق
خدودهم في انتظار إطلاق النار . وعاد قلبه إلى صدره .

وارتفع صوت الأب مندراس يسرع :

— ما الذى يمنعك من تشغيلهم يا سيدي القومندان ؟ لا بد من
الضرب . اقتل القسيس ! اسمع ما أقول لك . اقتله . وبعد ذلك
يتفرق الجميع كما تذر الرياح أوراق الخريف . يجب قتل الأفعى
من رأسها .

وخرج الأب ياناروس من الحشد بصيح :

— المحبة ، المحبة ! يا ابني ، نحن لم نحضر لنلحق بكم سوءاً ، بل
حضرنا لنحتفل بالصلح . فلا تقاومنا ، لأننا نريد أن نكون إخوتك !
لا تنشر الدم أمام العذراء وتحت عينيها !

وظهر على عتبة المعسكر فجأة جنسدى شاحب الوجه يضع نظارة على
عينييه . وتوقف مشدوهاً يقول لنفسه : « كم هي حرفة كريهة ! كم هي
كريهة حرفة الحرب ! » لم يطاوعه قلبه على اجتياز الباب . عادت إلى
روحه حديقة عميقة ، في زانق ، في جزيرته ، بعيداً جداً في آخر العالم .
كان ذلك في شهر أبريل والأشجار تزهر وهو يتنزه ويلعب الجيتار . .
لكن فجأة اختفى كل شيء : الأشجار والأزهار والجيتار . كان الجاويش
يعوى بصوت هائج :

— هيه ، هناك ! نيونيوس ، ذو النظارة . ليس هذا وقت

الحملة في الغربان . احضر هنا بسرعة !

وعاد الأب ياناروس يردد وهو يسير نحو القومندان مكشوف
الرأس بلا سلاح ، وذراعه ممدودان كأنما يسأل الصدقة :
— المحبة ، المحبة !

وعوى القومندان رافعاً يده :
— النار !

وارتفع صفير الطلقات تمر فوق رؤوس الحشد . كان الجنود قد
خجلوا من إطلاق النار على أناس عزل من السلاح . لكن القومندان
أصيب بالجنون . أخذ يصرخ وهو يطلق مسدسه في المليان :
— أريد أن تمزقوهم جميعاً !

وكان ستليانوس النساج يسير في المقدمة إلى جانب الأب ياناروس ،
فتلقى الرصاصة في جبهته وسقط منكفئاً على وجهه . كان قد قاسى الكثير
خلال حياته ، وها هو الآن يفلت منها .

رجل منتفخ الجسم ، له مظهر أنثوي ويدان لينتان وصوت الدغ كموت
القسيس . كانت زوجته الراحلة — لاليونيا — أجمل فتاة في القرية
وأمر نساجة . لولا أنها فقط ، وايفغر لها الله ، كانت تحب أن تسلي
نفسها . فكانت ديوك المنطقة كلها تجرى خلفها . وفي أحد الأيام وجد
صديقه الحداد أن الأمور زادت عن الحد ، فقال له : « يا ستليانوس ،
إنهم لا يعترفون بوجودك . كل كباش المنطقة تجرى وراء امرأتك .
اطردوها ! » وأجابه النساج : « هل تظنني مجنوناً ؟ كل الناس يريدونها
وأنا وحدي أحصل عليها ، ثم تطلب مني أن أتركها ؟ » لكن في صباح
أحد الأيام ، كانت تمشط شعرها وتغني أمام النافذة ، فإذا بها تسقط
ميتة . وإذا ذلك بدأ زوجها يمارس الحرفة ، وينسج تلفيعات ومفارش

وقمصان يحملها ليبيعهما في القرى . والآن ها هي طليقة رصاص تدخل في
جبهته ، وبعد ذلك لن يكمل نسج قمصانة الأخيرة .

وصرخ الجاويش الروميلي بأعلى صوته هو أيضاً :

— اضربوا في المليان !

هو رجل طيب هادئ ، لا يحب بوجه عام أن يؤذي أحداً . لكن
عندما يرى الدم يسيل ، يفقد رأسه ويتحول إلى وحش ، سواء بدافع
الخوف أو لسبب آخر . وهمس من جديد الجندي ذو النظارة ، نيونوس :
« كم هي كريهة حرفة الحرب » . واهتزت البندقية في يده . « لقد
خلقت أنا للجيتار لا لهذه البندقية اللعينة . » أما الجنود الآخرون فقد
اشتعلوا حماساً ، واندفعوا في الحشد كما أمرهم ، وخلفهم مندراس
وأبناؤه ، يحملون أيضاً بنادق أخذوها من المعسكر .

وارتفع الأنين . فقد سقطت على الأرض خمسة أو ستة أجساد .

وفتح اللنادى كرياً كوس فيه ليصبح : « الصالح ! »

لكن رصاصة أصابته في حلقه وانفجر الدم غزيراً على القميص
الأبيض الذي ارتداه بمناسبة العيد . وسقط معقود الذراعين على مجموعة
من النساء كن يبكين الجرحى . وكرياً كوس ضخم سمين ، له فم واسع
يصل ما بين أذنيه ، وشعر منفوش قدر ينزل على كتفيه . كانت
نفسه قد امتلأت بالرغبة في أن يصبح قسيساً ، فأرسل شعره . لكنه لم
يفسله أبداً ، لأنهم أقنعوه بأن القذارة تغذيه . والآن ضاعت القذارة
بلا جدوى .

ورأى ديمتريس ، خفير قرية براستوفا ، كرياً كوس يسقط . فصرخ
بصوت يشبه خوار الثور . فهو ابن عم كرياً كوس . ثم ان هذا كان قد
وعده بأن يجعله قواساً حين يصبح هو قسيساً . فهنة الخفير مهنة مرهقة ،

أصابت ساقيه بالمرض . لكن ها هو يفقد صديقه ، يفقد كل أمل في إصلاح حياته . وأفقدته ذلك صوابه ، فسحب مسدسه وأطلقه على أبناء مندراس الدين وجددهم بالمصادفة أمامه . وتلقى الرصاصة أصغرهم بافليس . أصابته في قلبه تماماً فلم تترك له لحظة واحدة يقول فيها : آه ! وانزاق جسده إلى الأرض في هدوء شديد وبلا صوت . كان قد اشترى في الأيام الأخيرة فرساً سوداء في جبينها غرة بيضاء . فهو يحب فتاة اسمها كريسولا ، ابنة أخت الأب ستاماتيس . كان يتبخر بفرسه أمام منزلها .. ولكي يرضيها ، أرسل شعره حتى حاجبيه معقوصاً أسود اللون . وفي هذا الصباح نفسه ، أخذ يلف ويدور أمام نافذتها . فأطلت الفتاة ، ورأت الشارع خالياً ، فألقت إليه بمود قرنفل كانت قد سحبتة من فوق قبر المسيح في الكنيسة . والتقطه الشاب في الهواء ووضعته خلف أذنه . وظل عود القرنفل خلف أذنه وهو يرقد على الأرض وعيناه في شكل الزجاج .

كان الليل يهبط ، فهرب ضوء النهار إلى قمة الجبل ، وقفز بعد ذلك إلى السماء ثم اختفى . ولم تعد تشرق في ظلال الغسق سوى العيون المتوحشة في وجوه أهل القرى .

وأعمت الدموع عيني الأب ياناروس . كان يجري نحو الجنود حيناً ، ونحو رجاله حيناً آخر ، يتضرع ويتوسل : « لا دماء ، لا دماء ! » لكن الشياطين كانت قد انفلتت . والدم يجر الدم . والآن أصبح الجنود والفلاحون يتحاربون جسداً بجسد . حتى النساء تسلحن بقطع الحجارة ليصرعن بها الخصوم .

وعاد القومندان يصدر أوامره :

— اطلقوا النار !

وأخذ يصب مسدسه نحو الأب ياناروس الذي أصابته في ذقنه قطعة حجر خضبت لحيته بالدم . لكنه لم يجد الوقت ليطلق الرصاص ، فقد انقض عليه أندرياس ، وتدحرج الإثنان على الأرض .

وزجر الحداد وهو يسحقه بكل ثقله :

— يا جزارا ! الدور الآن للحملان . سأذبحك .

واستجمع القومندان كل قواه يحاول أن يخاص نفسه ، لكن أندرياس أمسك به من رقبته ورفع سكينه إلى أعلى . وترددت صرخة حادة وارتدت على القومندان امرأة تغطي جسمه . كانت تضع على شعرها شريطاً أحمر معقوداً . وأخذت تتمم وعلى تبيكي :

— عزيزى سوفكليس ، عزيزى سوفكليس !

وكان أندرياس مندفعاً بكل قفزه فلم يستطع أن يسحب سكينه ، فانغرس في قلب المرأة البائسة . وتدحرجت على الأرض عند قدمي القومندان . وحركت شفيتها في اختلاجة أخيرة ، واستطاعت أن تقبل حذاءه ، ثم أسلمت الروح .

وصاح من ناحية الجنود واحد منهم يقول :

— القومندان قتل ! القوا السلاح !

كان هذا هو سترانيس الذي قذف بندقيته بعيداً . لكن الجاويش أسرع لينزع القومندان من يدي أندرياس ، وكان قد عاد يمسك به . وتضارب الإثنان في هياج شديد . وكان الدم يسيل من وجه القومندان وذراعه . وكسرت ركبته عندما تلقى عليها قطعة حجر كبيرة ، فلم يعد يستطيع أن يقف .

وارتمى الأب ياناروس ليأخذه بين ذراعيه . وصاح وهو يغطي

بجسمه :

— أنا مسئول عنه !

ووصلت ثورة الحشد إلى ذروتها ، وفاضت كأنهر الهادر لخطمت
الحواجز الأخيرة . واستطاعت الفئوس والمعاول والناجل أن تحاصر
الجنود الذين استمروا في المقاومة ، وأن تدفع مندراس ومجموعته إلى
التقهقر إلى جدار المعسكر وأن توقف حركتهم .

واستقرت العذراء على عتبة المعسكر يحملها رجلان عجوزان . كان
وجهها يتجه نحو المتقاتلين وعيناها في بصيص الضوء تبرقان كأنما تمتلئنان
بالدموع حقاً . وصاح الأب ياناروس في مندراس :

— سلم نفسك يا مندراس . لقد سالت دماء كثيرة . والله شهيد على
أني لم أكن أريد هذا .

وأخذ الأب مندراس ينوح ويمسح عينيه قائلاً :

— أنت قتلت ابني بافليس ، أيها الغراب اللعين !

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك ، وانفجر باكياً .

داهمتهم موجة كبيرة . هزمتهم وأسرتهم ونقلتهم جميعاً إلى فناء
المعسكر . الجنود والأعيان في كومة واحدة . وتقدم الأب ياناروس من
القومندان وأنهضه وأحضر له ماء وغسل جروحه وأرقدته برقة في أحد
أركان الفناء .

وقال له :

— لا تتألم يا عزيزي القومندان . سينتهي كل شيء على مايرام بعون

الله . إن ما حدث قد حدث . لكن شقاءنا قد انتهى .

والتفت نحو رجاله قائلاً :

— احضروا حبلاً واربطوهم . لكن لا تضربوهم . إنهم إخوتنا .

هم لا يزالون ينكرون ذلك ، لكننا ندركه . اربطوهم كي لا يتمكنوا
من عرقلة الصلح . وأخيراً بعد ذلك ، سنطلق سراحهم خلال هذا المساء .

أقسم بالروح التي سأعيدها إلى خالقها . سنطلق سراحهم جميعاً . أقسم
على ذلك .

ورفع القومندان رأسه التي ينزف منها الدم ، وصرخ :

— يا خائن !

وبصق عليه .

وقال الحداد وهو يشد الرباط حول الأعيان والجنود :

— ما دمتم لا تريدون أن تكونوا أحراراً برضائكم ، فسنجعلكم

أحراراً رغم أنوفكم .

مرة أخرى ، تصدرت سيدتنا العذراء موكب السير وخلفها الشعب
الثائر . كان الليل قد أرخى سدوله تماماً ، وتدلّت النجوم الأولى من
السماء . وسار الأب ياناروس وقلبه يدق مفعماً بالسرور والراحة ،
يقول لنفسه :

« هل يأتي هذا السرور وهذه الراحة من حديثي مع الله أم من
نشاطي مع البشر ؟ اغفر لي يا رب . بل هما نتيجة نشاطي مع البشر .
هذه هي الصلاة الحقيقية . فلست أشعر مع الله إلا بالتمرد والخوف . »
وتذكر هؤلاء الذين سقطوا ، فتهد وهمس : « لا أعراس بدون
ذبايح . فليمنحهم الله الراحة ! »

ودخل الأب ياناروس الكنيسة . وشعر بقلبه يقفز من صدره .
ها قد بدأ يتحقق ذلك الحلم الذي داعبه منذ وقت طويل . سوف ترى
كاستلوس الإخوة المتصالحين يتعانقون . والمسيح سيقوم بالطريقة

الوحيدة التي يتمنى حقاً أن يقوم بها : في قلب الإنسان . وتصور الأب
ياناروس نفسه بالفعل يرحل في الفجر ، غداً . وتصور جولته في القرى
المجاورة واحدة بعد أخرى ، يحدث القساوسة والأعيان والشعب ،
ويحكي لهم ما فعلوه هنا في كاستلوس ، وكيف أصبح كل شيء هادئاً .
وكيف أن طريق الحب أفضل .
وقال لنفسه :

« سأتحول إلى مناد لله . أليس هذا ما فعله القديس يوحنا في
الصحراء ؟ كان ينادي ، وينادي . وبكل رقة بدأت الصخور تسمع .
نبتت لها آذان . واهتزت وعانق بعضها بعضاً ، ونشأت فيها كنيسة
المسيح . »

واستدار إلى أيقونة المخلص على عيني الهيكل :

— اغفر لي يا رب . في إحدى اللحظات فقدت شجاعتي . فلست
سوى إنسان كما تعلم . إنسان من طين وهواء . في البدء اعتقدت أنك
لا تهتم بالبشر ، وأنت تنظر بعين اللامبالاة إلى الظلم والاندفاع . إذ كان
يكفي أن ترفع اصبعاً صغيراً فتنقذنا ، لكيف لم ترفعه . ثم بعد ذلك
— ويا للأسى يا إلهي — انعمت أكثر فأكثر في الخطيئة . فالألم كان
يضلني ، اغفر لي . أما الآن ، فأنا أفهم . أنت خير . أنت تترك الناس
يذهبون حق عتبة الجحيم ، لأنه هناك يوجد الخلاص . فربما من عتبة
الجحيم يفتح باب الفردوس ؟ ألم توفق بيننا في هذا المساء ، في نفس
اللحظة التي كانت المذبح ستنتشر فيها ؟

وشعر بصدرة ينتفخ حلاوة ، والطريق يفتح أمامه ، والجناحان
ينبتان في كتفيه . واستعاد سنواته العشرين . وانحنى على صورة المسيح
المصلوب يقبله على المائدة المقدسة . وقال مخاطبه :

— يارب . أنت تعلم أنى لم أطلب منك أبداً أن تؤجل موتى ،
لكنى اليوم أطلب منك هذه المكرمة . دعنى أعيش لأتم عملى ، وبعد
ذلك ارسل لى قطعة حجر أو طائراً يأخذ حياتى ...

واستولى عليه انفعال الفرح وهو يتوقف أمام باب الهيكل قائلاً :

— يا أبنائى ، اصبروا . فى هذه الساعة يهبط إخوتنا من الجبل .
وسوف نحتفل معهم بالقيامة . لقد سكت المدفع — صوت الشيطان —
سقطت الروح الشريرة فى الهاوية ، وانتصر الله . وسوف ترون القيامة
التي سنحتفل بها كيف تكون ! الشموع ستضاء من نفسها ، والمسيح
يخرج بنفسه من القبر . وفى القبة فوق رؤوسنا سوف يبتسم خالق
الأشياء . ماذا قلت لكم ؟ ألا تصدقوننى ؟ إن روح الإنسان قادرة على
كل شىء ، لأنها لفحة من أنفاس الله . قادرة على كل شىء ، وحررة .
طريقان مفتوحان أمامنا : المذبحة والحب . والله تركنا أحراراً نختار .
فاتخذنا طريق الحب ، ورضى الله . ألا تشعررون جميعاً فى نفوسكم بالله
ينتفض سعادة ؟ هذه هى إشارته إلى ابنه : « اتخذ البشر الطريق السليم
وأدركوا النور ، فانفض يا ابنى الوحيد من قبرك ! »

وجأة تردد من ناحية الجبل أثناء كلام العجوز صوت وقع أقدام
ثقيلة ، وأحجار تتدحرج ، وطبلة تقترب وتدق بنغمة فرحة سريعة .
وصاح بعض الفلاحين الذين جاءوا يعلنون الخبر وهم ياهثون :
— ها هم يصلون ! ها هم يصلون ! فليساعدنا الله !
واستدار كل أهل القرى نحو الباب ، وأخذت كل القلوب تدق
بعنف فى كل الصدور .

كان الأب ياناروس قد ارتدى رداء كهنوتياً خاصاً مطرزاً يحتفظ
به للأعياد الكبيرة ، ولف البطرشيل حول رقبته ، ووقف أمام باب

الهيكل ينتظر وقد احمر خداه فرحاً وأضاء وجهه . يقول لنفسه : « ها هي
قبلة السلام ! »

وأخذ رجال البيرية الأحمر يهبطون ويقفزون فوق الصخور
وينزلقون على قطع الحجارة ، يضحكون ويقفزون بكل ما فيهم من قوة .
كانوا يشبهون قطيعاً من الذئاب ، تبرق عيونهم في الظلام .
وارتفع صوت منهم :

— هيه أيها الفتية . حق مق جانينا وسالونيكاً وأثينا ؟

وتردد صوت مسرّع لشاب مراهق :

— وروما وباريس ولندن لا تنسوا أيها الفتية أننا لم نملك

سوى بداية الحبل .

كان الكابتن دراكوس يهبط معهم ، ويشعر في نفسه باضطراب
شديد . روحه تقفز بين صدغيه كما تقفز الفريسة التي تمزقها الكلاب .
لم يكن يستطيع أن يطرد من ذاكرته الكلمات التي تبادلها مع الضابط
لوكاس . وقال لنفسه :

« لو كنت خبيثاً لما تكلمت . لكنني ولدت في بيت مكشوف .

أتكلم وأترك الكلمات تسقط مطراً . فرأسي لم توضع في المكان الصحيح
بين كتفي . وأشعر أن الناس سيقولون في يوم من الأيام : « هذا الكابتن
المسكين أصابه شيء ما ، فليأخذ الله روحه ! » . لو كنت خبيثاً لما
تكلمت . أما الآن فيجب أن أستسلم أو أن أرفع رايتي الخاصة . لكن
السكوت عار ، والاستسلام عبودية . ثم أنني لست من القوة بحيث أدخل
في انشفاق معهم . فكل الطرق مسدودة في وجهي . »

كان لوكاس يمتليء سماً ، ويمشي إلى جانبه ، لا يتوقف عن الكلام .

يطلقون عليه اسم « القزعة » . وهو نحيل الجسم خبيث . لكن عندما

تدق ساعة القتال ، يلف جهته بمنديل أحمر ، ويمسك بين أسنانه سكيناً ويندفع إلى المعركة دون أن يلتفت قط خلفه ليرى من يتبعه . ثم يعود من الاشتباك وقد أصبحت عيناه وروحه وملابسه تقطر كلها دماً . والآن ، ها هو يمشى إلى جانب الكابتن وأسنانه تصر غضباً . كان الاثنان مشتبكين في مشاجرة حادة ، يتكلمان بصوت منخفض حتى لا يسمعهما الرفاق ، لكن كلماتهما كانت أشد نفاذاً من الحناجر . قال لوكاس بصوت يصفر بين أسنانه :

— يدهشني يا عزيزي الكابتن كيف دخلت الحزب . فالحزب يتطلب أن يطيع الإنسان دون أن يوجه أسئلة .

وأجاب الكابتن بلهجة تفيض مرارة :

— أنا لا أوافق على أن أحرر الآخرين دون أن أكون أنا حراً . واجبنا أن نحمل العدالة ثم الحرية . وهذا ما فعلته في كل القرى التي مررت عليها . لا أستطيع أن أتأمل الظلم في سكوت . فأنا أبدأ دائماً بإرساء النظام والعدالة .

— لكن الشيوعى الحقيقى يحتفظ بإيمانه حتى أمام الظلم . إنه يقبل الظلم بل ويفضله ، إذا كان هذا الظلم مفيداً لمخططاتنا . فكل ما يمكنه بالنصر النهائى يكون حسناً .

ورد عليه الكابتن ثائراً :

— هذا ما سيؤدى إلى خسارتنا ! هل الغاية تبرر الوسائل ؟ هل نقبل الظلم إذا كان يؤدى إلى الحرية ؟ هذا شيء يحطم القلب . لكن صدقنى أننا بهذه الأساليب نحرب الايديولوجية . لقد بدأت أفهم الأمر منذ فترة . فالوسائل التي نستخدمها تلوث الغاية التي نقتربها . ذلك لأن الغاية ليست ثمرة ناضجة تتدلى معلقة في نهاية الطريق تنتظر حضورنا

لنقطفها . لا ، وألف مرة لا ا الغاية ثمرة تنضج مع كل فعل من أفعالنا ،
وتكتسب طعمها من كل فعل من هذه الأفعال والطريق الذي نختاره
يعطى هذه الثمرة جمالها وشكلها ومذاقها ، ويملاها بالعسل أو بالسم .
معنى ذلك أنه إذا استمر سيرنا في الاتجاه الذي سرنا فيه ، فقل علينا
السلام ، وطى الحزب السلام . أقولها لك بلا مواربة ، وتستطيع أن
تنقلها لمن تشاء إذا كان في ذلك ما يرضيك . لن يستطيع أحد أن يغير
فكرتى . لكنهم يستطيعون تصفيقى فى أى وقت . وإن أكون أول من
يتقرر تنزيله من المسئولية لأنه قال رأيه بحرية . وقد قات لك مراراً
وتكراراً أن الموت لا يخيفنى .

ومد يده يبرم شاربه ، وقال مزجراً :

— إنى لم أشعر بالخوف من الحياة ، فكيف تتوقعون أن أخاف
من الموت ؟

ونظر إليه لوكاس بطرف عينه ساخراً :

— لقد دخلت الحزب وقلبك يتلى بالأفأعى . فالـكافح الحقيقى
لا يوجه أسئلة ، لكن يكافح . أنت تسمى ما تقوله أسئلة ، لكنى أسميه
أفأعى . توجيه الأسئلة والمناقشة وإصدار القرارات ، هذه مهمة القادة .
أما نحن فنلتقى التـكليفات وننفذها . بهذه الطريقة نكسب الحرب . فى
أحد الأيام سألوا أحد الشيوعيين الروس : «هل قرأت ماركس ؟ فأجاب :
لا ا الأمر لا يحتاج إلى هذه المشقة ، فقد قرأه لينين . » هل فهمت
يا عزيزى الكابتن ؟ . لهذا السبب انتصرت الثورة البلشفية .

ونظر الكابتن إلى ضابطه نظرة جانبية وانتفخ صدره :

— لا أظن أنك ستبدأ فى القيام بدور المدرس ؟ هيهه ؟ إن
ما أعرفه أنا ، هو أن الطاعة العمياء تصنع عبيداً .

وقال القزعة وهو يسرع ساخراً :

— هل تريد أن تخلق حزباً مقسماً .

— ربما . سوف نرى .

— وما هي وسائلك ؟

— وسائلى هي ما أملك التصرف فيه .

وشد الضابط على قبضتيه ، وقدحت عيناه شرراً :

— من المستحيل أن تكون محل ثقة يا كابتن دراكوس . هذه

ليست المرة الأولى التي ترفع فيها رأسك . فقد قمت في أحد الأيام بتقييد

قائد السفينة التي تعمل بها بالسلاسل الحديدية ، وأمسكت بالدفة بدلاً منه .

— وبذلك أنقذت المركب . فالقائد كان مخموراً فاقد الوعي وكان

سيقودنا إلى الفرق .

— ومنذ ذلك الوقت ، بالغت في قوتك . ولكن هذه المرة يا عزيزى

الكابتن ، سيجعلونك تقيء دماً .

— أنا لم أبالغ في قوتي . لكنى تعلمت أن أتحمّل مسؤولياتى والـ

أخشى أى تهديد .

وارتفع الهياج الشديد إلى عينيه حتى أصبح يرى الأشياء أمامه في

لون أحمر ، وزجر قائلاً بصوت منخفض :

— أنت تهددنى ؟ أنت تنظر إلى وتضحك في كحك وتتخيل أنى

لا أعرف آخر الأخبار ؟ لقد حضرت الداعرة ونقلت لك الرسالة .

لكنك تستطيع أن تبذل محاولاتك المستمرة لتخلق لى شاربى ، ولن

تستطيع أن تلمس هذه الأشرطة .

وسحب الضابط من حزامه سكيناً بيد سوداء وقال :

— فلندسرع في السير يا عزيزي الكابتن ، فمن الممكن أن نسمعنا
الآخرون .

وسار الاثنان بحفاة ليلتعدا مسافة كبيرة عن الجنود . ورجأة زجر
درا كوس وهو يمسك ذراع رفيقه :

— اخفض مخالبك ا إن ساعتي لم تأت بعد . أنا أعرف أنني إذا لم
أفتلك على الفور ، فسوف تفتك بي في أول فرصة . لكن . .

— لكن ماذا ؟ هل أنت خائف ؟

— لكنني أفكر في كاستلوس . فلنأخذ أولا كاستلوس — ياسيادة

الكابتن — ثم نهي بعد ذلك محادثتنا الصغيرة .

واستخرج كيس الطباق وأعطى منه حفنة لرفيقه قائلا :

— لدينا متسع من الوقت . لف لنفسك سيجارة .

ولحق بهما الرفاق . وأمسك الكابتن درا كوس بذراع ضابطه في

ود وهو يهمس في أذنه :

— هكذا يجب أن يرونا . كل واحد منا يحفر القبر الآخر ، لكن

هؤلاء الشباب شمعات صافية ، فيجب ألا نكشف لهم أمورنا الحقيرة .

فإذا كان لا بد من إنقاذ العالم ، فسوف يتم هذا بفضلهم هم . أما إذا

ضاع ، فسوف يكون هذا خطأنا نحن الرؤساء .

ولم يرد لو كاس ، لكن عينه كانت تلمع ببريق قاتل . وأخذ الطباق

وبدأ يلف سيجارة بحركات بطيئة .

٢٠

أصبح لون السماء مشرباً ببياض اللبن . وبدأت نجمة الصباح تختصر
في النور وعلى وجهها ابتسامة حزينة للصخور المهجورة . وظهر أول
الصقور يتشبث بمنصف السماء لا يتحرك ، ينتظر الشمس لتدفي جناحيه .
وخلال الفجر الوردى المنتعش ، بدأ الجرس يقرع ليعلن عيد القيامة .
ودخل الرفاق القرية وهم ينشدون .

كان النشيد يخرج من صدورهم المغطاة بالشعر الكثيف ، ويتدحرج
هابطاً إلى الأزقة المنحدرة ، رناناً ثقيلًا ، كأنه ضابط يلبس الحذاء
العسكري الكبير ويحمل أشرطة الرصاص ويفتل شاربته . واستدار
الحشد إليهم . وانفتحت أبواب الكنيسة . ونزل الأب ياناروس من باب
الهيكل ، يتقدم في خشوع نحو الساحة الممتدة أمام المدخل ، ويرفع على
ذراعيه حامل الإنجيل ذا الوزن الثقيل المصنوع من الفضة .

وأخيراً ، ومع الحيوط الأولى للفجر ، ظهر الأنصار في أطراف الأزقة

يحملون البنادق على أكتافهم . كانوا قد توقفوا عن الأناشيد ، وأخذوا يتقدمون إذ ذاك على أطراف أقدامهم وينظرون فيما حولهم بعناية . لم يكونوا قد اطمأنوا بعد . وأهل القرى بدأوا بدافع القلق يخرجون من الكنيسة . فهم أيضاً لم يكونوا مطمئنين . وعندما رأوا البنادق تلمع في ضوء الشفق ، أصابهم الخوف . وأخذت عيونهم تتجه أحياناً إلى القسيس الذي أدخل هؤلاء الذئاب إلى القرية ، وأحياناً إلى الضيوف المتوحشين الهابطين من الجبل فصائل عديدة تملأ الآن كاستلوس وتغزو الكنيسة . وتباعد الأنصار من أمام شيء ضخم ، فعرف الناس الكابتن الرهيب . ورفع يده قائلاً :

— تحياتي .

وأجاب الأب ياناروس وهو يقدم له الإنجيل ليقبله :

— مبارك هذا الذي يأتي باسم الرب !

لكن الكابتن استدار نحو الحشد وارتفع صوته يرن صداه تحت قبة الكنيسة :

— تحياتي لكم أيها الفلاحون . يسمعون أن عيونكم تفتحت للحقيقة . لقد جئنا نحمل النظام والعدالة . ثم بعد ذلك ، ستحصلون على الحرية أيضاً .

فقال الأب ياناروس وهو يكم قلقه :

— ثم بعد ذلك ؟ ما معنى « ثم بعد ذلك » يا عزيزي الكابتن ؟

وأخذ الكابتن يكرر وعيناه تشتعلان :

— يجب أن نبدأ بالنظام والعدالة . فالحرية قد تلعب برؤوسكم .

فهى خمر تدير الرؤوس ، ولا تصلح لكل الناس . أنا سوف أقرر بنفسى . . .

وهمس المعجوز وهو ينظر خلسة إلى المسيح على الهيكل : « فليكن الله في عوننا . . » ثم عض شفتيه ، واستطاع أن يتمالك نفسه وهو يقول :
— إن الله هو الذي يملك أن يقرر . وفيه نضع ثقتنا .

وتضحك الكابتن :

— لقد خلعنا الله من على عرشه ، ألم تبلغك هذه الأخبار بعد يا أب ياناروس ؟ لقد كانوا يلقون على كاهله كل شيء ، عادلاً كان أو ظالماً . لكن عندما تربع الإنسان مكان الله على عرشه ، أصبحنا من ذلك الوقت مسئولين ، وعندما نأخذ الحكم ، نأخذ على عاتقنا أيضاً الخير والشر . وزجر الأب ياناروس بصوت مكتوم . كان على وشك أن يستنزل اللعنة الصاعقة على هذا اللب الكافر ، لكنه خاف على القرية فابتاع غضبه . وقال لنفسه : « ليست هذه سوى كلمات ، وضعوها في أفواههم ، وهم يرددونها ليثيروا الدعر فينا . لكن الله يعمل في أعماق قلوبهم دون أن يدركوا . فلتصبر إذن . »

ثم قال :

— يا ابني . لندخل ونحتفل بالسر المقدس ونقبادل قبلة السلام . لتنزل السكينة على نفسك أنت أيضاً يا كابتن دراكوس .

ودخلوا الكنيسة ، وبدأ الأب ياناروس يؤدي قداس القيامة . لم يكن صوته أبداً مفعماً بالانفعال إلى هذه الدرجة ، ولم يدق قلبه أبداً بهذه الشدة ، كأنما المسيح قام حقاً في داخله فانفتح صدره ليدعه يمر . وظهر له المسيح في معنى جديد . هو نفسه أصبح المصلوب . الميت الذي ينهض فجأة ويطلق صرخة عظيمة .

وفتح الأب ياناروس الإنجيل وخرج إلى الفناء . وسار خلفه الأنصار ثم الفلاحون يسكون بالشموع في أيديهم . وصعد فوق المقعد الحجري ،

ونفخ صدره وكتفيه ليقرأ النص المقدس للقيامة بأقوى صوت . وفي شكله هذا ، يلبس الحرير والبطرشيل المطرز بالذهب وصدره منفوخ ورقبته ممدودة ، كان يشبه ديكا ذهبياً وقف في حظيرة الدجاج يصبح ليطلع الشمس .

ومد كل المؤمنين شموعهم منتظرين أن يقفوا ليشعلوها من شجرة عيد الفصح التي يحملها الأب ياناروس .

ومد القسيس يده على الإنجيل المفتوح دون أن ينظر إليه . فقد كان يعرفه عن ظهر قلب . وأخذ ينطق بصوت يرن بالانتصار ويتردد صداه في جو الصباح : « وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية .. »

وسعل الكابتن . والتفت الأب ياناروس ليلقي عليه نظرة سريعة ، فاستولى عليه الدهر . رآه يقف جامداً لا يلبث وسط الفناء ، يحيط به رفاقه ، وعلى وجهه البرونزي ابتسامة منتصرة . وهمس الأب ياناروس : « فليساعدنا الله ا » . واستجمع كل قواه وأخذ يرتل بصوت مفعم بمشاعر الندم والندير ، ترتيلة القيامة : « المسيح قام من الأموات .. » واندفع الحشد ليشعل الشموع . واستدار الكابتن نحو الرفاق الذين أحاطوا به ، وأعطاهم عدة أوامر بصوت منخفض . فأمسك عشرة من الأنصار بالبنادق في قبضات أيديهم ، وعبروا البوابة بسرعة . وارتعد الحشد ، واستشعروا مصيبة في الأفق ولكن الأب ياناروس مد لهم يديه قائلاً :

— يجب أن أتكلم معكم . فابقوا .

وتردد الحشد وسيطر عليه القلق . وكنتم الأنصار أنفاسهم . والتفت

الكابتن إلى الأب ياناروس قائلاً :

— تكلم باختصار . لدينا عمل يجب أن نقوم به .

ووقف الأب ياناروس على المصطبة الحجرية وفتح ذراعيه إلى أقصى ما يستطيع ، كأنما يريد أن يحتضن فيهما كل شعبه المؤمن المحتشد ، وأن يحتضن كاستلوس واليونان كلها . وانبثق الصوت من صدره كأنه ينبع من السرور . قال :

— يا أبنائي . أربعون عاما مضت وأنا أقيم المسيح . لم أشعر أبداً بمثل هذا السرور . ولم أشعر بالقيامة أكثر شمولاً . قيامة اللحم والمظام والروح . أدركت لأول مرة أن المسيح واليونان وروح الإنسان ، ليسوا سوى شيء واحد . فعندما نقول : المسيح قام ، يكون معنى ذلك : اليونان قامت ، والروح قامت . بالأمس ، على هذا الجبل ، كان الإخوة يذبحون بعضهم ، والصخور ترن باللعنات والأنين . أما الآن ، فانظروا ! تصالح الحجر والسود . وها هم يسمعون معاً صرخة المجدلية : المسيح قام ! هذا هو معنى القيامة ، وهذا هو معنى المحبة . إنى أنتظر هذه اللحظة منذ سنوات . وأخيراً جاءت . فالشكر لاسم الرب في الأعلى ! يا كابتن ! عيون الشعب ثابتة عليك . وكاستلوس معلقة بشفتيك . فقل لنا كلمة سلام في هذه الساعة الرهيبة .

ورفع الكابتن يده قائلاً :

— عودوا إلى منازلكم . اجروا !

وزجر الأب ياناروس :

— هل هذه كلمة السلام التي تقولها يا كابتن ؟ هل هكذا تفهم قيامة

المسيح ؟ هل هذا هو الصلح الذي وعدتني به ؟

— هو هذا . أنا قلت النظام والعدل أولاً . ثم لا يزال يوجد هنا

أعداء الايديولوجية ، وقد أرسلت من يبحث عنهم . فاغربوا عن وجهي جميعاً . يجب أن أبقى لأقرر الأمر مع رفاقي .

واندفع الحشد نحو بوابة الكنيسة في هرج ومرج شديدين . وفي غمضة عين أصبح الفناء خالياً .

وقال الأب ياناروس وهو يطوى البطرشيل :

— سأبقى معك يا كابتن .

كانت يدها ترتعدان من الغضب . وهز الكابتن كتفيه قائلاً وهو

يضحك :

— ابق لتناولهم القربان قبل الموت !

ونظر إليه الأب ياناروس نظرة صاعقة ، وقال بصوت أجش قاس :

— يا كابتن دراكوس . لقد عقدنا نحن الاثنين اتفاقاً . ومن

ناحيتي حافظت على كلمتي فسلمتكم القرية . وأتى دورك أنت الآن . لقد

دفعت نصيبي ، فأصبحت أنت مديناً لي ، وأنا أطالبك بالسداد .

وأمسكه الضابط لوكاس من كتفه :

— هل تستطيع أن تقول لي أيها القسيس من الذين تمثلهم حق

تسمع لنفسك أن تخاطبنا هكذا مخاطبة الأنداد ؟ من يقف خلفك ؟

— يا صديقي الطيب . الله يقف خلفي . ولهذا السبب أخاطبك بهذه

اللهجة . الله أمامي . الله على يساري . الله على يميني . الله يحيط بي . وكل

ما لديك من بنادق وسكاكين وتهديدات ، لا يهز شعرة من رأسي .

وذهب يجلس وحيداً على طرف المقعد الحجري . وتردد أثناء كلامهم

صوت جلبة تختلط بالشتائم والتأوهات . وظهر على البوابة الأب مندراس

جافاً غليظاً ، ورقبته ممدودة كرقبة أبو قردان ، يتبعه أبناؤه الثلاثة

وأربعة من الخدم . ثم جاء بعده الأعيان الثلاثة العجائز : العم تاسوس

والأب ستاماتيس والحاج . كانت وجوههم مصفرة وأحزمتهم مفكوكة

وشفاههم مفتوحة مدلاة وعيونهم غائرة . وأتى خلف الأعيان الجاويش

متروس يمرج ويجر رجليه . وخلف هؤلاء بقية الجنود بدون سلاح
ممزقين تماماً . وفي نهاية المجموعة ، سار القومندان مغطى بالوحل والدم .
كان قد قاوم إلى أقصى درجة عند ما جاءوا يأخذونه ، فأصابوه بالضربات
حتى أصبح لا يستطيع أن يتمسك على قدميه . وانفتحت جروحه مرة
أخرى . أمسك به اثنان من الأنصار يسندانه . لكنه لم يكذب يصل إلى
الفناء حتى انهار على الأرض .

وانتفض الكابتن دراكوس عند ما رآه . واقترب منه في بطء
وتأمله . كان الضوء يصل إلى قبة الكنيسة ثم يهبط في رقة ليلاً الفناء
ويبعث البريق في الوجوه . وبين جنود الأنصار سقط الضوء على وجه
شاحب ذي شفيتين مضمومتين ورقبة عارية . كانت هذه زوجة
القومندان .

وانحنى الكابتن على خصمه ، ولم يشبع من النظر إليه . وأخيراً فتح
فه قائلاً :

— هذا أنت ؟ هذا أنت يا عزيزي القومندان ؟ كيف استطعت
أن تصل إلى هنا ؟
والتفت إلى رفاقه بأمرهم :

— فكوا رباطه . اوقفوه . أنت ؟ هذا أنت إذن ؟ كم تقدمت
بك السن ، وكم أصبحت نحيفاً ، وكم ابيض شعر رأسك !

وأخذ القومندان بعض شاربه مهتاجاً دون أن يجيب . كان الدم
يسيل من حاجبه . وفي ساقه اليمنى رصاصة ، لا بد أنها كسرت العظم ،
لأنها كانت تؤلمه . لكنه ظل يصر على أسنانه كي لا يصرخ ، ويقول لنفسه :
« لن أفقد ماء وجهي . سأموت واقفاً على قدمي . يا إلهي لا تتركني
أسقط ! »

الآن ولأول مرة شعر بالله يأتي إلى روحه . قبل ذلك كانت روحه عمياء يحجب عينيها الشرف والوطن والانتقام والكرامية . والآن هاهو في أعماق أعماق اليأس يستعيد الطمأنينة الأبدية والسند الذي لا يهتز : الله . لم يكن يعرف الابتسامة الهادئة منذ زمن طويل . لكنه رفع رأسه وابتسم .

ونظر إليه الكابتن بدهشة ، وفي شفقة وخوف . لكم انهار هذا الرجل المشهور ! لم يبق منه سوى عظم ! هذا إذن هو البطل الصامت ذو الشوارب السوداء الذي ملأ اسمه الجبال ؟ وقال لنفسه : « خسارة أن مثل هذه النفوس ليست معنا ! كان يجب أن تكون كل الفضائل في معسكرنا ، وكل الجبن في معسكر الآخرين . لكننا نضم معنا جبناء كثيرين ، وعندهم هم أبطال كثيرون . أنا أعتقد تماماً أن الله قد خلط أوراق اللعب ، فلم يعد يمكن أن نعيد ترتيبها . »

وسأله :

— هل تذكرني يا عزيزي القومندان ؟ انظر لي جيداً . هل تذكرني ؟

ومسح القومندان الدم من على عينيه ، وسرعان ما أشاح بوجهه دون كلمة .

— أثناء حرب ألبانيا كنت أخدم معك . كان لي إذ ذاك اسماً آخر . كنت تحبني كثيراً وتسميني القرصان . وكنت تستدعيني أنا دائماً في المهمات الخطيرة وتقول لي : « هيا أيها القرصان ، لنصنع معجزة أخرى . » وعند ما جرحت ساقك وتركك الجميع تسقط ، حملتك أنا على ظهري طوال خمس ساعات إلى المستشفى . وأمسكتني من رقبتك وقلت لي :

« لقد أنقذت حياتي ... أنا مدين لك بحياتي ... » والآن دارت العجلة ،
وها نحن نذبح بعضنا بعضاً .

وانهارت ركبتا القومندان فسقط مرة أخرى على الأرض صامتاً .
واستأنف الكابتن حديثه بصوت مغمم بالحسرة :
— لماذا أخذت جانبهم يا عزيزي القومندان ؟ أنت الرجل النقي ،
البطل ، اليوناني ! ألم تهرق دمك من أجل الحرية في ألبانيا ؟ فلماذا
خنتها الآن ؟ لماذا تعلمن الحرب عليها ؟ تعال معنا . سأترك لك القيادة ،
وسأضع نفسي مرة أخرى تحت أوامرك لترسلني من جديد في المهام
الخطيرة ونحارب معاً من جديد لكي نحرر شعبنا . ألا تأخذك الشفقة
به ؟ شعب عظيم كهذا يسير في طريق الهلاك ! تعال معنا .

وصعد الدم في وجه القومندان الشاحب ... وأخذته رغبة في أن
يصيح : « يا خائن » . لكنه عض على شفتيه ولم يجرؤ على الرد . كان
متمجلاً أن يلقي حتفه ليخلص .

وأخيراً قال في همس :

— اقتلني ، لكي أجد الخلاص .

ثم أضاف :

— لو كنت قد وقعت بين يدي أيها الخائن لقتلتك . أما الآن فقد

وقعت أنا بين يديك ، فاقتلني . ليس عندي جواب آخر أقوله لك .

وقال الكابتن بصوت مغمم بالشفقة والغضب :

— أنا أحترمك وأحسب عليك . لكنني سأقتلك .

فقال القومندان :

— هذا حسن .

وشد الكابتن قبضته واستدار إلى رفاقه يأمرهم :

— ضوهم لصق الحائط جميعاً ا هل تستطيع يا عزيزى القومندان

أن تقف على قدميك ؟

فأجاب وهو يستجمع كل قواه ليحاول النهوض :

— نعم .

وتداعت ركبتاه فسقط مرة أخرى على الأرض . وجرى نحوه اثنان

من الأنصار ليسنداه لكنه دفعهما فى غضب وهو يزجر :

— لا تلمسانى . سوف أنهض وحدى .

وتشبث بالجدار ، واستجمع قواه واستطاع أخيراً أن يقف على

قدميه . كان يتصبب عرقاً ويبدو شاحباً فى لون قطعة النقود الصفراء .

ونظر حوله . رأى الأنصار يجلسون القرفصاء أرضاً على بلاط الكنيسة .

وفى وسط المصطبة ، جلس الكابتن بجوار ضابطه . وفى طرفها جلس

الأب ياناروس . وفى الطرف الآخر .. وتجمد الدم فى عروقه ، وأظلمت

عيناه . انطلق فى دماغه بريق أسود يمزقه . عرف المرأة الجالسة فى طرف

المصطبة . امرأته هو . فقد كان له فى الماضى امرأة ... خمسة عشر عاماً

من السعادة مرت كالبرق ا خيل إليه أن كل شىء حدث بالأمس فقط .

كان الاثنان يصعدان معاً هضبة روميليا ذات الانحدار الشديد . ووقفت

أمه المعجوز على عتبة الباب ، تتحلى بأجمل الحلى . الحلى التى لبستها يوم

زفافها ، ثم ألبسوها إياها على سرير الموت . وبدأ الزوجان يبكيان هما

أيضاً . فقد كانا صغيرين وكان الوقت ربيعاً والأرض تتضوع عبيراً .

وكانت حمامة برية من نوع القطا تدق بجناحها جوانب قفص مصنوع من

أعواد الغاب ، وتنظر إلى الزوجين الصغيرين تهديل باكية كأنما تريد

الزواج هى أيضاً . لكن زوجها كان هناك على الجبل ، وبينهما هذه

الحواجز المصنوعة من أعواد الغاب تحرمهما الالتقاء . وقالت الشابة :

« أمى . أسألك مكرمة . اسمحى لى أن أفتح هذا القفص . » وأجابت
المجوز : « هو لك يا ابنتى . فافعلى به ما تشائين . »
وفتحت الشابة القفص . وأمسكت فى يدها أنثى القطا يلعب ريشها
بالوان متغيرة . وتحسست مخالبها ذات اللون المرجانى وعينها البرية
الحلوة وصدرها المنتفخ . وبقاة ، قذفت يدها فى الهواء وأطلقتها قائلة :
« اذهبى ، فأنت حرة ! »

وانظفاً البريق فى رأس الزوج الذى كان شاباً فى الماضى . وعاد يشعر
بجسده يرتكن على الجدار .

وارتفع صوت الكابتن يأمر :

— ضعوم فى صف واحد !

أخذ الأعيان الثلاثة المجازز يكون ، وقد امتلأت لحامم باللعاب
والدموع . وتهامس الجنود ونظروا نحو البوابة . كان الأب مندراس
يمر من أمام الأب ياناروس ، فقال له وهو يبصق عليه :

— أيها الخائن القدر ؟

ونفض الأب ياناروس واقرب من الحائط الذى اصطف عليه الجميع
على جانبي القومندان . كان قلبه يرتعد ، لكنه تمالك وقال هامساً :
« الآن شرفك فى خطر يا أب ياناروس . يجب أن تلعب جولتك الأخيرة . »
وشعر إلى جانبه بالحضور الإلهى الخفى ، فاستعاد شجاعته .

« اصنع معجزة يا إلهى . النجدة ! كيف تريد منى أن أقف أنا
وحدى فى مواجهة العالم كله ! وطى من أعتمد ؟ طى الهواء ؟ طى
الناس ؟ لاتسمع كلامى حين أزعم أنى أعمل وحدى . فليست هذه سوى
ادعاءات رجل إمامة . فأنا أحتاج إلى أن أعتمد عليك أيها المسيح كى
أحارب . أحتاج إلى أن أشعر بجسدك ينعشنى فى حرارة الصيف وبالحرارة

تخرج من أنفك في برودة الشتاء . أنا أحتاج إلى أن أمسك بيدي ! «
وصاح :

— لا تخافوا أبداً يا أبناءى . الكابتن لم يحضر إلى القرية ليأخذ بالثأر ، بل ليحتفل بالصلح . إنه رجل وجندى يونانى ، وقد أعطى كلمته ألا يضطهد أحداً . كلمة شرف ! اطمئنوا . إنه يريد فقط أن يخيفكم قليلاً . وأنتم تستحقون ذلك ، لأنكم حاولتم أن تعارضوا السلام . هذا مجرد تذنيب لكم ، وسيطلق سراحكم بعد ذلك . ألم يحضر ليحمل لنا الحرية ؟ أنا أضمن ذلك ، أنا الأب ياناروس . فلا تخشوا شيئاً .

وحدجه مندراس المعجوز بنظرة تقطر سماً :

— عليك اللعنة يا يهوذا . هل تظن إذن أن لهم كلمة شرف أيها

المغفل ؟

وألقى الكابتن سيجارته وسحقها بكعب حذائه . والتفت نحو

القومندان وصحابه وقال :

— يا عزيزى القومندان . لقد تصرفت كرجل . خسرت كاستنلوس

لكنك لم تخسر شرفك . وأنتم أيها الآخرون حاربتم ضدنا ، وما أكثر

من قتلتم من فتيتنا . هكذا كانت الحرب . وأنا على استعداد للعفو . أنا

أمد لكم يدي في هذه اللحظة ، فانصتوا : هؤلاء الذين يقررون أن يأتوا

معنا ويضعوا على رؤوسهم البيريه الأحمر ويحاربوا من أجل الحرية ،

سنقول لهم مرحباً . وسأعتق حياتهم . وهؤلاء الذين يرفضون ، سيقتلون

رمياً بالرصاص .

والتفت نحو مندراس المعجوز قائلاً :

— أما أنت يا مندراس ، أيها الرأسمالى الذى لا قلب له ، فقد جعلت

من هذه القرية عزبتك وامتصت دم الشعب ، أنا لا أريدك وسوف تعدم .

وتفرس مندراس العجوز في السكابتين بعينيه الصغيرتين شبه
المنمضتين :

— أنا أنجبت أبناء وأحفاداً ، وأكث لقمي ، وأتمت ساعتي .
فلن تستطيع أن تخيفني يا قرصان . شيء واحد فقط يحرق قاي ...
(واستدار نحو الأب ياناروس) .. هو أني لن أجد الوقت لأعلقك
حياً أيها الغراب .

ثم استدار نحو أبنائه قائلاً :

— أمامكم الشرف والمار . اختاروا ، فأنتم أحرار .

وأخيراً أتجه بالكلام إلى خدمه فقال لهم :

— لستم سوى شغالين . فاذهبوا معهم أيها الشياطين المساكين
لتنقذوا رقابكم .

ومزق قميصه وكشف صدره المغطى بالشعر الأحمر قائلاً :

— أنا مستعد .

كان الأب ياناروس يشد لحيته وينصت ولا يصدق أذنيه . « هل
هذه هي الحرية التي أحضرها لنا ؟ تخضع ، فتكون حراً ؟ وتقاوم ،
فتضرب بالرصاص ؟ لا . لو تجرأوا على انتهاك كلماتهم ، سأقوم صائحاً حتى
يضعوني لصق الحائط أنا أيضاً . قم يا أب ياناروس . رجال البيرييه الأحمر
والبيرييه الأسود يملنون الحرب عليك . ولا يريدونك . فلا تندم على
شيء . تريد أن تكون حراً ؟ إذن ادفع الثمن . فالحرية غالية الثمن
جداً . »

وأغلق الجاويش متروس عينيه واستعاد صورة بيته الصغير في الوادي
الضيق ، وفي فنائه ترتفع شجرة الجوز ... وتحت شجرة الجوز ، زوجته
الشابة مارو تلبس جورباً ريفياً وسروالاً مطرزاً وزحافاً أحمر . تجلس

في ظل الشجرة وتفك صدرها لتعطي ثديها لابنها الرضيع . وعيناها
الذابلتان تسألان السماء : « أيتها الطيور المهاجرة ، كيف أصبح حبيبي
ولماذا لم يعد ؟ النعاج ولدت ، فمن يحملها ؟ وأشجار الكروم أثمرت
وأعواد الذرة ارتفعت . وولدى الصغير يهز معصميه لينادي أباه ... فلماذا
لا يعود ؟ والليالي طويلة جداً ، ولست أحب أن أنام وحدي . »
وفتح عينيه .

كان الكابتن أمامه . وفكر في نفسه : « ليتني أستطيع أن أجد
ترتيباً ما فأعود إلى قريتي ، لكن دون أن أفقد شرفي ! »
ثم قال بصوت لين خجول :

— ألا تريد أن تتركني ياسيدي الكابتن أعود إلى قريتي ، في روميليا ؟
لن أعود إلى الحرب ، فأنا لم أخلق للقتل . أنا ...
وسمعه القومندان فقطب حاجبيه مزجراً :

— ميتروس !

وأجاب ميتروس متلعثماً :

— تحت أمرك يا سيدي القومندان !

— ألا تنجول ؟ تعال إلى جانبي .

وأجاب الجاويش :

— ها أنذا يا سيدي القومندان .

وفي غمضة عين اختفى كل شيء . الجبل وشجرة الجوز والزوجة
الشابة والطفل .

وابتعد خدم مندراس الثلاثة عن الحائط قائلين :

— سنأتي معكم ، فالروح حلوة .

واستدار مندراس العجوز ليبصق ، لكنه لم يتكلم .

وغادر الحائط الأعيان الثلاثة يرتعدون . العم تاسوس ، والأب ستاماتيس ، والحاج . وتقدم الحاج ، وهو أكبر الشيوخ سنًا ، يسأل في صوت يبكي :

— هل ستترك لنا أموالنا ؟

ودفعهم الكابتن إلى الخلف وهو يزار :

— لا مساومة ! ماذا تتوقعون أن أفعل بكم يا بقايا الحطام ؟ هيا ،

التصقوا بالحائط !

وتردد الجندي فاسوس ، النحيف ذو العينين الصغيرتين الحزيبتين والقدمين الكبيرتين اللتين تنتشر فيهما العقدة . كان يترنح في يأس ، يقدم رجلا ويؤخر رجلا ، دون أن يصل إلى قرار حاسم . منذ لحظات فقط تلقى من شقيقاته الأربع رسالة ، فامتأ قلبه مرة أخرى بالمرارة . تنهد وتقدم خطوة إلى الأمام وتكلم :

— يا سيدي الكابتن . إن لي أربع شقيقات ينتظرن الزواج ،

فلا تقتلني .

— هل تأتي معنا ؟

وابتلع فاسوس لعابه بصعوبة ، ثم قال :

— نعم .

وترك الحائط ثلاثة جنود آخرون من السبعة على رأسهم ستاماتيس ،

وقالوا :

— أيها الكابتن ، كنا دائماً معكم . كانت بنادقنا في كاستلوس لكن

قلوبنا كانت تدق على الجبل . سنأتي معك .

ووقف مع بقية الجنود على الجدار الغلام ذو المنظار والمظهر الرقيق ،

نيونيوس زانتيس ، وقال :

— يا كابتن . أنا لن آتى معك . ليس ذلك لأنى لا أحب الحياة ، بل لأنه ينجباني أن أخضع للعنف . اقتلنى إذن .

— لو كان لديك حياء حقاً لأتيت معنا . فياخسارة شبابك .
وأجاب زانتيس الأرسـتقراطى قائلاً فى هدوء وهو يعود لصق الحائط :

— الكرامة البشرية تمنعنى من الخضوع للعنف .
وتنهذ ميلتوس أصغر أبناء مندراس . أخذ ينظر حيناً إلى أبيه ، وحيناً آخر إلى البوابة والكابتن . والأسفاه ! إنه لم يخلق طائراً ليطير من هنا ! كان فى الخامسة والعشرين من عمره لا يزال أعزب لكن كل فتيات القرية رهن إشارته . يحب الحجر ، ويعرف العزف على الجيتار . وفى كل يوم أحد كان يضع خلف أذنه زهرة أقحوان صفراء ويمجى إلى أماكن اللهو ، تتدلى على جبهته خصلة شعر جميلة ، وخداه متوردان ممتلئان . أخذ ميلتوس يتنهذ . كانت روحه تخلق بعض الوقت فى الحانات والفتيات ، ثم تطير إلى الوطن والشرف والأبطال الذين يضحون بحياتهم ويكسبون الخلود . وفقد المسكين صوابه تماماً فلم يعد يعرف ماذا يجب أن يفعل .

كان الكابتن ينتصب أمامه . قال :

— والآن إذن ؟ هل قررت ؟ يجب أن تنتهى .

وطأطأ الولد رأسه وقد احمر وجهه وظهرت خاف أذنه بقية عود ريحان كان قد أخذه بالأمس من إحدى الفتيات . قال وهو يترك الحائط :

— أنا آت معك يا سيدي الكابتن .

وخفض مندراس العجوز رأسه ، لكنه لم يتكلم . وصرخ فيه شقيقاه وهما يبصقان :

— لتذهب إلى الجحيم !

واقرب الكابتن من القومندان . وفكر وهو ينظر إليه دون

أن يتكلم :

« كيف يمكن التأثير فيه ؟ كيف يمكن التأثير فيه ؟ إني لا أملك

عليه شيئاً مادام لا يخشى الموت ! »

ونظر الكابتن إلى رفاقه الذين اصطفوا في انتظار أوامره وبنادقهم

على استعداد . وسأل وهو يرفع يده ليعطى الإشارة :

— وضع الاستعداد ؟

كان الأب ياناروس مستنداً إلى الجدار يتابع المشهد وقلبه يتمزق ،

ويشعر أن يد « الشيء » الذي لا يرى ترتعد في يده . قال في رقة :

« لماذا ترتعد ؟ هل تخاف أنت أيضاً ؟ هل تخاف من أجلى ؟

تشجع إذن أيها الرب ! »

كان الكابتن سيعطى الإشارة عندما نهض الأب ياناروس فجأة

واقرب منه في ببطء بخطوات ثقيلة كأنما زاد عمره في لحظة واحدة عن

المائة عام . كان قلبه قد تجمد وشعر فوق كتفيه بثقل لا يمكن احتمالته .

وخطا بصعوبة خطوتين ، ثم ثلاث خطوات ، وتوقف أمام الكابتن

لم يكن يدري ماذا يقول له . جف حلقه واختنق . وأخيراً استطاع أن

يفتح شفثيه .

قال وكل جسده يرتعد :

— هل ستقتلهم ؟

واستدار الكابتن ونظر إليه .

كان وجه القسيس قد أصبح شديد البياض وفمه ملتويا وأنفاسه

لاهية كأنها حشرجة . وعاد العجوز يسأل بصوت أجش محطم :

— هل ستقتلهم ؟

— نعم . مثلهم مثل كل من يقفون حجر عثرة في طريق الحرية .

وأجاب الأب ياناروس :

— الذين يقفون حجر عثرة في طريق الحرية هم أمثالك الذين

يحرمون الآخرين من الاحتفاظ برأيهم . أين الكرامة التي أعطيتها ؟ هل

هذه هي الحرية التي أحضرتها ؟

وقال الكابتن ثأراً :

— لا تحشر نفسك في شئون هذه الدنيا أيها العجوز !

— الحياة الدنيا والحياة الأخرى ليسا سوى شيء واحد . من يكسب

أو يخسر الدنيا ، يكسب أو يخسر الآخرة أيضاً . إنى أحشر نفسي في

شئونك يا كابتن لأنها شئوني أنا أيضاً . إنى أبسط يدي على هؤلاء

المسيحيين الذين وضعتم لصق الحائط وأقول لك : لن تقتلهم ! أنا الأب

ياناروس لن أدعك تفعل ذلك .

— اسمع يا أبانا وحب السماء ! الآن لو تركنا كل الناس أحراراً ،

فسوف نضيع . سيختفي الشعب ، وتظهر الحثالة . فلا تتعجل الأمور إذن .

الحرية ستأني في دورها . تأني دائماً في النهاية .

— إذن يحيا الطغيان ! يحيا الطغيان والعنف والسوط !!

— احرص وإلا وضعتك لصق الحائط مع الآخرين .

— بل أنا وضعت نفسي فعلا أيها الرجل الطيب ، منذ اللحظة التي

لمحت فيها الحقيقة . وها أنذا أنتظر طلقة الرصاص . مرحباً بها !

وكان الضابط الملازم خلال هذا الوقت كله ينتظر وهو يحترق .

لكنه لم يعد يستطيع أن يمسك نفسه . فقفز وقبض على رقبة العجوز :

— كف عن الصياح وإلا لويت عنقك أيها الغراب . هل تعتقد
أنى سأعطى احتراماً لثوبك الأسود ؟
وأجاب الأب ياناروس :

— تهديداتك لن تؤثر فى نفسى يا صاحب البيريه الأحمر . الموت
لا يخيف إلا الكافرين . أما أنا فأؤمن بالله ولا أخاف الموت . بل إنى
حفرت قبرى منذ زمن — هناك أمامك — ونقشت على لوحته : « أيها
الموت ، لا أخشاك ! »
وزجر الضابط :

— سأقتلك يا لحية التيس ، فاصمت !
وأسرع خمسة أو ستة من الأنصار يلتفون حول العجوز :
— اقتلنى إذا كان هذا يرضيك . معك البنادق ، وأنت تعتقد أن
معك الحق ، فاقتلنى . تستطيع أن تقتل آخر رجل حر ، أما الحرية
فلا تستطيع أن تقتلها . رقبى ستتحول إلى مزمار يرتفع منه نشيد الحرية .
نعم ، نعم ، لا تضحك . سيرتفع النشيد فى الصحراء . وشيئاً فشيئاً تتحول
كل قصبة فى البرارى إلى مزمار يغنى معى .
وتقدم نحو الحائط ووقف أمام الكابتن . فصاح هذا وهو يعوى :
— انسحب من الحائط . لا تكلمنى . اغلق هذا إذا لم تكن تريد
أن نغلقه لك .

— مكانى هنا . لقد خدعتنى ، وأنا خدعت القرية حين سلمتها لك .
فبأى وجه أستطيع أن أقابل الناس ؟ أنا متعجل كى أحضر أمام الله
لأروى له ألمى ، ولألتبس العذر لك أنت وأصحابك أيها المضلل . أنت الذى
تزعم أنك تعيد بناء العالم ، عن طريق الجوع والعبودية والكذب .
وصاح الكابتن وهو يأخذه فى ذراعيه لينزعه من الحائط :

— يا أب ياناروس . لست أريد أن أجعل منك شهيداً مقدماً
لتتابعني صورتك .

وقال العجوز :

— إذا تركتني حيا سوف أصریح . وإذا قتلتني سوف أصریح أيضا .
إنك لن تتخلص مني ...

في تلك اللحظة سقطت عليه أشعة الشمس في بدء إشراقها ، فظهرت
لحيته كلها في لون الورد .

وشعر الأب ياناروس مرة أخرى بيد الشيء الذي لا يرى ترتعد في
يده ، فصاح غاضبا يقول لنفسه :

« أنت تخاف الآن في هذا الوقت العصيب ؟ هيا ، تشجع . أخرى
بك أن تساعدني على إنقاذهم . أنت تنسى أنك لست فقط « المصلوب »
لكنك أيضا « القائم من الموت » . والعالم لم يعد يحتاج إلى الرب
المصلوب ، بل يحتاج إلى رب الجيوش . حسبك آلاما ودموعا وصلبا ،
فانهض وأزل إلى الدنيا كتائب الملائكة تحمل إلينا العدل . كفي ما أصابنا
من تحقير وضرب بالسياط ووضع أكاليل الشوك فوق الرؤوس وقتل
على الصليب . جاءت الساعة لنقوم من الموت . نحن نريد الديونة الأخيرة
فوراً ، ها هنا على الأرض . فانهض ! »

لكن صوتا عميقا باكيا ارتفع من جذور ضلوعه يقول :
« لا أستطيع ... » فأرخت الأب ياناروس يديه في شعور بالعجز : « أنت
لا تستطيع ؟ أنت تريد ولا تستطيع ؟ أنت طيب وعادل وتحب الناس
وتريد أن تحمل إليهم في هذا العالم المحبة والعدل والحرية ، لكنك
لا تستطيع ؟ »

وأظلمت عينا الأب ياناروس . وهمس قائلاً :

« واأسفاه . فالحرية ليست قادرة على كل شيء . وليست خالدة .
إنها بنت الإنسان ، تحتاج إلى الإنسان ... »
وامتلأت نفسه بمرارة شديدة تختلط بنوع من الرقة والعطف .
لم يشعر أبداً أبداً بأنه أحب المسيح كما أحبه تلك اللحظة . وهمس :
« يا ابني ... » ، وأغمض عينيه .

واستدار الكاتب لينظر إليه . رأى دموع أبيه تسيل على خديه حتى
لحيته . كان يعرف أنها ليست دموع خوف . فهذا القسيس يسترخص
حياته . لكنه كان يبكي كل الناس ، الأعداء والأصدقاء ، السود والحر .
وبينما الكاتب ينظر إلى دموع العجوز تسيل ، شعر بريح دافئة تهب عليه
لا يعرف من أين . ربح العطف . أحس في قلبه بالشفقة على هؤلاء الرجال
الاثني عشر الذين ينتظرون على الجدار كلمة أو إشارة تتوقف عليها
حياتهم . ماذا يفعل ؟ ما هو أقصر الطرق إلى النصر ؟ أن يقتل
ليستأصل الكراهية ، أم أن يفعل مثل أبيه فيهزم الكراهية بالحب ؟
وكاد يقول للمحكوم عليهم : « سأحفظ كلتي وأحمل لكم الحرية . أنتم
أحرار ! » لكن نظراته التقت بنظرات لوكاس يحدق فيه بعينين تالها
السخرية . وهب في داخل صدره شيطان دموي غامض ، فرفع يده يعوى
بصوت لم يكن صوته :

— أطلقوا النار !

وزجرت البنادق . وسقطت على بلاط الكنيسة اثنتا عشر جثة .
وتقلصت جثة القومندان كالسمكة مرتين أو ثلاثا ، ثم تدحرجت
إلى قدمي زوجته . فدفعها المرأة بطرف حذاءها .
وأطلق الأب ياناروس صرخة . واهتز عقله لحظة . أراد أن يعود
إلى الكنيسة ، لكن كل شيء كان يتراقص حوله . القرية والجبل واليونان .

وجر نفسه في هدوء وسط الجثث . وغمس يده في الدم ومسحه في
لحيته فأصبحت حمراء تماما . ثم اغترف في راحة يده دما أراقه على رأسه
وهو يقول منتجبا :

— دمكم ا ليقع دمكم على رأسي يا أبنائي ا أنا الذي قتلتكم ا
وأحاط به الأنصار يضحكون .

ودخل الكنيسة وانحنى على المذبح . رأى قطعة الحجر اللطخة بالدم
موضوعة بجانب صورة المسيح المصلوب وقبلها . دم من هذا ؟ واحد من
البيرية الأحمر أم من البيرية الأسود ؟ لم يسأل نفسه عن ذلك . كان قد
التقط قطعة من الحجر هذه من فوق الجبل بعد المارك الأولى مباشرة ،
ووضعهما على المذبح ليقبلها قبل كل قداس .

وخلع البطرشيل ولف الإنجيل ووضعه تحت ذراعه . ثم تناول
عصاه من أحد الأركان ورسم علامة الصليب . وشعر بقلبه ينفتح ،
وتدفق منه أمواج لا تنتهي من المحبة ، تهبط إلى كاستلوس وتفعم
سهول اليونان وشواطئها . وكان يشعر بصدوره يزداد خفة كلما تدفقت
منه المحبة . قال لنفسه :

« من يدري ؟ ربما يكون المسيح قد أوكفى أنا — خادمه الحقير —
بهذه المهمة الثقيلة . فلتتحقق إرادته ا »

واستدار إلى يمينه قائلا للشئ الذي لا يرى :

— تعال . انرحل ا

وخرج من الكنيسة ووقف وسط الفناء ، وصاح :

— إني ذاهب . سأفعل ما قلت . سأذهب من قرية لقرية أصبح :

« يا إخوتي . لاتصدقوا الحجر ولا تصدقوا السود ، لكن تصالحوا أتم ا »

فلا بد ليكل قرية من مجنون . وسأصبح أنا هذا المجنون . مجنون اليونان
الذي يصبح . »

كان العجوز يشع بريقاً في ضوء الصباح ، وينتصب كالمعلاق وسط
فناء الكنيسة ولحيته مخضبة بالدم وحاجباه منفوشان والمساير بارزة من
عصاه وحدائه .

واستدار نحو الكابتن :

— إني أحمل معي البطرشيل والإنجيل أيها الكافر . بل أنا أصحب
معى أيضاً أيها القاتل فرق الموتى وكل الأمهات الشكالي وكل اليتامى
ومشوهى الحرب ومعى ذوو الأرجل المرجاء والمظام اللتوية والمشلولون
والمجانين . كل هؤلاء يأتون معى .

وسأل الضابط فى غيظ :

— لماذا تركه يا عزيزى الكابتن ؟ اقتله .

وهز الأب ياناروس كتفيه فى احتقار :

— هل تعتقد إذن أنى أخاف الموت ؟ ماذا يملك أن يصنع بى أنا

الشبح العجوز ؟ يخلصنى من هذا العالم الزائف ليذهب بى إلى الخلود .
هذا كل ما يستطيع أن يفعله ذلك المسكين . فالموت ليس سوى بغل
يحملنا إلى الحياة الأبدية .

ورفع يديه نحو السماء صائحاً :

— لو بقيت على قيد الحياة ، لو تركنى هؤلاء حياً ، أقسم ألا أصلبك

أبدأ . لن أتركك أبداً أيها الرب فى أيدى عنيا وقيافا . لقد قلت : « أنا
أحمل سيفاً . » فأين هو ؟ حتى متى تظل تصلب ؟ يكفى هذا . تسلمح
واهبط إلى الأرض . لقد فهمت أخيراً واجب الإنسان ، بعد كثير من
الآلام والدماء . أيتها الفضيلة تسلمحى . أيها المسيح تسلمح . إنى سأعلن
الإنجيل الجديد فى كل مكان . إنجيل السلاح .

ومد يده اليمنى إلى الشئ الذى لا يرى قائلاً :

— تعال .

كان الأنصار ينظرون إليه في ذهول ، وبعضهم يضحكون ويقولون :

— القسيس أصيب بالجنون . مع من يتكلم ؟ لمن يقول : تعال ؟

ورفع الأب ياناروس يده نحو الكابتن :

— إلى اللقاء أيها السفاح !

ثم اجتاز العتبة بخطوات ثابتة . ولم يتحرك أحد . فنظر الضابط إلى

الكابتن نظرة ساخرة قائلاً :

— إنه سيشعل النار في كل مكان . هل ستتركه يفعل ذلك ؟ هل

هذه مصادفة أن تشفق عليه ؟

ونظر الكابتن إلى العجوز يعتمد ويدق حجارة الطريق بمكازته .

كان يتقدم بخطوات واسعة وثوبه الكهنوتي يطير مع الريح وطى

كتفيه يهتز شعره الطويل الذي أطلقه .

وسار في طريق براستوفا صاعداً بسرعة وقطع الحجارة تتفكك تحت

حذائه الثقيل . ولعلت شمس الصباح على البطرشيل المطرز بالذهب وحامل

الإنجيل الفضي تحت ذراعه .

وكان دم الموتى الذي دعك به رأسه يسيل خيوطاً رفيعة على عنقه

البرونزي .

ونظر إليه الكابتن . وعادت روحه إلى بعيد جداً . إلى قرية على

شاطئ البحر الأسود . قرية امتلأت بالسلام وبالسيحيين الطيبين وبالخضرة .

كان العجوز في ذلك الوقت قسيساً شاباً متحمساً أسود الشعر ،

يواجه الأتراك مواجهة الند ، ويدافع بقوة عن المسيح والمسيحية . وكلما

جاء عيد القديس الذي يحفظ القرية في راحة يده ، كان القسيس يدخل

في لهب النار ويمكث فيه طويلاً ، يرقص ويدق بيديه .

كم كان في ذلك الوقت يكرهه ، وكم كان يحبه ، وكم كان يفخر به !

وأخيراً بعد ذلك ، قطع علاقته به . واختفى كل من الأب والابن عن نظر الآخر . لكنهما بعد سنوات عديدة التقيا مرة أخرى ، أثناء الحرب الألبانية .

ما أعجبه وهو يشمر للناس رداء الكهنوتى ليتسلق الجبال ويدعو السيدة العذراء او كلما ناداها ، رآها الجنود تظهر بالفعل وتذرع الصخور لترفع الجرحى بين ذراعيها . فذلك العجوز كان إذا أراد شيئاً ، يجعله مادياً متجسداً فى الهواء . لأنه كان يؤمن بما يريد ، ويعانى وينزع روحه من جسمه لكي يصبح العذراء أحياناً ، وأحياناً أخرى الفارس القديس جورج ، وأحياناً يتحول إلى صوت عظيم يشير تأثره الجنود قائلاً : « المسيح منتصر ! »

وصل الأب ياناروس إذ ذاك إلى ارتفاع كبير ، وكاد ينعطف نحو راستوفا .

كانت أشعة الشمس لا تزال شديدة الميل ، فاستطال ظله عملاقاً على الحصى الأحمر . وقفز لوكاس الضابط إلى الطريق ورفع بندقيته صائحاً : — على مسئوليتى يا كابتن . هل لأنه أبوك ؟ من الأفضل أن تسيطر على نفسك . فهناك ما يجب أن تقدم الحساب عنه . ألم تسمعه ؟ يقول إنه يريد أن يكون حراً .

وممع الأب ياناروس خلفه قعقة البندقية تعد لإطلاق النار . وفهم . فأمسك المسيح بيده ووضع أمام صدره حتى لا تصل إليه طلقة الرصاص قائلاً فى رقة وهدوء :

— تعال يا ابنى . تعال . فيجب ألا يجرحوك .

وذهب اثنان أو ثلاثة من الأنصار يقفون إلى جانب لوكاس مستعدين لإطلاق النار ، ينظرون فى نفس الوقت إلى الكابتن ، وكان يقف أمام بوابة الكنيسة .

وتدفق الدم في دماغه .

لم يتكلم .

كان يشعر بالتقدير نحو أبيه وهو يخطو بين الصخور ويتدحرج نحو
السهل مسرعاً متوجهاً كأنه عملاق عجوز .

وقال لوكاس مرة أخرى :

— والآن ياسيدي الكابتن ؟ أقول لك إنه سيشعل النار في كل

مكان ، إنك رغم كل شيء لن تتركه يفعل ذلك !

ثم أضاف متضحكا في خبث :

— إلا إذا كنت تشفق عليه !

وبدأت الدماء تغلي في عروق الكابتن . كان الرفاق جميعاً ينتظرون

وعيونهم مثبتة عليه .

واضحك لوكاس مرة أخرى وهو يغمز بعينه الآخرين ، ويقول

من بين أسنانه :

— الآن بالذات ، سوف نرى ...

لكنه لم يتم عبارته . فقد رفع الكابتن يده قائلاً بصوت مخنوق :

— اقتلوه !

وصاح لوكاس :

— يا أب ياناروس ، انتظر !

وسمع العجوز النداء فاستدار . وتوجهت في الشمس لحيته ، حمراء

بالدم .

وركز الضابط البندقية في كتفه . وأصاب الرصاصة الأب ياناروس

في جبهته ، ففتح ذراعيه دون أن يطلق صيحة . وسقط على ظهره فوق

قطع الحجارة .

كتب المترجم

١ - المبادئ الأساسية للفلسفة

(جورج بولتزر - ١٩٥٧ - نقد)

٢ - بارل ماركس

(تأليف ستيفيانوفا - ١٩٥٧ - نقد)

٣ - المادية والمثالية

(جورج بوليتز - ١٩٥٨ - نقد)

٤ - الممانين

(قصة دستوييفسكي ومسرحية البير كامى - ١٩٦٧)



تحت الطبع :

الطريق الجديد إلى الاشتراكية

دراسة عاج بها المؤلف تطورات الماركسية التقليدية وإصالة الطريق الجديد الذى شقته الثورة المصرية ، مع مجموعة من الوثائق الهامة للمجاذبات الرسمية التى جرت أثناء اللقاءات الفكرية بين ممثلى الاتحاد الاشتراكي العربى وممثلى بعض المنظمات الاشتراكية فى الخارج .

الاخوة الاعراب

الحرب الاهلية بين الشموعيين والملكيين في اليونان .
قرية جبلية موحشة يكسوها لون داكن . قلوب اهاليها
متحجرة بقلوبها الحقد . فجاء تحول الحقد الى حرب . بناوا
يوزعون عليهم البنادق والقنابل اليدوية والرايات . يزعمون
ان هذا هو الطريق لانقاذ الدين والوطن . وانطلقت حملة
القتل والمطاردة . مطاردة الاخ لاختيه . اقتل ! القتل ! وعلى
قمة الجبل لجأت قوات الشموعيين والانصار ترفع الراية الحمراء .
حتى زوجة الفومندان هربت معهم الى الجبل . . .
لكن قسميس القرية الثائر لا يريد ان يختار واحدا من
اثنين : الشيطان او لينين . . . كان يقف بين الفريقين فاتحا
ذراعيه في يأس : المحبة ! المحبة !

لماذا لا يبحث عن طريق ثالث ؟

وجاء الرد اخيرا . رصاصة من بندقية .

هذه آخر رواية اصدرها الكاتب العالمي نيكوس
كازانتزاكي مؤلف رواية « زوربا اليوناني » . يقدم فيها
تركيبا من الوجودية والماركسية والتشريح الجري . لتفسيمة
الفرد واحسان المجتمع .

نيكوس كازانتزاكي

مؤلف « زوربا اليوناني »